وقفات تأملية في القصص القرآني

بالقصص القرآني نقترب وبفكر وتدبر نرتقي

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: وقفات تأملية في القصص القرآني
تـأليـــــــف: سميحة عبد الوهاب المتبولي
تصميم داخلي: سالم عبدالمعزسواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــع: 25X17.6
سنـة النشـر: ٢٠٢٤

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 1885 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 94 - 9544 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

وقفات تأملية في القصص القرآني

بالقصص القرآني نقترب وبفكر وتدبر نرتقي

تجميع وتأليف

أ/ سميحة عبد الوهاب عبد الوهاب المتبولى

راجعه وأخرجه

د/إسراء مجدي عفيفى أبو الحسن

من الاعتراف للجميل أتوجه بخالص الشكر والتقدير للدكتورة إسراء مجدي عفيفى كلية الأزهر الشريف لما بذلته من جهود في مساعدتي لهذا الكتاب ومن باب الوفاء.

سميحة عبد الوهاب المتبولى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين سيدنا محمد- صلى الله عليه - وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

يقول الله عز وجل:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ (البقرة (٣/١٨٦).

من متلقى روح هذه الآية الكريمة التي يؤمن بها كل مسلم؛ كان من الواجب على كل مسلم أن يؤمن بكل الرسل وبكل الكتب المنزلة عليهم بدون تفريق.

ولما كان الإيمان بالرسل والكتب من ركائز الإيمان في الإسلام كان على كل مسلم أن يبحث ويدقق النظر في هذه الركائز وبخاصة في كتاب الله الذي:

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾

(فصلت /٤٢) .

ولأن القصص القرآني من أعظم أساليب الإقناع، فالقصة محببة إلى الإنسان قبل العصور منذ نعومة أظفاره، وما يأتي للإنسان من حب وانتباه، ويستقر في الذهن ويتمكن من العقل والوجدان. فالقصص القرآني أشد أثرًا في النفس؛ إذ يحرك المشاعر والعواطف في القلوب، ويثير الوجدان فيها،

فتصبح القلوب معلقة بين الخوف والرجاء، فتتشوق النفس لما أعده الله –سبحانه – لمن خضع له، وتخشع الجوارح له، فيزداد ويرسخ الإيمان في القلب، فهو أهم الوسائل التربوية لتحقيق ذلك الأثر(١).

وهكذا أصبح الأسلوب القصصي القرآني من أنجح الأساليب للتقويم والهداية وتنقية النفوس إلى فعل كل خير، والبُعد عن كل الشرور والآثام.

ولذا استعنت بالله على أن أقوم بجمع الآيات القرآنية المتعلقة بالقصص القرآني، راجية من الله–عزَّ وجلَّ – التوفيق والسداد، فعملت على تصنيفها وشرحها بأسلوب مبسط شيق، مستعينة بالتفاسير، وكتب التاريخ معتمدة على صحيح أخبارها، حتى يجد القارئ بُغيته من فهم وتدبر آيات القصص القرآني، فتعلق بذهنه، فيسهل حفظه، ويبارد أن يجعل منها أسلوبا لحياته يستمد منها العظة والفعل القويم والقدوة الصالحة.

فإن أكن وفقت فالتوفيق من الله فله الحمد وله الشكر:

﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (هود/٨٨)،

وما كان من سهو أو تقصير فإنما أنا بشر، يعتريه النقص والنسيان، وحسبي جهدي، والله أسأل الإخلاص والقبول.

(١) ينظر: كيف تحفظ القرآن ، د/ عبد الرب آل نواب صـ٩٥ :٩٨، دار طويق ، ط: الرابعة ،٢٠٠١م.

الطريق إلى معرفة اللّه تعالى

قال الله تعالى: { قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ } (الإخلاص /١:٤).

ولأن الهدف الأساسي في القرآن؛ هو إثبات وحدانية الله .

قال الله تعالى: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥ } (الأنبياء /٢٥).

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى جميع الرسل لإثبات وحدانيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله، فاخلصوا العبادة له وحده سبحانه.

ولقد جاء حديثي عن قصص الأنبياء بذكرى في بداية كل قصة لوحدانية الله ووجوده وعظمته.

ثمَّ سرد القصة مع الاستشهاد بآيات الله –سبحانه وتعالى – في القرآن الكريم بأسلوب شيق مع تدريج القصة. فالقصص جندٌ من جند الله تعالى يقصها الله سبحانه لعباده؛ تنير لهم الطريق، ويستفيدوا من أحداث الأمم من قبلهم.

قال الله تعالى: { لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١ }. (يوسف /١١١).

كيف نصل إلى تمام محبة الله في قلوبنا؟

إنَّ الوصول إلى الله تعالى يتطلب عدة أمور، والأصل في العبادة أن تكون بين جناحي الحب والرجاء، ويكملهما الخشية من الله بالتوازي لا يطغى جانب على آخر، ومن ذاق طعم محبة الله حتمًا سيدرك الفرق بين أن يعبد الله بخشية فقط، أو بحب وخشية معًا، ولا يمكن أن يشعر العبد بتمام الحب إلا بعد الوصول إلى عدة مراتب، والإقبال على الله أول المراحل، ولا يكون الإقبال الصحيح إلا بعد معرفة الله.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: "فَفِي الْقَلْبِ شَعَثٌ، لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ. وَفِيهِ وَحْشَةٌ، لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ. وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ. وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسَكِّنُهُ إِلَّا الِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ نِيرَانُ حَسَرَاتٍ: لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضَائِهِ، وَمُعَانَقَةُ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ. وَفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ: لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ مَطْلُوبَهُ.

وَفِيهِ فَاقَةٌ: لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَصِدْقُ الْإِخْلَاصِ لَهُ. وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الْفَاقَةَ مِنْهُ أَبَدًا" (١).

(١) ينظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (ت٧٥١ هـ) (٨٢/٢) ت/ محمد المعتصم البغدادي ، دار الكتاب العربي – بيروت ،ط: الثالثة ،١٩٩٦م

فكيف نصل إلى مرحلة معرفة الله والإقبال عليه؟

صلاح القلوب بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وأصل الصلاح وأعلاه هو المحبة، والمعرفة؛ هي الطريق للمحبة.

قال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه وكل ما له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقًا (١).

ومن ذاق المعرفة والحب بحق وصل إلى سعادة الدنيا والسكينة وهدوء القلب.

أولًا: معرفة الله:

ومعرفة الله لها عدة طرق: أولها التسليم والاستسلام، ولا يكون تمام التسليم إلا بفهم حقيقة "لا إله إلا الله" ، كما بدأ النبي ﷺ بتربية جيل الصحابة فأخرجهم من التيه والظلمات، وحلقت أرواحهم في رحاب التوحيد وحدثت المعجزات.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ (الأنفال /٩).

"لا إله إلا الله" ركنان: (النفي "لا إله") و (الإثبات "إلا الله")، فهي تنفي أن يكون في الكون معبود بحق إلا الله، ويثبت له ذلك وحده لا شريك له، وتشتمل الشهادة على معانٍ عديدة:

---

(١) ينظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم الجوزية (ت٧٥١ هـ) ، (١٩٧/٢) ت/ محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف – الرياض ، ط:الأولي ،١٩٩٥م.

إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة:

قال الله تعالى:

{ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠} (الجن /٢٠).

البراءة من الشرك وأهله:

قال الله تعالى:

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ } (النساء/١٥٤).

ألا يتخذ العبد من دونه حكمًا يتحاكم إليه:

قال الله تعالى:

{ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١} (الشورى /٢١).

الانقياد: وهو: الاتباع بالأفعال والاستسلام والإذعان.

قال الله تعالى:

{وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤} (الزمر /٥٤).

القبول:

إظهار صحة الاتباع بالقول:

"المحبة" والمراد الوصول إلى محبة الله، ومحبة رسوله، ومحبة كل من يؤمن ويتبع منهج الإسلام. فترى العبد المحب يعبد الله حق عبادته ويحذر من معصيته

قال الله تعالى:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾

(هود / ٣).

قال الله تعالى:

{مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ } (النحل /٩٧).

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَارْتَعُوا"، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: " حِلَقُ الذِّكْرِ " (١).

يقول ابن تيمية (رضي الله عنه): إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، قالوا وما هي؟ قال: "إنها جنة الإيمان" إنَّ المؤمن يعيش في جنة حقيقية بإيمانه بالله تعالى ورضاه عن قضائه في كل ما قدره عليه: فيجد السكينة والطمأنينة مهما أصابه من البأساء والضراء، فلا يحزن ولا يجزع؛ لأنه لا يعلم أنه لا راحة له إلا مع أول قدم يضعها في الجنة (٢).

---

(٢) ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢)، والحديث أخرجه الترمذي بإسناد حسن ح (٣٥١٠)

(١) ينظر :مدراج السالكين (١ /٤٥٢).

يقول الحسن البصري (رضي الله عنه): لا تجعل لنفسك ثمنًا غير الجنة فإنَّ نفس المؤمن غالية، وبعضهم يبيعها رخيصة جنة الدنيا نصب لها أسلافنا الإقدام وجهزوا حكايا الشوق إلى دار السلام، وألبسوا ثياب التقوى والحياء، وتطيبوا بطيب الصدق والإخلاص، والوفاء تبتلوا بذكره تعالى وتمسكوا بكتابه، وجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد، فهبت عليهم نسائم المحبة والرضوان (١).

فحقًّا قد جعل الله تعالى نعيم وجنة الدنيا في التلذذ بطاعته واجتناب نواهيه، وهذا هو المعنى الحقيقي المقصود لمعرفة الله بطاعته وعبادته الموصلة إلى أعلى درجات المحبة؛ التي بها سلامة واستقامة القلب وطمأنينته، والوصول إلى الصراط المستقيم.

(١) ينظر : لا تحزن د/ عائض القرني ، صـ٣٠٣ ، مكتبة العبيكان ،ط: الأولى ٢٠٠١م .

آثار محبة الله لعبده:

١- القبول في الأرض:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ)، قَالَ: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ "(١).

٢- التوفيق للطاعات: إنَّ الله إذا أحب عبدًا وفقه للطاعات واستعمله في الصالحات.

ففي الحديث: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ» قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ»(٢).

٣- الابتلاء: ويبتلى العبد على حسب ما وصل من محبة الله.

ففي الحديث: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ» (٣) يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليها خطيئة.

والمراد أن يصل العبد لأعلى مراتب المحبة. ومحبة الله هي الطمأنينة في مواجهة حروب ثغرات النفوس.

وتتجلى تبعات محبة الله في هذا "الحديث القدسي":

عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي

---

(٢) ينظر :مدراج السالكين (١ /٤٥٢)، والحديث صحيح أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٩).

(٣) ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢). والحديث صحيح على شرط مسلم ، أخرجه أحمد وللترمذي والبيهقي وابن حبان .

(٤) ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢) والحديث أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، النسائي في السنن الكبرى (٧٥٦٧).

يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المؤْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ "(١).

وهنا تتجلى حكمة الخالق في وجود الخلق المخير:

كلما زادت محبة الله في قلب العبد الذي ميزه الله من عقل وتدبر وحكمة ويقين بوجود الله في نفسه، وإخلاصه والصدق في عبادته باختياره وطاعته زاد ارتقاء وقرب لله عزَّ وجلَّ.

الإسلام:

يعرف الإسلام: بأنه الإقرار بالتوحيد مع التصديق والعمل بشريعة الله تعالى.

وهو الدين الذي بعث به محمد (ﷺ)، ومن الجدير بالذكر أن الإسلام دين شريعة وعقيده وأخلاق، وقد بين الله تعالى ونبيه عليه الصلاة والسلام، فيه الحلال والحرام والحقوق والواجبات والعبادات والمعاملات، ومشاهد يوم القيامة، والآداب، وبعد تمام التشريع على يد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ارتضى الله تعالى هذا الدين العظيم ليكون منهج حياة للخلق أجمعين إلى قيام الساعة، حيث ***قال الله تعالى***:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ المائدة /٦ .

ما رواه البخاري ومسلم: {عَنِ ابْنِ عُمَرَ، (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ} (٢).

---

(٢) السابق ، والحديث أخرجه البخاري (٦٥٠٢) .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري ح(٨).

وورد أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَالَ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ» (١).

وقال (ﷺ): {أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ}(٢).

لا إله إلا الله لا تنفع قائلها إلا أن يكون عاملًا بها، آتيًا بشروطها بالقول والعمل، نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا من أهل لا إله إلا الله العاملين بها ولأجلها.

فضائل كلمة التوحيد:

لا إله إلا الله، إنَّ لهذه الكلمة الجليلة فضائل عظيمة، وفواضل كريمة، ومزايا جمَّة، لا يمكن لأحد استقصاؤها، وهي أفضل الكلمات وأجلها وأعظمها، ولأجلها خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، فهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى وهي أعظم أركان الدين، وأهم شعب الإيمان، وهي سبيل الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وهي كلمة الشهادة، ومفتاح دار السعادة (الجنة) وأصل الدين وأساسه ورأس أمره.

كل آيات القرآن تدل على أنه الواحد الأحد الفرد الصمد لمعرفة الله ووحدانيته؛ لذا نستشعر عظمة الله سبحانه وتعالى (آية الكرسي) .

قال الله تعالى:

{ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ

(٢) ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢) والحديث مرسل صحيح أخرجه البيهقي في الشعب (٤٠٧٢)

(١) ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢).والحديث صحيح أخرجه مسلم (٤٤).

وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ } {البقرة /٢٥٥}.

إنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا دليلًا منطقيًّا يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة: آية الكرسي.

لأنَّ كلمة الكرسي هي الظاهرة فيها: تعني السلطان والقهر والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا. " إنه لا إله إلا هو الحي القيوم " آية التوحيد إنه الحي، إنه القيوم، إنه لا تأخذه سنة ولا نوم، والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه.

وهو العليم بكل شيء، الذي يسع كرسيه السماوات والأرض؛ أي دخل في وسعه السماوات والأرض ولذلك يقول أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه): (قلْتُ يَا رَسُول الله فأيما أنزل عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ: "آيَةُ الْكُرْسِيِّ" ثمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ) (١).

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علميه قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحي الأرض، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثواني الضوئية، ولقد تعودنا في حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة، ولكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع في قياس أبعاد النجوم، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما، وهذا يجعل التعبير غير عملي، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهي ما نسميه السنة الضوئية، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالي ثلاث مائة ألف كيلومتر في الثانية.

لذلك فقياس أي مسافة بيننا وبين أي نجم في السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة.

---

(١) (والحديث أخرجه ابن حبان (٣٦١). ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢).

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليون من الأميال ويصلنا ضوؤها في خلال ثمانية دقائق وثلث الدقيقة.

والنجم الشعرى اليمانية: وهي ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها في تسع سنوات ضوئية. إذن فالسنة الضوئية هي وحدة لقياس المسافات الفلكية.

ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا في خمسين سنة

ضوئية!! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا، فما بالنا ببقية السماوات؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا.

قال الله تعالى:

{ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ } ﴿ فصلت/٥٣،٥٤ ﴾.

ولنا أن نعرف أي تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة

يقول سبحانه: {سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ } {الحديد /٢١}.

هذه هي الجنة التي أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله. فإذا كان عرض الجنة هو السماوات والأرض، فما طولها إذن؟ وكم يكون بُعدها؟ والعرض كما نعرف هو أقل البُعدين.

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض، ولكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ما أراده الحق لنا من السماء والأرض.

ولذلك فعندما نسمع قول الحق (وسع كرسيه السماوات والأرض) فلنا أن نتخيل أي عظمة هي عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام.

(ولا يؤوده حفظهما)؛ أي أنه لا يثقل على الله حفظ السماوات والأرض، فقد وسعهما الكرسي الرباني.

(فما بالنا بصاحب الكرسي) !!

قال الله تعالى: { لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ }{الأنعام /١٠٣}.

قال ابن كثير: "وَنَفْيُ هَذَا الْأَثَرِ الْإِدْرَاكَ الْخَاصَّ لَا يَنْفِي الرُّؤْيَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجَلَّى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاءُ. فَأَمَّا جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ -تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ -فَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ"(١).

وهو العليم بكل شيء، الذي يسع كرسيه السماوات والأرض وهو العلي فلا أعلى منه، وهو العظيم بمطلق العظمة. فتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصول التصور في العقيدة الإيمانية، وعلينا أن تسند لديه لا نستدل عليه.

وإذا كنت لم تعلم مكان روحك في جسدك فكيف تعلم مكان الله؟!

وقد وردت أحاديث كثيرة لآية الكرسي لقدرها ومقدارها عند الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): {أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سِنَامًا وَسِنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فِيهَا آيَةٌ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ فِيهِ شَيْطَانٌ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ}(٢).

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، (٣١١/٣)، دار الكتب العلمية -بيروت ،ط: الأولى -١٤١٩هـ.

(٢) والحديث بإسناد صحيح أخرجه أحمد (٧٨٢١). ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢).

قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، إِلَّا الْمَوْتُ» (١).

عَنْ حَبَّةَ الْعُرَنِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ علي بْنَ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَ)، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) عَلَى أَعْوَادِ الْمِنْبَرِ يَقُولُ: "مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمَوْتُ، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ أَمَّنَهُ اللهُ عَلَى دَارِهِ وَدَارِ جَارِهِ وَالدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ"(٢)

قال الله تعالى:

{ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ }{الأعراف ص١٥٧}.

ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية بأنَّ معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد، فالجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره ولنا أن نعظم ونمجد الخالق المبدع رب العالمين.

قال الله تعالى:

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ }{يونس / ١٨}.

---

(١) والحديث أخرجه الطبراني (٧٥٣٢). ينظر مدراج السالكين (١ /٤٥٢).

(٢) والحديث أخرجه البيهقي في الشعب (٢١٧٢). ينظر تفسير ابن كثير (٣/٣١١).

فهو تعالى علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات تنزه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون.

قال الله تعالى:

{لَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾}{القصص /٨٨}.

لا معبود بحق إلا الله، كل شيء يفنى ويبقى ذاته المقدسة، وله القضاء النافذ في الخلق وإليه مرجعهم جميعًا يوم الميعاد.

قال الله تعالى:

{ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ }{البقرة/١٦٣}.

إنَّ المعبود إله واحد منفرد بالوحدانية سبحانه المنزه عن كل شيء.

قال الله تعالى:

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾}{النحل / ٤٠}.

إنَّ أمر البعث يسير علينا.

قال الله تعالى: { قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾}{آل عمران /١٩}.

قل يا الله يا مالك كل شيء المتصرف في الأكوان بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير.

قال الله تعالى:

{أَلَم تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ} {المجادلة /٧}.

إنَّ الله مطلع على كل ذرة في الكون لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يخفى عليه سر ولا علانية لينبه إلى إحاطة علمه جلَّ وعلا بالجزيئات والكليات، ثمَّ يخبرهم تعالى بما عملوا ويجازيهم عليه يوم القيامة.

جاء في الحديث: "أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: قُلْ لِقَوْمِكَ: مَا بَالُكُمْ تَسْتُرُونَ الذُّنُوبَ مِنْ خَلْقِي، وَتُظْهِرُونَهَا لِي؛ إِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ، فَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِي، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنِّي أَرَاكُمْ فَلِمَ جَعَلْتُمُونِي أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ "(١).

قال الله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾ {الأنعام /٥٩ }.

كما أنه سبحانه عنده خزائن الغيب؛ وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو، ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ.

---

(١) ينظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الدمشقي، تح / شعيب الانارؤط (٤٠٨/١)،مؤسسة الرسالة-بيروت -ط: السابعة،٢٠٠١م .

قال الله تعالى:

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ } (الحجرات /١٣).

كما أنه سبحانه وتعالى يخاطب خلقه ويذكرهم بالغاية من خلقهم بقوله؛ يا أيها الناس إنا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة ليعرف بعضكم بعضًا، إنَّ أكرمكم عند الله أشدكم اتقاء له، إنَّ الله عليم بالمتقين، خبير بهم، إن أردت صلاح أمرك إلى الله فأصلح أمور الآخرين بالتقوى والعمل الصالح؛ لأنَّ ربك سبحانه قيوم عليك لا يخفى عليه منك خافية فمن كان في ظله أمن بسلوكه القويم في الدنيا، أظلهم الله في الآخرة، كما جاء في "الحديث الشريف": عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "(١).

وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويرقى إلى القمة، فغنيه متواضع، وفقيره كريم شريف، وشبابه طائع لربه.

قال الله تعالى: { يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ }

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٦٠).

يقول الحق يوم يطوي السماء كما تطوي الصحيفة على ما كتب فيها وذلك يوم القيامة ينبعث فيه الخلق على هيئة خلقنا لهم أول مرة كما ولدتهم أمهاتهم، ذلك وعد الله الذي لا يتخلف، وعدنا بذلك وعدًا حقًّا لينًا، إنا كنا فاعلين دائمًا ما نعد به.

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ }(الأنبياء /١٠٥)

ولقد كتبنا في الكتب المنزلة من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ، أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون الذين قاموا بما أمروا به واجتنبوا ما نهوا عنه، فهذه الموعظة لعبرة كافية لقوم عابدين الله بما شرعه لهم ورضيه منهم.

"وفي الحديث: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "يَقُولُ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧] وَفِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ، {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠] وَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]"(١).

قال الله تعالى:

{ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ } {لقمان /٢٢}.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٢). حديث حسن صحيح

فمن يخلص عبادته لله وقصده إلى ربه تعالى وهو محسن في أقواله متقين لأعماله، فقد أخذ بأوثق سبب موصل إلى رضوان الله وجنته.

قال الله تعالى:

{ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿٣٤﴾ }{لقمان /٣٤}.

وكل ما يجب أن تعلمه أن المقادير تجري بأمر الله لحكمة أرادها الله.

قال الله تعالى: { عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ }{الجن / ٢٦: ٢٨}.

قال ابن كثير: إنَّ الله يحفظ رسله بملائكته ليمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما أنزله إليهم من الوحي؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم.

وأن الله سبحانه وتعالى أحاط علمه بما عندهم ظاهرًا وباطنًا من الشرائع والأحكام وغيرها ألا يفوته منها شيء، وأنه أحصى كل شيء عددًا فلم يخف عليه منه شيء.(١)

قال الله تعالى: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ }{الشورى /٥١}.

- بين تعالى أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه الأولى: الوحي بطريقة الإلهام أو المنام.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/٤٢٨).

-الثانية: أن يسمعه كلامه من وراء حجاب، كما كلَّم سبحانه موسى عليه السلام.

-الثالثة: أو يرسل رسولًا كما ينزل جبريل عليه السلام وهذا خاص بالأنبياء.

إنه تعالى عليّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قد قهر كل شيء ودانت له كل المخلوقات، حكيم في تدبير أمور خلقته.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظيم سلطانه.

قال الله تعالى: { يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ } {النحل /٢}

ينزل الله الملائكة بالوحي من أمره على من يشاء من عباده المرسلين: بأن خوفوا الناس من الشرك وإنه لا معبود بحق إلا أنا فاتقون بأداء فرائضي، وإفرادي بالعبادة والإخلاص. وسمي الوحي روحًا؛ لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان.

وهكذا أيها القارئ الكريم فإنَّ المتأمل للقرآن الكريم يجد أن كل لفظة فيه إقرار بوحدانيته سبحانه وقدرته وعلمه، وأنه ما أرسل الرسل إلا دعوة إليه وتعريفًا به، وها نحن ننطلق الآن لنقف بين يدي القصص القرآني من أبينا آدم -عليه السلام – إلى نبينا محمد -ﷺ – من خلال سرد القصة من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية بأسلوب شيق مع تدرج القصة؛ ممَّا يسهل حفظ القرآن الكريم.

وليكن لنا مع كل نبي ورسول وقفة نستسقي فيها العظة والعبرة؛ لنصل إلى المعرفة الحق إلى خالقنا وموجودنا ومعلمنا وهادينا إلى صراط مستقيم.

قصة سيدنا آدم عليه السلام

قال الله تعالى:

{الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢} (١).

لقد أنزل الله تعالى القرآن على رسوله محمد -ﷺ-؛ ليكون إنذارًا وتذكيرًا للمؤمنين.

قال الله تعالى:

{نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ } (٢).

ولقد كان من وحي القرآن الذي نزل على سيدنا محمد – ﷺ- (قصص الأنبياء).

قال الله تعالى:

{لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١١١}(٣).

---

(١) سورة الأعراف: (٨ / ١:٢).

(٢) سورة يوسف: (١٢ /٣).

(٣) سورة يوسف: (١٣ /١١١).

لقد حكى القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل، وحالهم مع أقوامهم؛ لتكون موعظة للمؤمنين(١).

قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾} (٢).

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم معجزة لنبيه محمد – ﷺ، فلا يمكن لبشر أن يأتي بسورة من مثله.

---

(١) لم يقص القرآن الكريم كل قصص الأنبياء والرسل السابقين، بل ذكر بعض منهم، وإجمالي ما ذكر بالقرآن الكريم خمسة وعشرون نبيًا، لكن أشار سبحانه إلى أن هناك من الرسل والأنبياء لم تصلنا أخبارهم، لكنه سبحانه أحاط بهم علمًا وعددًا، قال قال الله تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾} (سورة النساء)،

ولقد بيّنت السنة النبوية أعدادهم، عن أَبي ذر، قال: دخلت المسجدَ؛ فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس وحده، فقال: "يا أَبا ذر! إنَّ للمسجد تحيةً، وإنّ تحيته ركعتين، فقم فأركعهما"، فقمت فركعتهما، ثمَّ عدت فجلست إليه. قلت: يا رسول الله! كم الأَنبياء؟ قال: "مئة أَلف وعشرون أَلفًا"، قلت: يا رسولَ الله! كم الرسل من ذلك؟ قال: "ثلاث مئة وثلاثة عشر جمًّا غفيرًا". [قلت: يا رسول الله! من كان أولهم؟ قال: "آدم عليه السلام.. خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قِبلاً". (ينظر: صحيح ابن حبان رقم ٣٦١ (٢/٧٧).

(٢) سورة يونس: (١١ /٣٨:٣٦).

قال الله تعالى: {كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ }(١).

قصَّ الله عزَّ وجلَّ على سيدنا محمد- ﷺ – أنباء بعض رسله السابقين في القرآن الكريم، ومن ينكره فله وزره عند الله يوم القيامة.

قال الله تعالى: {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾} (٢).

يثبت الله قلب نبيه –ﷺ – بإخباره بأنباء السابقين من الرسل، فهي موعظة للمؤمنين.

قال الله تعالى:

{ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ }(٣).

عن ابن مالك الأشعري قال: رسول الله . ﷺ . (كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها) (٤).

---

(١) سورة طه: (١٦ /١٠١:٩٩)

(٢) سورة هود: (١٢ /١٢٠).

(٤) سورة الإنسان: (٢٩ / ٣:١).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٢٣)، والترمذي رقم (٣٥١٧)، والنسائي (٢٤٣٧)، ومسند أحمد (٢٢٠٩٩).

قال الله تعالى:

{۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ }(١).

الله لم يكن معه أي شيء ثم خلق كل شيء لعبادته.

قال الله تعالى:

{ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ

(١) سورة فصلت: (٢٤ /١٢: ٩).

صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ }(١).

خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء بقدر، وجعل هذا الخلق دليلًا وبرهانًا على وجوده لمن لديه عقل وبصيرة.

قال الله تعالى:

{يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ }(٢).

لماذا لا نشكر الله وهو الذي خلقنا جميعًا في أحسن صورة!!.

الحديث: عن عبادة بن الصامت، قال رسول الله ﷺ "إنَّ أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال رب ماذا اكتب؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة"(٣).

---

(١) سورة الرعد: (١٣:٢:٤).

(٢) سورة الرعد: (١٣:٢:٤).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن رقم (٤٧٠٠)،الترمذي رقم (٢١٥٥)، ومسند أحمد رقم (٢٢٧٠٧).

فبدأ الله عزَّ وجلَّ يخبر القلم، والقلم يكتب حتى كتب كل شيء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بـ ٥٠٠٠٠ ألف عام، ثمَّ خلق الله عزَّ وجلَّ الملائكة والجن وسائر المخلوقات حتى وصل إلى خلق آدم عليه السلام (١).

فلقد أخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة بأنه سيخلق بشرًا؛ خليفة له في الأرض، ولأنهم ظنوا أن إقرار العبودية لله، وتقديسه، وتسبيحه آناء الليل والنهار، غاية الخلق، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ لذا بدت الدهشة والحيرة عليهم، وحكى ذلك القرآن الكريم، لكنهم ليس لهم إلا التسليم والامتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾(٢).

إعلام الملائكة بخلق آدم عليه السلام، ليقوموا بخدمة الخليفة القادم على الأرض وصيانته وحفظه، وعونًا له ولذريته من بعده.

---

(١) في الحديث المذكور دلالة نصية على أن القلم أول المخلوقات، لكن هل هو أول المخلوقات أم هناك شيء قبله؟ تعددت أراء العلماء حول هذه المسألة، فذكر الإمام الحافظ ابن كثير آراء العلماء حول هذه المسألة.

فيرى الإمام الطبري وابن الجوزي إلى أن القلم أول الخلائق، وذلك استنادا للحديث المذكور.

ولكن الذي عليه الجمهور أن العرش أول المخلوقات؛ احتجاجًا بالحديث الصحيح المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء (صحيح سلم رقم ٢٦٥٣).

قالوا وهذا التقدير في كتابته المقادير، وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق الرش؛ فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتبت به المقادير، كما ذهب إلى ذلك الجمهور، ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. (ينظر: البداية والنهاية لابن كثير ١ /١٦).

(٢) سورة البقرة:(١/٣٠).

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾(١).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ملازمة الملائكة للبشر، ومنهم رقيب وعتيد؛ حيث أشار أكثر العلماء أنهما الملكان الموكلان بكتابة الأعمال، وبعضهم قال إنهما صفات للملائكة الملازمة للإنسان.

قال الله تعالى: {وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ }(٢).

والحفظة من الملائكة.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾(٣).

---

(١) سورة ق: (٢٥ /١٨: ١٦).

(٢) سورة الأنعام: (٧/ ٦١).

(٣) سورة ص: (٢٣ /٧٥).

قال الله تعالى: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ }(١).

أدركت الملائكة أن الله سيجعل في الأرض خليفة وأصدر الله سبحانه وتعالى أمره إليهم بالسجود له – سجود تكريم لا سجود عبادة؛ لأنَّ سجود العبادة لا يكون إلا لله وحده. (٢)

ولقد ورد في الآثار أن الله تعالى لما أراد خلق آدم، أوحي لملك من ملائكته أن يأتي من الأرض بقبضة من كل تراب الأرض أخذ شيئًا، فجاء بني آدم هكذا فمنهم الأبيض والأسود والأحمر منهم الخبيث والطيب وهكذا جمع الله عزَّ وجلَّ التراب سواه بيده سبحانه وجعله في أحسن تقويم، فصار كالفخار إذا ضرب ظهر له صوت، ثم اشتد تماسكه، فصار طينًا لازبًا؛ ثم تغيرت رائحته فصار حمأ مسنونًا وظل على هذه الحال قبل أن تدبّ فيه الروح، وكان إبليس يمر عليه فيتعجب أي شيء يصير هذا الطين!(٣).

قال الله تعالى: {خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ }(٤)

---

(١) سورة ص: (٢٣ /٧١: ٧٣).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده: (٤ /٤٠٦)، ولقد حكى القرآن الكريم سجود التكريم ؛كما سجود الملائكة لآدم عليه السلام وسجود أخوة يوسف له عليه السلام.

(٣) ذكر بعض أصحاب السير أن سيدنا آدم بقي على حاله من الخلقة التي فطره الله عليها أربعين سنة، ولكن هذا مخالف لما جاء في السنة النبوية، إذ لم يرد حديث أو أثر يدل عليه، فهو من الإسرائيليات التي لا يمكن الاعتماد عليها لضعفها، وما نصت عليه السنة النبوية الصحيحة.

(ينظر: تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري ، ١ /٩٢ دار التراث –بيروت ، ط:الثانية ١٣٨٧ ، البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ١/٨٥ دار التراث العربي –بيروت –ط: الأولى ١٩٨٨م) .

(٤) سورة الرحمن: (٢٦ /١٤).

فمن هذا الصلصال خلق الله تعالى آدم سواه بيده سبحانه ونفخ فيه من روحه سبحانه فتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة، فتح آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له ماعدا إبليس بالرغم من وقوفه مع الملائكة.

الحديث عن أبي هريرة، عن النبي (ﷺ)، قال: "خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فجلس فعطس، فقال: الحمد لله، فقال له ربه: يرحمك الله ربك، ائت أولئك الملائكة، فقل: السلام عليكم، فأتاهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا له: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه تعالى، فقال له: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم" (١)

ولقد استنبط العلماء: أن السلام هو ما شرعه الله تعالى لآدم وذريته من بعده، وهو تحية الملائكة وتحية أهل الجنة.

قال الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ }(٢)

فتحية أهل الجنة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعن عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – أَنَّ النبي – ﷺ – قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ» (٣).

---

(١) أخرجه النسائي رقم (٢٢١)، والمسند الجامع رقم (١٤٢٩٩)(١٧ / ٦٦٨).

(٢) سورة يونس: (١١ /٨: ١٠).

(٣) (حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) رواه الترمذي في سننه (٦٥٢/٤، رقم ٢٤٨٥)، وابن ماجة في سننه (٤٢٣/١، رقم ١٣٣٤)، وأحمد في مسنده (٤٥١/٥، رقم ٢٣٨٣٥)، والحاكم في المستدرك (١٤/٣، رقم ٤٢٨٢).

موقف الملائكة من السجود لآدم عليه السلام:

لما كان السجود من أقرب العبادات التي يتقرب به العبد إلى ربه؛ فهو يدل على مطلق الخضوع والتسليم لله عزَّ وجلَّ؛ لذا فإنَّ الكون كله يسجد لله.

قال الله تعالى:

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ }(١)

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}(٢).

---

(١) سورة النحل: (١٤ / ٥٠: ٤٩).

(٢) سورة الأعراف:(٨ / ١١ /١٨).

قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾}(١).

لقد حكى القرآن في أكثر من موضع موقف الملائكة من السجود لآدم عليه السلام، فقد امتثل جميع الملائكة لأمر ربهم، عدا إبليس الذي لم يكن من الملائكة يومًا، فلما عصى وخالف أمر ربه كبرًا منه وعلوًا، بل وتمادى وأصر على المعصية، ولم يطلب لنفسه التوبة من الله ولكن طلب التحدي لآدم وذريته إلى يوم القيامة، جعل الله له ما أراد، ثم بيّن أن الخلق في اتباعه صنفان؛ فمنهم من يسير على نهجه ويتبع سبيله، فيصيبه ما أصابه من الخزي والخسران المبين في الدارين، ومنهم من يسير على سبيل الحق ويتبع سبيل المؤمنين فيكون من الناجين المفلحين، وإرسال الرسل والمنذرين هم حجة الله على خلقه فيما يتبعون.

---

(١) سورة ص (٢٣ /٧١:٨٨).

قال الله تعالى: {وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾}(١)

لو لم يهب الله سبحانه لآدم – عليه السلام – القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات لكانت المشقة في التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين وما كانت لتمضي الحياة في طريقها، فبالممارسة يتعلم الأفعال.

ولأن الملائكة لا يعرفون حكمته تعالى الخفية ولا يعلمون الغيب، جهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم والإقرار بحدود علمهم، فلقد أدرك الملائكة قدرة آدم –عليه السلام على التعلم والمعرفة؛ وهو السر في أنه سيصبح خليفة الله في الأرض، ويتصرف ويتحكم بالعلم والمعرفة الذي اختُص به الإنسان، ثم إنَّ معرفة الخالق أسمى درجات الإيمان، ونظرًا لتفاوت العقول البشرية وكونها قاصرة عن إدراك الخير والشر جعل عزَّ وجلَّ رسلًا مبشرين ومنذرين رحمة منه للخلق وتفضلًا عليهم، وذلك أوضح قانون إلهي صالح لكل زمان ومكان؛ حيث إنه ينظم علاقة الإنسان أولًا بخالقه ثم بنفسه، ثم بأخيه الإنسان؛ ولأن الإنسان مدني بطبعه فقد منحه الله عقلًا يفكر به ووضع له أسباب العلم والمعرفة في الأرض، وقد نظر الشرع للإنسان على أنه روح وعقل فسمى الله عزَّ وجلَّ بجانبه الوجداني والروحاني ورقي به إلى منزلة:– العابد، والطائع، والخاشع، الساجد، والزاهد، والصديقين، والشهداء، والأولياء، والأبرار، والمقربين.

---

(١) سورة البقرة: (١ /٣٣: ٣٠)

فالمحبة تأتي من أن يكون المخلوق مختارًا أن يؤمن أو يكفر وإذا اختار الإيمان فهو بذلك آمن محبة اختياره بمحبة الله عزَّ وجلَّ، فكل القوانين لصالح البشر وحمايتهم من بعضهم البعض في الحياة الدنيا.

أما الآخرة فيجازي الله عزَّ وجلَّ عبده بما قدم في حياته الدنيا من طاعة أو معصية، جعلنا الله وإياكم من المقبولين في الدارين إن شاء الله تعالى.

سكن آدم –عليه السلام –الجنة وخروجه منها:

قال الله تعالى:

{ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ }([1]).

([1]) سورة البقرة: (١ / ٢٧:٣٢).

قال الله تعالى:

{وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾} (١).

(١) سورة الأعراف: (٨ / ١٩:٢٧).

كان آدم عليه السلام يحس بالوحدة فأراد من جنسه جليس، فخلق الله تعالى روحًا منه، فسماها آدم حواء وأسكنهما الجنة، وبين لهما سبحانه أن الشيطان يتربص بهم، فليحذرا أمره، حتى لا يكونا من الظالمين.

فعاشا في الجنة سويًّا يتنعمون فيها، ولأنه سبحانه أراد أن يروض النفس البشرية على الطاعة، جعلا لهما كل ما في الجنة من نعيم عدا شجرة واحدة حذرهم ربهم منها بأن لا يقربوها.

وفي تحذير الله تعالى لآدم وحواء من الشيطان عدل منه سبحانه، فلا بدَّ للعقوبة أن يسبقها إنذار وتحذير، غير أن آدم عليه السلام إنسان، والإنسان ينسى وقلبه متقلب، وعزمه ضعيف، لذا استغل إبليس إنسانية آدم وبدأ يوسوس له ويدفعه إلى المخالفة والمعصية لأمر الله، ففعل عليه السلام، لكنه أناب وتاب من غفلته، وقد قبل الله عزَّ وجلَّ توبة آدم عليه السلام لكون توبته صادقة نابعة عن يقين واعتراف بالخطأ والندم عليها، قابلها الله عزَّ وجلَّ بعفوه ورحمته، وبذلك سبقت رحمت ربي غضبه عند التوبة.

نزل آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض، وكان ذلك يوم الجمعة ففيه خلق، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها.

عن أبي هُرَيْرَةَ يقول: "قَالَ رسُول الله – ﷺ –: خَيْرُ يَوْمٍ طَلُعَتْ عليه الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقوم السَّاعَةُ إلا في يَوْمِ الجُمُعَةِ " (١).

ولقد بيّن سبحانه وتعالى أن اتباع أمره هو سبيل النجاة، ومن خالف فقد كتب على نفسه الشقاء.

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤)والنسائي في السنن الكبرى (١٦٧٥).

قال الله تعالى:

{قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ }(١).

فكأن عصيان أمر الله عميان للبصيرة، فمن اتبع منهج الله تعالى في القرآن فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الدارين، وكذلك المعجزات الواضحات التي تؤيد الرسل، وتثبت صدق بلاغهم عن الله عزَّ وجلَّ.

(١) سورة طه: (١٦ / ١٢٣:١٢٧).

صراع ابني آدم على الأرض أول صراع في البشرية:

لما هبطا آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض، شرعا في تعمير الكون، وتحقيق الخلافة في الأرض، كما أراد علمه سبحانه.

قال الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١} (١).

وفي تاريخ ابن جرير أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، وقيل مائة وعشرين بطنًا في كل بطن ذكر وأنثى أوّلهم قابيل وأخته أقليمًا، وآخرهم عبد المغيث وأخته أمة المغيث، وقيل: إنه لم يمت حتى رأى من ذريته من ولده وولد ولده أربعمائة ألف نسمة.

وفي الحديث الصحيح عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ سُمِّيَتْ حَوَّاءُ لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ قِيلَ إِنَّهَا وَلَدَتْ لِآدَمَ أَرْبَعِينَ وَلَدًا فِي عِشْرِينَ بَطْنًا فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى" (٢)

وفي أول الخلقية كان يحل زواج ابن البطن الأولى من البطن الثاني، ويقال إنَّ قابيل كان يريد زوجة هابيل لنفسه فأمرهما آدم عليه السلام – أن يقدما قربانا فقدم كل واحد منهما قربانًا فتقبل الله من هابيل كان صاحب ماشية فقدم خيار ماشيته، أما قابيل كان صاحب زرع فقدم شر زرعه فلم يتقبل الله منه.

قال الله تعالى: { ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ

---

(١) سورة النساء: (٤ / ١).

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٠ / ٥٩) ، والحديث أخرجه مسلم (١٤٧٠).

﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ } (١).

ولقد قصَّ القرآن الكريم قصة قابيل وهابيل من أبناء آدم؛ حيث وقعت أول جريمة قتل في الأرض بينهما؛ ليكونا عبرة لغيرهما، وأن الشيطان كما أخرج أبويهما من الجنة دفعهما إلى القتل، فهو متربص بآدم وذريته إلى يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: "لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل" (٢).

قال الله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ }(٣).

---

(١) سورة المائدة: (٦ / ٢٧:٣١).

(٣) متفق عليه: البخاري رقم (٣٣٣٥)، الصحيح مع الفتح (٦/٣٦٤). ومسلم رقم.(1677)

(١) سورة فاطر: (٢٢ / ٥:٧)

إنَّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا، لتكونوا من الفائزين.

وفاة آدم عليه السلام:

تكاثرت ذرية آدم وكان من ذريته شيث (١)، فلما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك حتى جاء اليوم الذي احتضر آدم عليه السلام.

"عن أبيّ بن كعب. قال إن آدم لما حضره الموت، قال لبنيه أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة، قال فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفوس (٢) والمساحي (٣) والمكاتل (٤) فقالوا لهم يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون أو ما تريدون وأين تطلبون قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد قضي أبوكم فجاءوا فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه، وصلوا عليه، ثمَّ أدخلوه قبره فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثمَّ قالوا يا بني آدم هذه سنتكم(٥).

---

(١) قال الطبري في تاريخه: "بعد قتل هابيل قابيل بخمس سنين ولد شيث، وكان آدم عمره مائة وثلاثون سنة، وولده شيث ولدًا فردًا بغير توأم، هبة الله، خلف من هابيل، واسمه بالعربية شث وبالسريانية شاث وبالعبرانية شيث " (تاريخ الطبري: (١ / ٧٦).

(٢) الفوس: جمع فأس.

(٣) المساحي: آلة كالمجرفة يجرف بها الطين وغيره.

(٤) المكاتل: جمع مكتل: وهو الزنبيل الذي يحمل فيه التمر.

(٥) ينظر: البداية والنهاية (١ / ٩٨). والحديث إسناده صحيح أخرجه ابن حجر في أتحاف الخيرة المهرة في زوائد المسانيد العشرة (٢ / ٤٥٣).

العبرة من قصة آدم عليه السلام:

- إثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ وأنه يفعل ما يريد وهذا من كمال وتمام صفاته.
- إنَّ الله عالم بما في القلوب ويعلم السر وأخفى.
- قيام الملائكة بعبادة الله تعالى، وشدة تعظيمهم له لقوله (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك).
- بيان عموم علم الله، وأنه يتعلق بالشاهد والغائب.
- فضل آدم على الملائكة وكرامته له؛ لأنَّ الله أمر الملائكة أن يسجدوا له.
- فضل وشرف آدم على الملائكة بما اختصه الله به من العلم عليهم.
- بيان أن الله قد يمنّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون.
- إنَّ الله قد يمتحن العبد فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه.
- لا يتعبد لله إلا بما شرع، ومن يتعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدي فيكون ضالًا لحديث (فإنَّ كل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة).
- مِنة الله على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة وهي (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين وسبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنه اعترف بالذنب).
- من لطف الله بخلقه ورحمته بعبيده أنه يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب.
- لما أعلن إبليس عداوته لآدم وذريته، سأل الله الإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء من يقدر عليه من بني آدم فأجاب الله سؤاله، وإنما امتحان وابتلاء من الله لعباده؛ ولذلك حذرنا منه غاية التحذير.
- الحذر من وقوع في الزلل الذي يمليه الشيطان.
- لا دوام لبني آدم في الدنيا، فهي معبر يتزود منها لتلك الدار الآخرة التي أعدها الله للمتقين.

قصة سيدنا إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ٥٧ ﴾(١).

عند حديث القرآن عن نبي الله إدريس عليه السلام ، جاء حديثه موجزًا، فلم يكن له نصيبًا موفورًا كشأن بعض الأنبياء كنوح وموسى عليهما السلام، ولكن العبرة من قصص الأنبياء إنما هي تسلية لنبينا —صلى الله عليه وسلام .،وعبرة لأولي الألباب.

فأخبرنا القرآن الكريم بمكانة نبي الله إدريس عليه السلام، بأنه كان صديقًا نبيًّا ومن الصابرين، ورفعه الله عزَّ وجلَّ مكانة عليا، في الدينا بأن اختاره للرسالة ورفع ذكره وفي الآخرة حيث قبضت روحه في السماء الرابعة كما سيأتي.

قال الله تعالى: {وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦ }(٢)

فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية، وهو المعروف في التوراة بخنوخ وهو جدّ لنوح عليه السلام.

وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

---

(٢)سورة مريم: (١٦ / ٥٦:٥٧).

(٣) سورة الأنبياء : (١٧ / ٨٥:٨٦).

هو أول من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأول من وضع الخط، وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأول من علم الناس الخياطة. وكان أول من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية (١).

وفاته: –

ثبت في الصحيحين(٢) في حديث الإسراء أن رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ به وهو في السماء الرابعة وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال سأل ابن عباس كعبًا وأنا حاضر فقال له ما قول الله تعالى لإدريس ورفعناه مكانًا عليًّا، فقال كعب أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملًا فأتاه خليل له من الملائكة، فقال إنَّ الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى أزداد عملًا فحمله بين جناحيه، ثمَّ صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس قال هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض فقبض روحه هناك، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ ورفعناه مكانًا عليًّا (٣).

العبرة من قصة إدريس –عليه السلام–

- تسلية النبي –ﷺ – وقومه بأن يتحملوا أذى المشركين ويصبروا عليه حتى يأتي نصر الله.
- الصبر من أجلّ العبادات التي يتقرب به المؤمن لربه.
- رفعة الله عزَّ وجلَّ لرسله وأنبيائه في الدنيا والآخرة.

---

(١)ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير تح / مصطفى عبد الواحد (١ / ٧١) دار التأليف – القاهرة ،ط: الأولى ١٩٦٨م، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٦ / ١٣٠، ١٣١)الدار التونسية للنشر ،ط: الأولى ١٩٨٣هـ.

(٢) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٩ /٣١٧).

(٣) ينظر: البداية والنهاية (١ /٩٩).

قصة سيدنا نوح عليه السلام

قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾}(١).

يخبر الله تعالى عن نفسه أنه خلق العالم سمائه وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، والجميع تحت تسخيره ومشيئته؛ لذا فادعوه سرًّا وعلانية لصلاح دنياكم وآخرتكم، ولا تكونوا من المفسدين، فرحمته تعالى أقرب إليهم من أنفسهم.

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾}(٢).

ثمَّ إن آيات الله في الكون تستوجب إفراده بالعبادة.

---

(١) سورة الأعراف: (٨ / ٥٤:٥٩)

(٢) سورة نوح: (٢٩ / ١٥:٢٠).

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ }(١)

هو القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد – ﷺ – دليلًا وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

قال الله تعالى:

{ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ }(٢)

---

(١) سورة الأعراف: (٨ /٥٢).

(٢) سورة الإسراء: (١٤ /١٥:٨).

فإذا ما جاء يوم القيامة تقرأ كتابك بنفسك؛ أي عملك ولا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

إنَّ الهدف من بعثة نوح عليه السلام وهدف الرسل المرسلة واحد وهو الدعوة إلى وحدانية الله تعالى.

قال الله تعالى:

{ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩} (١).

شأن نبي الله نوح شأن كل الأنبياء والمرسلين، يدعون إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ذكر ابن جرير أنَّ مولد نوح –عليه السلام– كان بعد مائة وستّ وعشرين سنة من وفاة آدم –عليه السلام–، بينما نُقِل عن أهل الكتاب أنّ مولده كان بعد مائة وستّ وأربعين سنة، وقد جاء في الحديث أنّ المدّة التي كانت بين آدم ونوح –عليهما السلام– هي عشرة قرون؛ فقد جاء عن ابن عبّاس قوله: (كان بين نوحٍ وآدمَ عشرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحقّ فاختلَفوا فبعث اللهُ النبيين مُبشِّرينَ ومُنذرِين قال وكذلك هي في قراءةِ عبدِ اللهِ { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}"(٢).

ولقد نقل لنا القرآن الكريم قصة نبي الله نوح –عليه السلام – في تسع سور تفصيلًا

وهي: الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والعنكبوت، والشعراء، والصافات، والقمر، والحديد، والتحريم، ونوح.

ولقد سميت سورة باسمه وذكرت قصته مع قومه كاملة.

---

(١) سورة الأعراف: (٨ /٥٦).

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠٠٩)

دعوة سيدنا نوح عليه السلام:

قال الله تعالى:

{قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤}(١).

بدأ نوح عليه السلام بترغيبيه لقومه في الإيمان بما كانوا يحبون لأنفسهم.

﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾(٢)

وبما يحبون من متاع الدنيا فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:

---

(١) سورة نوح: (٢٩ /٢: ٤).

(٢) سورة نوح : (٢٩ /٢٠: ١٠).

{فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ }(١)

رفض أكثر قوم نوح عليه السلام اتباعه في دعوته لتوحيد الله عزَّ وجلَّ، بل وسعوا في إضلال غيرهم فقد كانوا يتواصون فيما بينهم بعدم اتباعه أو الاستماع له، فقد كان الرجل منهم يأتي بابنه إلى نوح ويحذره من الاستماع له قائلًا: احذر هذا فإنَّ أبي قد أوصاني به.

قال الله تعالى:

{فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ }(٢)

استمر قوم نوح عليه السلام على كفرهم وعنادهم على الرغم من ظهور الحق لهم

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ

---

(١) سورة إبراهيم(١٣/١٤:١٥)

(٢) سورة هود (١١/ ٢٥).

قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]

لقد حرص نوح- عليه السلام- على إيمان قومه وحاول إقناعهم، ولكن عاندوا وتكبروا، وبل واستعجلوا العذاب.

قال الله تعالى:

{قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ }[2]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ

---

(١) السابق (١١/٢٨: ٣٤).

(٢) سورة الأعراف (٨ /٦٢: ٦٠).

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾(١)

وقد دعا نوح –عليه السلام– قومَه باستخدام شتّى الأساليب؛ حتى يؤمنوا بالله، وفي هذه الآية وصفٌ لحال قوم نوح حينما كان يدعوهم نبيّهم إلى الإيمان؛ حيث كانوا يَفرّون منه، ويجعلون أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا كلامه، كما أنّهم كانوا يتّغطّون بثيابهم، مُصرّين على جحودهم، ومُستكبِرين في عنادهم.

دعا نوح قومه سِرًّا فيما بينه وبينهم، كما دعاهم عَلَنًا بصوت مرتفع، وأمرهم باستغفار الله –تعالى– ، وذكّرهم بعاقبة التائبين المستغفِرين حينما يرسل الله عليهم السماءَ مُتتابِعةً بالرزق الوفير، ويُمدِدهم بالأموال، والبنين، ويُصيّر أرضَهم جنّات، وأنهارًا، ثمَّ ذكّر نوح قومَه بعظمة الله –تعالى– التي تتجلّى في خَلق الإنسان أطوارًا؛ حيث يبتدِئُ خَلقه نُطفةً، ثمَّ علقةً، ثمَّ مضغةً، ثمَّ يخلق الله العظام، ويكسوها اللحمَ، وقد قابل قوم نوح –عليه السلام– دعوته بالعصيان، والمخالفة، والإصرار على ما فيهم من الجحود، والضلالة، ومَكروا لنبيّهم مكرًا عظيمًا، وحينما استيأس نوح –عليه السلام– من دعوة قومه، دعا عليهم(٢).

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ۝٢٤﴾(٣)

وتمادى قوم نوح –عليه السلام – في طغيانهم وكفرهم وإصرارهم على عبادة الأصنام.

---

(١) سورة نوح (٢٩ /٢:٦)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩ /١٨٥:٢١٦).

(٣) سورة نوح (٢٩ /٢١:٢٣).

ولقد كانت بداية هذه الأصنام أسماء لرجال صالحين فعل لهم قومهم هذه التماثيل ليتذكروا صنيعهم فيعملوا بعملهم، ثمَّ جاءت ذريتهم من بعدهم فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدونها فعبدوها من دون الله.

قال الله تعالى: {وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢}(١)

الإسلام: هو مطلق الخضوع والتسليم لله عزَّ وجلَّ؛ لذا فهو دين جميع الأنبياء وغاية دعوتهم هي الوحدانية لله عزَّ وجلَّ.

ولم يقف حد هؤلاء القوم عند التكذيب فحسب، بل تطاولوا على نوح فتوعدوه بالعذاب والقتل.

قال الله تعالى: { قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ }.

تسلية الله عزَّ وجلَّ لنوح عليه السلام بعدم الحزن على قومه فهم لن يستجيبوا له ولدعوته، فأوحى الله إليه بذلك.

---

(١) سورة يونس (١٢ /٧١،٧٢).

{ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ }(١)

فلما تيقن نوح عليه السلام عدم إيمان قومه دعا عليهم بالهلاك.

قال الله تعالى:

{ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ }(٢)

ولقد استمرت دعوة سيدنا نوح – عليه السلام – في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا،

قال الله تعالى:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ } (٣).

فلما بدأ اليأس يتسرب إليه أيده الله بالنصر، وأهلك الكافرين.

---

(١) سورة هود (١١ /٢٦).

(٢) سورة نوح: (٢٩ /١:٢٨).

(٣) سورة العنكبوت: (٢ /١٤،١٥).

قال الله تعالى:

{وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ }(١).

أراد الله –عزَّ وجلَّ –إهلاكهم فأمر نوح –عليه السلام– بصناعة الفلك، ثمَّ أوحى الله تعالى إلى نوح –عليه السلام – أنه إذا فار التنور هذا علامة بدء الطوفان، قيل إنَّ الفرن الكائن في بيت نوح عليه السلام إذا خرج منه ماء وفار كان هذا أمر لنوح عليه السلام بالحركة وأسرع نوح عليه السلام بفتح سفينته ويدعو المؤمنين به وحمل إلى السفينة من كل الحيوانات والطيور زوجين اثنين وصعدوا الجميع إلى السفينة ارتفعت المياه من فتحات الأرض، انهمرت أمطار السماء بمياه الأرض حتى غطت ما على سطح الأرض كله.

ولأنَّ عقيدة التوحيد والإيمان لا تكون إلا من أتى الله بقلب سليم، فلم ينج من طوفان نوح إلا ما حملت السفينة من المؤمنين، حتى ابنه وزوجه كانا من الهالكين؛ حيث رفضا التصديق والإذعان لدعوة سيدنا نوح عليه السلام، فلا شفاعة في الإيمان ولا وسيط.

---

(١) سورة هود: (١١ /٣٦:٤٠).

قال الله تعالى:

{وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾} (١).

(١) سورة هود: (١١:٤٠ / ٤٨).

وقال سبحانه في شأن زوجه

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ }(١)

فالنجاة للمؤمنين والعاقبة للمتقين.

ولأن دوام النعمة يستوجب الشكر عليها، فقد علمه سبحانه كيف يكون شكرها

﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ ﴾ (٢).

ولقد حكى القرآن الكريم قصة نوح عليه السلام مع قومه في أكثر من موضع؛ تسلية له ـ ﷺ ـ وإنذارًا للجاحدين، وكيف تكون نهاية الكافرين.

قال الله تعالى:

{كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي

(١) سورة التحريم (٢٨ / ١٠).

(٢) سورة المؤمنون (١٨ / ٢٨،٢٩).

بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾(١)

فإخبار القرآن الكريم عن سفينة نوح عليه السلام؛ لتكون عبرة لكل من يعتبر إلى يوم القيامة.

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ }(٢)

فإن كان الله عزَّ وجلَّ قريب مجيب لكل من ناداه، فكيف يكون الحال من نبي أرسله وأيده بنصره!.

قال الله تعالى:

{ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ }(٣)

---

(١) سورة القمر (٢٦ / ٩:١٧).

(٢) سورة الصافات (٢٤ / ٧٥:٨٢).

(٣) سورة الأنبياء (٧٦:١٧، ٧٧).

قال الله تعالى:

{ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ } (١)

ففي ذكر قصص الأمم السابقة تسلية للنبي محمد -ﷺ- عما يصيبه من أذى في دعوة قومه.

ولقد أكد سبحانه وتعالى أن الغاية من إرسال الرسل إنما هو الإقرار بالتوحيد له سبحانه، فغايتهم واحدة.

قال الله تعالى:

{ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ }(٢).

وشريعة الله عزَّ وجلَّ واحدة لجميع الأنبياء فإقامة الدين وصيته لجميع الأنبياء دون تفرقة بين نبي وآخر.

---

(١) سورة هود (١٢ / ٥٩).

(٢) سورة النساء (٦ / ١٦٦:١٦٣)

قال الله تعالى:

{ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ }(١).

ولقد أوضح سبحانه أن الشيطان وأعوانه يتربصون بالبشر؛ ليردوهم عن الطريق المستقيم وعبادة الله الواحد.

قال الله تعالى:

{ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ } (٢).

---

(١) سورة الشورى (٢٤ /١٢).

(٢) سورة يس (٢٣ /٦١).

العبرة من قصة نوح عليه السلام: –

دعوة الأنبياء جميعًا واحدة،

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾(١).

- في هلاك قوم نوح عليه السلام بسبب كفرهم عبرة لكل من يعتبر ويتعظ.
- اتباع النبي بحق هو الفلاح الحقيقي في الدنيا والآخرة.
- الصبر على أداء التكاليف والطاعات.
- الصبر على إيذاء السفهاء ومواجهة الحياة.
- الشجاعة في إبداء الرأي وتقديم الإرشاد والنصح للناس بأساليب متعددة.
- العاقبة دائمًا للمتقين الصالحين.
- تقوى الله واتباع أوامره من الأسباب التي تؤدي إلى البركة في الرزق والقوة في البدن.
- وجوب الاستعانة بالله في جميع الأحوال والدعاء بالبركة.
- الصبر وعدم استعجال النتائج إحدى أسس النجاح والوصول إلى الغاية المرجوة.

(١) سورة آل عمران: (٤ /١٥، ١٦).

قصة سيدنا هود عليه السلام

بعد انقضاء الطوفان وعودة الحياة لطبيعتها، حيث عاش المؤمنون مع نبي الله نوح – عليه السلام – يعبدون ربهم ويتنعمون بهبات الله لهم، لكن الشيطان كعادته بدأ في غواتهم. وكان هؤلاء الناس الذين وسوس لهم الشيطان هم أبناء عاد ويعرفون بقوم هود عليه السلام فقد أغواهم الشيطان وأعمى قلوبهم فأطاعوه وأقاموا الأصنام والتماثيل ورفعوا الأوثان في ديارهم وعبدوها من دون الله، ولم يكتف قوم عاد بالرجوع إلى الوثنية فقط، بل ساروا وراء الفساد والطغيان، حتى انتشر بينهم الظلم وانقلبت حياتهم رأسًا على عقب بعد وفاة نوح –عليه السلام.

قال الله تعالى:

{ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١}(١).

أرسل الله تعالى هود عليه السلام إلى قوم عاد كانوا حيث يسكنون بالأحقاف وهي جبال الرمل قريبة من حضر موت من جهة بلاد اليمن، وهم أولاد عاد الأولى بن أرم بن عوص بن سام بن نوح الذين ينتسب إلى العرب وينتسب إليه بني إسرائيل ومن أحفاد سام –عليه السلام – كانوا يسمون بعاد وإرم وهم أجداد هود عليه السلام، بن عبد الله بن رباح بن داود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح –عليهم السلام(٢).

أما مساكنهم فكانت خيام كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع فكانوا يصنعون القصور في الجبال ويسكنون الهول؛ حيث بلغوا من الحضارة والصناعة شيئًا عظيمًا.

---

(١) سورة الأحقاف: (٢٥ / ٢١:٢٥).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (١/١٣٧).

قال الله تعالى:

{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾}(١).

وكانت لهم أجسام ضخمة وعمالقة أقوياء فكانوا يتفاخرون بقوتهم، لكن كانت عقولهم مظلمة. فهم أول من عبدوا الأصنام بعد قوم نوح فكانوا يدافعون عنها ويحاربون من أجلها ويتهمون نبيهم ويسخرون منه.

قال الله تعالى:

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ } (٢).

وهكذا فقد حكى القرآن الكريم قصتهم في أكثر من موضع؛ لتكون عبرة لأولي الألباب.

فجاء ذكرهم في الأعراف وهود والمؤمنون، والشعراء والأحقاف، والذاريات والقمر.

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾(٣).

---

(١) سورة الشعراء (١٩ / ١٢٨:١٣١).

(٢) سورة الأعراف (٨ /٦٩).

(٣) سورة الأعراف (٨ /٦٥).

فكان هناك أسس ثابتة لمنهج الله: أولها لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فكل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة؛ لأنَّ الفساد قد عمَّ وجعلوا لله شركاء فما كان منهم إلا التكذيب والإنكار، فقد حاول هود عليه السلام إقناع قومه برسالة التوحيد فهو لا يريد إلا نفعهم وهدايتهم.

قال الله تعالى:

{يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢}(١).

فلما استكبروا ذكرهم هود عليه السلام بنعم الله تعالى عليهم فأبوا، ثمَّ أمرهم بالاستغفار لعل الله عزَّ وجلَّ يزيدهم من نعمه وقوة إلى قوتهم فجحدوا.

قال الله تعالى:

{وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩}(٢)

ولقد تلفت قوم هود عليه السلام حولهم فوجدوا أنهم أقوى من على الأرض، وأصابهم الكبرياء وزادوا في العناد، وقالوا كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدونها أفهمهم بأن آباءهم مخطئين، وتأمرنا بعبادة الله وحده.

---

(١) سورة هود (١٢ / ٥٠:٦٠).

(٢) سورة الشعراء (١٩ / ١٣٢: ١٣٩).

قال الله تعالى:

{قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ }(١).

حدثهم هود عليه السلام بأن هناك حياه أخرى بعد الموت يبعثون إلى الحياة يوم القيامة للحساب، ويسأل كل واحد منكم عما فعل لكنهم لم يصدقوه واستهزؤا به.

قال الله تعالى:

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ }(٢)

هذه الحياة ما هي إلا بلاء واختبار يتم الحساب بعدها، ولقد أفهمهم هود عليه السلام أن إيمان الناس بالآخرة ضرورة تتصل بعدل الله، مثلما هي ضرورة تتصل بحياة الناس ليس تصرفات الناس في الدنيا واحدة هناك من يظلم ويقتل ويعتدي، أين تذهب شكاة المظلومين، فإنَّ عدالة الحق تقتضي وجود يوم القيامة للحساب والجزاء ولقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله محرمًا بين عباده.

" عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ رَبِّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، فَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا " (٣).

لقد حدثهم هود عليه السلام بهذا كله فاستمعوا إليه وكذبوه.

---

(١) سورة المؤمنون: (١٨ /٨٣،٢٨).

(٢) سورة يونس: (١١ / ٤).

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤٩٠) ومسلم (٢٥٧٧)، والبيهقي سننه (٦/ ٩٣)، والشعب (٥/ ٤٠٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٦٠).

قال الله تعالى:

{وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ }(١)

ولكن كان رد قومه مثل ما رد قوم نوح عليه، فقالوا لهود عليه السلام أليس غريبًا أن يختار الله من بيننا بشرًا ويوحي إليه؟

فأجابهم هود عليه السلام أن الله الرحيم بكم قد أرسلني إليكم لأحذركم بما حدث لقوم نوح من قبل وسيهلك الذين يكفرون بالله دائمًا مهما كانوا أقوياء.

واستمر الصراع بين هود عليه السلام وقومه وكذبوه واتهموه بأنه سفيه مجنون؛ لأنه سبَّ آلهتهم فغضبت عليه.

---

(١) سورة المؤمنون: (١٨ / ٣٢:٣٧).

قال الله تعالى:

{قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾}(١)

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾(٢)،

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾(٣)

---

(١) سورة الأعراف (٨ /٦٦:٦٨).

(٢) سورة هود (١٢ / ٥٣:٥٩).

(٣) سورة الشعراء (١٩ / ١٣٦:١٣٩).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾(١)

فلما عاندوا استحقوا عقاب الله، ونجَّا الله هود ومن معه من المؤمنين.

قال الله تعالى:

{ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ }(٢)

فلقد عاند قوم هود ورفضوا الإيمان وتمسكوا بعقيدة آبائهم الفاسدة واستعجلوا نزول العذاب استهزاء منهم فحلَّ بهم عقاب الله.

بعد هذا التحدي كله ما بقي لهود عليه السلام إلا أن يتوجه إلى الله وحده بأن أعلن براءته منهم ومن آلهتهم وتوكل على الله، ودعا ربه أن يؤيده بنصره، فنصره الله نصر عزيز مقتدر.

---

(١) سورة فصلت (٢٤ /١٥).

(٢) سورة الأعراف (٨ /٧٣:٧٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾(١)

قال الله تعالى:

{قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ }(٢).

نهاية قوم عاد:

أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، تدمر كل شيء أتت عليه، بل وجعلتهم كأعجاز نخل منقعر.

قال الله تعالى:

{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾}(٣)

قال الله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ }(٤).

---

(١) سورة هود (١٢/٥٩).

(٢) سورة المؤمنون (١٨ /٤١:٣٩).

(٣) سورة القمر (٢٦ / ٢٠).

(٤) سورة الحاقة: (٢٩ / ٦ : ٨).

لقد أرسل الله تعالى إليهم العذاب الذي أنذرهم منه هود – عليه السلام – في صورة رحمة؛ فهم ظنوا أن السحاب يحمل لهم الأمطار ففرحوا واستبشروا لذلك، لكن كانت هذه السحابة هي العذاب الذي بعثه الله تعالى إليهم فلم تحمل لهم الأمطار وإنما حملت لهم الريح العاصف والأتربة والرمال، فدمرتهم ودمرت مساكنهم ولم تُبقِ لهم على حياة.

قال الله تعالى:

{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ } (١)

وأما هود –عليه السلام– فكان في حظيرة هو ومن آمن معه وكانَ قد اعتزل قومه، فلم يصبهم العذاب ولم يروا من الريح إلا النسيم العليل الذي تهنئ به النفس وتُشفى به الصدور، ثمَّ خرج بهم بعد ذلك لمكان آمن حيث عبدوا ربهم في سلام واطمئنان (٢).

(١) سورة الأحقاف (٢٥ /٢٦: ٢٤).

(٢) ينظر: قصص الأنبياء للشعراوي ص ٦٩ دار القدس ، ط: الأولى ٢٠٠٦م.

العبرة من قصة هود عليه السلام.

- الكبر مرض قلبي حذر منه القرآن الكريم، فالتكبر يعمي صاحبه عن الحق والهدى وتدبر آي القرآن، وقد أعطانا ﷺ تعريف هذا المرض فقال: "الكبر: بطر الحقّ، وغمط الناس"(١)، فهذه الجملة الكريمة من جوامع كلم النبي ﷺ.
- التحذيرُ من البطر والغرور بالقوة والبطش؛ لأنَّ هذا الغرور يقود إلى عواقب سيئة، ونتائج وخيمة، فقد كان قوم عاد يتفاخرون بقوتهم وبطشهم، فأهلكهم الله تعالى.
- الحثُّ على تذكر نعم الله تعالى باستمرار؛ لأنَّ النعم تدوم بالشكر، ومن لا يشكر نعمة الله عليه سيخسرها بكل تأكيد.
- التوجُّه للدعاة بأن يجمعوا في دعوتهم لله تعالى أسلوب الترغيب والترهيب، وألّا تقتصر دعوتهم على أحدهما فقط؛ لأنَّ هذا لا يحقق غرض الدعوة.
- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى والذي يجعل الداعي يقف في وجه الطغاة بكلِّ ثقة وقوة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم رقم (٩١)، والترمذي رقم (٤٦١).

قصة سيدنا صالح عليه السلام (أصحاب الحجر)

كانت قوم ثمود أمة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جاثر- بن إرم بن

سام بن نوح فيلتقون مع عاد في (إرم) كانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح.

أما صالح هو بن عبيل بن آسف بن ماشج بن ثمود.

ولقد عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد؛ لأنَّ ثمود وعادًا أبناء نسب واحد، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة. وقد قال المفسرون: إنَّ ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت واتسعت حضارتها، وكانوا موحدين، ولعلهم اتعظوا بما حلَّ بعاد، ثمَّ طالت مدتهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمة الله وعبدوا الأصنام فأرسل الله إليهم صالحًا رسولًا يدعوهم إلى التوحيد فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، وعصاه سادتهم وكبراؤهم (١).

ولقد حكى القرآن الكريم قصتهم في مواضع عديدة؛ لتكون عبرة وعظة لأولي الألباب، فلقد خلق الله الإنسان، وأوضح له السبيل، ونشر له من الآيات والدلائل ما يدعوه للامتثال والخضوع له سبحانه، ولكنه مع ذلك جعل له حرية الاختيار، ما بين طريق الخير والفلاح، أو طريق الشر والخسران والهلاك.

قال الله تعالى:

{ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨ / ٢١٦).

﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ }(١).

دعوة صالح _ عليه السلام – قومه إلى التوحيد:

كشأن رسل الله – عليهم السلام – دعا صالح قومه إلى عبادة الله الواحد وترك ما سواها من عبادة الأصنام والأوثان.

قال الله تعالى: وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ }(٢)

أرسل الله إليهم صالح عليه السلام فأمرهم بعبادة الله وحده الذي خلقهم واستعمرهم في الأرض ودعاهم للاستغفار والتوجه والتوبة إليه، فهو القريب منهم المجيب لدعائهم.

ذكرهم بنعم الله عليهم، وكيف فضلهم بالنحت والعمارة على من قبلهم.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾(٣)

---

(١) سورة الشمس (٣٠ / ١٠:١).

(٢) سورة هود (١٢ /٦١).

(٣) سورة الأعراف (٨ /٧٤).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[1].

وقال الله تعالى : ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾[2]

ولقد كان صالح عليه السلام معروفا بينهم بالحكمة والنقاء والخير، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحي الله إليه ويرسله بالدعوة إليهم، وهكذا يعجب القوم مما يدعوهم إليه ويستنكرون ما هو واجب وحق لرسالته فقد كان الشك يحالفهم، ولكن صالحًا ـ عليه السلام ـ استمر في دعوته، وحتى يؤكدوا لأنفسهم أنهم على صواب شككوا في رسالته ـ عليه السلام ـ وطالبوه بالمعجزات التي تؤكد صدق رسالته.

قال الله تعالى:

{{قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ

(1) سورة الشعراء (١٩ /١٥٢:١٤١).

(2) سورة الفجر (٣٠ /١٠).

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ }(١).

بل واتهموه بأنه ساحر.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾(٢).

معجزة صالح – عليه السلام –.

لما تكبر وتعالى قوم ثمود على تصديق ما جاء به صالح –عليه السلام، طلبوا منه عليه السلام آية تبين صدقه واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عاينوها بأنفسهم – وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر – فطلبوا منه أن تخرج لهم ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم الله تعالى لهذا ليؤمنن به.

قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزَّ وجلَّ فتحركت تلك الصخرة ثمَّ انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم (٣).

قال الله تعالى: {وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ }(٤)

---

(١) سورة هود (١٢ /٦٣).

(٢) سورة الشعراء (١٩ /١٥٣،١٥٤)

(٣) ينظر: البداية والنهاية (١ /١٣٤)

(٤) سورة هود (١٢ /٦٤).

وخروج الناقة من الصخرة معجزة من الله تعالى، ولكنه سبحانه توعدهم بالعذاب إن هم مسّوها بسوء.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

ولأنها ناقة مباركة وآية من الله (ذلك لأن الله يؤيد أنبياءه بمعجزات من عنده)، فكانت تشرب يومًا ويشرب القوم يومًا، وكانت تدر لبنا يكفي لشرب الناس جميعًا في هذا اليوم الذي تشرب فيه المياه الموجودة في الآبار، عاشت الناقة بين قوم صالح، آمن من آمن منهم وبقي أغلبهم على العناد والكفر.

وكان صالح عليه السلام يحدث قومه برفق وحب وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويذكرهم بنعم الله عليهم، وينبههم أن الله قد أخرج لهم معجزة هي الناقة دليلًا على صدقه وبيّنه على دعوته.

قال الله تعالى: {قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾}(١)

ولكنهم استكبروا وكفروا، بل وأنكروا على من آمن به وشككوهم في رسالة صالح عليه السلام، بل واستعجلوا العذاب وأرادوا السوء بصالح وبناقته فقتلوها.

لقد كانت هذه الناقة اختبارًا لهم من الله عزَّ وجلَّ إلا أنهم لم يلتزموا تعاليم الله فيها، بل همّوا بقتلها.

---

(١) سورة الأعراف (٨/ ٧٥،٧٦).

قال الله تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾}(١)

فلم يصبروا على اختبار الله تعالى لهم، بل تشاءموا

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٢)

ولما تمادوا وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب، حيث كان بالمدينة تسعة رهط أقنعوا القوم بضرورة التخلص من الناقة، فقاموا ومعهم أشقى القوم فاجتمعوا على هذه الناقة، فرموها بالنبال، فسالت الدماء، ثمَّ حزوا رأسها وقطعوها، فرغت رغاء سمعه كل من كان بحولها، فسمع ابنُها هذا الرغاءَ فولَّى وهرب، قال بعض المفسرين: دخل في الصخرة التي خرج منها، وقال بعضهم: بل تبعوه وقتلوه كما قتلوا أمه، فرغى ثلاث مرات.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَٰسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(٣)

---

(١) سورة القمر (٢٦ /٢٧،٢٨).

(٢) سورة النمل (٢٠/٤٦،٤٧)

(٣) سورة النمل (٢٠/٤٨،٤٩)

فنظر صالح عليه السلام إلى ناقة الله، نظر إليها ميتة مقتولة، فبكى صالح عليه السلام بكاءً شديدًا مرًّا، وأشفق على قومه فقال لقومه: أدركوا ولدها لعلَّ الله أن يتوب عليكم، أدركوا ولدها، فلحقوا ولدها فإذا هو مقتول كما قتلت أمه، فنظر صالح وبكى، وقال لقومه:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾(١)

ثلاثة أيام لا تعيشون بعدها، ويأتيكم عذاب الله جل وعلا.

فنظروا إلى صالح وكانوا يعلمون أنه صادق ومع ذلك استعجلوا العذاب.

قال الله تعالى:

{فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾}(٢).

{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ } (٣)

ولطغيانهم همَّوا بقتل صالح عليه السلام مدعين بأنه إن كان صادقًا عجلوه قبلهم وإن كان كاذبًا لحق بناقته، ولكن الله عزَّ وجلَّ أراد أن ينصر نبيه فردَّ مكرهم خائبًا.

قال الله تعالى: { وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

---

(١) سورة هود (١٢ /٦٥).

(٢) سورة الأعراف (٨ / ٧٧،٧٨).

(٣) سورة الشعراء (١٩ /١٥٧).

خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾}(١)

فلما جاء اليوم الأول فإذا الوجوه كلها مصفرَّة، وجوه القوم كلها قد اصفرَّت وقد جفت العروق، فنظروا إلى بعضهم بعضًا فلما أمسوا قال قائلهم: ألا قد ذهب يوم من الأجل، ألا قد ذهب يوم من الأجل!

فلما أصبحوا إذا وجوههم كلها قد احمرَّت، وعلموا بقرب الموعد، فلما أمسوا قالوا: ألا قد مضى يومان من الأجل، ألا قد مضى يومان من الأجل!

فلما جاء اليوم الثالث أصبحوا وقد اسودَّت الوجوه، فلما أمسوا قال قائلهم: ألا قد مضى الأجل، ألا قد مضى الأجل! فحفر كل واحد في غرفته قبره، وجلس فيه، وتحنط، وتكفن، وانتظر وعد الله جل وعلا، وقبل الفجر أوحى الله لصالح: اخرج أنت ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل من قومه. فلما جاء اليوم الرابع وقد انتهت المدة ومضى الأجل، أصبحوا وقد وبزغ الفجر، فإذا بهم يسمعون صيحة من السماء، والأرض ترجف تحتهم، فإذا بأنفسهم كلها قد زهقت وخرجت إلى الله(٢):**قال الله تعالى**: {فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ ۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ }(٣)

---

(١) سورة النمل (٢٠/ ٥٣:٥٠)

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (١ /٢٣٠).

(٣) سورة هود (١٢ / ٦٨،٦٧).

لقد عارضوا أمر الله، وعصوا رسوله عليه السلام، وكفروا بربهم جل وعلا، ولم يشكروه فإذا بالجنات، وبالعيون، وبالأنهار، وبالبيوت الفارهة، وإذا بالقصور كلها {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} تمر على ديارهم – وهي موجودة إلى هذه اللحظة– فترى أثر اللعنة، وأثر الغضب على بيوتهم، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول ـ ﷺ ـ قد مرَّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها، ونهاهم عن أن يشربوا من مائها.

"عن ابن عمر قال: لما مر رسول الله ـ ﷺ ـ بالحجر قال: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين. فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثمَّ قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادي"(١).

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهزؤن بها.

قال الله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ }(٢)

وهكذا تتجلى سنة الله عزَّ وجلَّ في هلاك الظالمين ونجاة المؤمنين.

أما صالح عليه السلام فنظر إليهم بعد أن أهلكوا وبرئ من إثمهم؛ لأنه بلغهم رسالة الله ونصحهم، ولكن دون جدوى.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري رقم (٢٨٤)، ومسلم رقم (٣٨).

(٢) سورة الشمس (٣٠ /١٥: ١١).

قال الله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾}(١)

قال الله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ }(٢).

وهكذا قصَّ النبي محمد ﷺ على أسماع أهل مكة أخبار المكذبين من الأمم السابقة؛ لتكون لهم عبرة وعظة.

---

(١) سورة الأعراف (٨ /٧٨،٧٩).

(٢) سورة القمر (٢٦ /٢٣: ٣٢).

العبرة من قصة صالح عليه السلام:

- سنة الله في إهلاك الظالمين لا تتبدل: { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾}(١)

- أثر المعصية يؤثِّر على الأرض والماء: عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: "أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى الْحِجْرِ أَرْضِ ثَمُودَ فَاسْتَقَوْا مِنْ آبَارِهَا وَعَجَنُوا بِهِ الْعَجِينَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا وَيَعْلِفُوا الإِبِلَ الْعَجِينَ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ"(٢).

- أدب المسلم عند تذكُّر أو معاينة آثار المكذبين: قال النبي -ﷺ-: (لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ) ثمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ) (٣).

- توطين الداعي نفسه على مواجهة التكذيب والاتهامات مِن المخالفين كما في موقف ثمود مع نبي الله صالح -عليه السلام-.

- لو كانت الدنيا تعدل عند الله شيئًا ما أعطاها للكافر: قال النبي -ﷺ-: (لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ) (٤).

---

(١) سورة الطلاق (٢٨ /٩، ١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨١)

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨١).

(٤) رواه الترمذي رقم (٢٣٢٠).

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى:

{لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤ }(١)

الله عزَّ وجلَّ تقدست أسماؤه وتجلت آثاره في الكون بالخشوع والخضوع له سبحانه، عندما يتلو قرآنه، وهذه الآية تحثنا على ضرورة تدبر القرآن، وتفهم معانيه، والعمل به.

قال الله تعالى: {إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ }(٢)

كان إبراهيم–عليه السلام – يعيش مع قوم يعبدون الأصنام، فلم يرض ذلك، وأحس بفطرته أن هناك إلهًا أعظم حتى هداه الله واصطفاه برسالته.

---

(١) سورة الحشر (٢٨ /٢٤: ٢١).

(٢) سورة النحل (١٤ /١٢٢: ١٢٠).

فهو أبو الأنبياء جميعًا ينتسب إليه جميع الأنبياء وهو من نسل سام بن نوح في شمال العراق ببابل، فكان العبد الرباني الذي استحق أن يتخذه الله خليلًا، وهو أحد أولي العزم من الرسل الخمسة الكبار الذين أخذ الله منهم ميثاقًا غليظًا: وهم: نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمد ـ عليهم السلام ـ بترتيب بعثهم. فكل الأنبياء من بعد إبراهيم هم من نسله فهم أولاده وأحفاده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

وقد كرم الله تعالى إبراهيم –عليه السلام– تكريمًا خاصًّا، فجعل ملته هي التوحيد الخالص النقي من الشوائب، وجعل العقل في جانب الذين يتبعون دينه، وأرشده إلى

الطريق المستقيم وهو دين الإسلام. **قال الله تعالى**: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾}(١).

اصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام:

نشأ نبي الله إبراهيم في قوم يعبدون الأصنام ويهتدون بالكواكب والنجوم، فأنكر على قومه ذلك، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾}(٢).

ثمَّ بدأ رحلة التأمل في الكون والبحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليها، فكان أول المسلمين.

قال الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ

(١) سورة النساء (٦ / ١٢٥).

(٢) سورة الأنعام (٧ /٧٤).

أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾}(١)

فقد هدى الله إبراهيم عليه السلام إلى الحق وأن وراء هذا الكون ملك عظيم وصاحب قدرة باهرة؛ ليكون من الراسخين في الإيمان.

ولأن قومه كانوا يعبدون الكواكب والنجوم أراد إبراهيم عليه السلام أن يلفتهم إلى فساد عقيدتهم بأدب النبوة فجاراهم في عبادتها؛ ليبين لهم بطلان ما هم عليه ليؤمنوا بالله الواحد الذي يمنح الأمن، فالشرك ظلم عظيم لا يغفره الله عزَّ وجلَّ أبدًا.

---

(١) سورة الأنعام (٧ /٧٥:٨١).

فالذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مِنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وَمُنِعَ فَصَبَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ" وَسَكَتَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَهُ؟ قَالَ ": {أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} (١).

وهكذا أيدَّ الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليقيم الحجة على قومه فلا يكون لهم عذرًا بعدها.

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }(٢).

ولأنه كان غواصًا طالبًا للمعرفة يتأمل في كل شيء ويتقصى بفكره باحثًا وراء الحقيقة طالبًا لها، قال لربه الذي اتخذه له خليلًا: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى) نادى ربه ذلك النداء، فيشير بأنه مقر بأنه خالقه ومربيه والقائم على أمره، وطلبه هو طلب الكيفية، فهو مقر بالأصل مذعن له خاضعٌ كل الخضوع لحكمه مؤمن بالبعث والنشور، وأن الله سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وأنه القاهر فوق عباده، ولكنه يريد أن يعلم بالحس كما علم بالقول الحق وبالعيان كما علم بالبرهان (٣).

فقد أراد الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يريه الله كيف يحيي الموتى على الرغم من إيمانه الجازم بالقدرة الإلهية على الإحياء، ولكنه أراد أن يرتقي من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين فيجمع إلى الرؤية بالقلب المشاهدة بالعين، فأجابه الله عزَّ وجلَّ بأن أمره أن يأخذ أربعة أنواع من الطيور متقطعين أجزاء ويخلط بعد التعرف عليها ويوزعها على رؤوس الجبال، ثمَّ يناديها فتأتيه سعيًا؛ ليعلم أن الله على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦٦١٣).

(٢) سورة الأنعام (٧ /٨٢).

(٣) ينظر: زهرة التفاسير لمحمد أبي زهرة (٢ /٩٦٥) ، دار الفكر العربي ، ط : الأولى ١٩٨٦م.

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(١).

دعوة إبراهيم قومه إلى عبادة الله الواحد:

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ راشدًا لم يسجد لصنم قط وقد أنكر على قومه عكوفهم على عبادة التماثيل، ولكنهم يعبدونها اقتداءً بآبائهم.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾}(٢).

قال الله تعالى:

{وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾}(٣).

يقول الحق- جل وعلا - بلغ يا محمد صلوات الله وسلام عليه بأنَّ قوم إبراهيم عليه السلام قد توارثوا عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر عن آبائهم.

---

(١) سورة البقر ة (٣ /٢٦٠).

(٢) سورة الأنبياء (١٧ /٥٢،٥٣).

(٣) سورة الشعراء (١٨ / ٦٩: ٧٣).

قال الله تعالى: {وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ }(١).

فأول من بدأ بدعوته عليه السلام كان أبوه وأخذ يدعوه بلطف، ولكن أباه لم يقبل، بل هدده بالهجر والقتل.

ثمَّ واصل ـ عليه السلام ـ دعاءه لقومه منكرًا لاعتقادهم مبينًا لهم إنَّ الله عزَّ وجلَّ أحق بالعبادة.

قال الله تعالى: {﴿١٥﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾}(٢)

---

(١) سورة مريم (١٦ / ٤١:٤٧).

(٢) سورة العنكبوت (٢٠ /١٦، ١٧).

ولقد حاول إبراهيم عليه السلام إقناع قومه بترك عبادة الأصنام فلما لم يستجيبوا تبرأ منهم وأقر بإيمانه بالله الواحد الأحد، واتجه الخليل إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى: { قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }(١).

ثمَّ اعتزلهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ في عبادتهم ولجأ لعبادة الله، فالاعتزال أمر مطلوب إذا وجد الإنسان البيئة غير صالحة.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾(٢).

واستمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ في محاولة إقناعهم بالخالق فلما لم تجد محاولاته عزم على كسر الشر بكسر الأصنام فأعلمهم بنيته فور انصرافهم لعيدهم، وبالفعل قام الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتحطيم الأصنام بعد أن خرجوا إلى عيدهم.

---

(١) سورة الشعراء (١٨ /٧٥: ٨٩).

(٢) سورة مريم (١٦ /٤٨).

قال الله تعالى: {قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾}(١).

فعمد إبراهيم إليها تكسيرًا وهدمًا حتى صارت قطعًا صغيرة. وإنما استثنى كبير الأصنام دون جَذٍّ وكسر؛ لكي يرجعوا إليه ويستخبروه الخبر، فلا يجدوا عنده جوابًا، فهو الجماد الذي لا ينطق، ولعلهم حينئذ يستيقظون من سباتهم، ويتنبهون من غفلتهم، ويكون ذلك سببًا في إقلاعهم عن عبادة الأَصنام، والرجوع إلى دين إبراهيم، والإيمان بالله رب السموات والأَرض دون سواه، فلما عادوا إلى أَصنامهم عجبوا لما أَصابها، ولم يستدلوا بذلك على حقارتها(٢)، بل حدث منهم ما حكاه الله بقوله:{**قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا

---

(١) سورة الأنبياء (١٧ /٥٨: ٥٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥ /٣٤٣).

يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ }(١).

ولم يكن منهم إلا أن أجمعوا على قتله حرقًا بالنار؛ ليكون عبرة لغيره فلا يتجرأ على آلهتهم أحد.

قال الله تعالى: {فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ }(٢).

فجاء الناس من القرى والجبال والمدن ليشهدوا عقاب الذي تجرأ على الآلهة وحطمها وحفروا حفرة عظيمة ملؤها بالحطب والخشب والأشجار وأشعلوا فيها النار وأحضروا المنجنيق، وهو آلة جبارة ليقذفوا بها إبراهيم عليه السلام في النار بعد أن قيدوه فلما قذف في النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل واشتعلت النار، وتصاعد اللهب إلى السماء، وبينما إبراهيم عليه السلام في النار جاءه جبريل عليه السلام، وسأله يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما الله فنعم (٣).

فأمر الله النار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء (١٧ /٦٨:٥٩).

(٢) سورة الصافات (٢٣ / ٩٧:٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩)، وتفسير الطبري (١٦ /٣٠٧).

(٤) سورة الأنبياء (١٧ / ٦٩: ٧٠).

ولكن قدرة الله عزَّ وجلَّ أفقدت النار وظيفتها في الإحراق فقد أصدر الله عزَّ وجلَّ أمره للنار بأن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم فما أحرقت إلا قيوده، وقد كان إبراهيم عليه السلام يمتلئ قلبه بحب الله وذكره وتسبيحه.

وظل الناس يراقبون النار من بعيد والنار مشتعلة فترة طويلة حتى ظن البعض أنها لن تنطفئ أبدًا، فلما أطفأت فوجئوا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ يخرج من الحفرة سالمًا كما دخل ووجهه يتلألأ بالنور والإشراق (١).

وبالرغم من ذلك النصر الواضح من الله له عليه السلام، والمعجزة الواضحة إلا أنه لم يؤمن به إلا لوط عليه السلام.

فقال موبخًا لهم إنما اتخذتم الأوثان مودة لتجتمعوا على عبادتها في الحياة الدنيا ويوم القيامة ينكر بعضكم بعضًا بخلاف أهل التقوى، فإنهم يبحثون عن بعضهم البعض ليتنعموا سويًّا.

قال الله تعالى:

{ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ }(٢).

وقبل هجرته تبين له من جهة الوحي أن أباه عدو لله وأنه يموت كافرًا فتبرأ لله منه وقطع علاقته به.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨ /٤٦٨ وما بعدها).

(٢) سورة العنكبوت (٢٠ /٢٤،٢٥).

قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ }(١)

للمرة الثانية في قصص الأنبياء نصادف هذه المفاجأة في قصة نوح عليه السلام كان الأب نبيًّا والابن كافرًا، وفي قصة إبراهيم عليه السلام كان الأب كافرًا والابن نبيًّا وفي القصتين نرى المؤمن يعلن براءته من عدو الله رغم كونه أبيه أو ولده، وكأن الله يفهمنا من خلال القصة أن العلاقة الوحيدة التي ينبغي أن تقوم عليها الروابط بين الناس هي علاقة الإيمان لا علاقة الميلاد والدم.

هجرة إبراهيم عليه السلام إلى العراق:

قبل هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ علم النمرود بأمره فاستدعاه للمحاورة فجادله إبراهيم ـ عليه السلام ـ في نظام الكون وقوانينه التي خلقها الله ولا يستطيع أي مخلوق التحكم فيها حتى أحس النمرود بعجزه وانهزم، وأظهر كفره مع أنه من جبابرة الأرض فكما يقال "نقل المؤرخون نقلًا عن مجاهد أن الذين حكموا الدنيا من المشرق إلى المغرب أربعة: اثنان مؤمنان واثنان كافران، فالمؤمنان سليمان بن داود عليه السلام، وذو القرنين، والكافران بختنصر والنمرود بن كنعان " (٢).

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ } (٣).

---

(١) سورة التوبة (١٠ /١١٤).

(٢) ينظر: إتحاف المهرة لابن حجر العسقلاني (١٣ /٣٦٥)،مجمع الملك فهد للطباعة ، الرياض ،ط : الأولى ،١٩٩٤م.

(٣) سورة البقرة (٣ /٢٥٨).

وبذلك كتب الله له النجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد بأن سهل الله له الهجرة من بلاد (الكلدان بالعراق) إلى أرض (فلسطين) وهي بلاد (كنعان).

وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين. واستصحب إبراهيم معه لوطًا ابن أخيه (هاران)؛ لأنه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما (١).

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢)

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾(٣).

هجرة إبراهيم عليه السلام إلى مصر:

لم يلبث الخليل بأرض الشام طويلًا حتى قرر عليه السلام الهجرة إلى مصر فوصلت الأخبار لملك مصر بوصول رجل لمصر معه امرأة هي أجمل نساء الأرض، فطمع بها وأرسل جنوده ليأتونه بهذه المرأة وأمرهم بأن يسألوا عن الرجل الذي معها فإن كان زوجها فليقتلوه: فجاء الوحي لإبراهيم عليه السلام بذلك فقال إبراهيم عليه السلام لسارة إن سألوك عني فأنت أختي؛ أي أخته في الله، وقال لها ما على هذه الأرض مؤمن غيري وغيرك فكل أهل مصر كفره ليس فيها موحد لله عزَّ وجلَّ، فجاء الجنود وسألوا إبراهيم: ما تكون هذه منك؟ قال: أختي.

لما عرفت سارة أن ملك مصر فاجر ويريدها له أخذت تدعو الله قائلة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر، فلما أدخلوها عليه، مدّ يده إليها ليلمسها فشلَّ وتجمدت يده في مكانها، فبدأ بالصراخ؛ لأنه لم يعد يستطيع تحركها، وجاء أعوانه لمساعدته لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء، فخافت سارة على نفسها أن يقتلوها بسبب ما فعلته بالملك، فقالت: يا رب اتركه لا يقتلوني به.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٧ / ١٠٨).

(٢) سورة العنكبوت (٢٠ /٢٦).

(٣) سورة الأنبياء (١٧ /٧١).

فاستجاب الله لدعائها لكن الملك لم يتب وظن أن ما حدث أمرًا عابرًا وذهب.

فهجم عليها مرة أخرى فشلّ مرة ثانية فقال: فكيني، فدعت الله تعالى ففكه فمدّ يده ثالثة فشل فقال: فكيني وأطلقك وأكرمك: فدعت الله سبحانه وتعالي ففك، فصرخ الملك بأعوانه: أبعدوها عني فإنكم لم تأتوني بإنسان، بل أتيتموني بشيطان، فأطلقها وأعطاها شيئًا من الذهب، كما أعطاها أمة اسمها (هاجر) فسألها سيدنا إبراهيم عما حدث فقالت: كفاني الله كيد الكافر الفاجر ووهبني جارية تخدمني (١).

عودة الخليل عليه السلام إلى فلسطين:

بعد المحنة العصيبة التي تعرض لها إبراهيم عليه السلام وزوجته السيدة سارة مع هذا الجبار.. عاد إبراهيم عليه السلام مرة أخرى إلى بلاد الشام وأرض بيت المقدس واستقر فيها.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (٢)

وقد لجأ سيدنا إبراهيم إلى ربه بالدعاء بأن يرزقه الله الولد فبشرته الملائكة بغلام حليم، ثمَّ طلب الخليل إبراهيم عليه السلام من لوط أن يذهب إلى قرية سلوم لدعوتهم حيث إنَّ أهلها وصلوا لمرحلة كبيرة من الفجور والفسق وسموا بعد ذلك بالمؤتفكة.

ولما رأت السيدة سارة رجاء إبراهيم عليه السلام أن يكون له ولد، وهبته خادمتها هاجر التي أعطاها إياها هذا الملك ليتسرى بها لعلها تنجب له الولد الذي يتمناه. وما هي إلَّا أشهر قليلة حتى رزقه الله سبحانه وتعالى الولد من هاجر.

---

(١) القصة صحيحة أخرجها البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم، ينظر فتح الباري في شرح أحاديث البخاري (٦ /٣٨٨) وصحيح البخاري رقم (٣٣٥٨)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٠)، وصحيح مسلم رقم (٢٣٧١).

(٢) سورة الصافات (٢٣ /٩٩: ١٠١).

فكان إسماعيل عليه السلام قرة عين لإبراهيم عليه السلام وفرح به أشد الفرح.. ولكن الغيرة دبت في قلب السيدة سارة شأنها شأن أي امرأة أخرى. فغارت من هاجر ومن حب إبراهيم لولده إسماعيل. فأراد الله سبحانه أن ينزع تلك الغيرة من قلبها فأوحى إلى نبيه إبراهيم عليه السلام أن يأخذ هاجر ورضيعها إسماعيل وأن يتركهم في مكة.. وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى. فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وولدها ثمَّ تركهم في مكة حيث لا إنس ولا وحش، ولا طير ولا زرع ولا ماء، بل صحراء جرداء وجبال شاهقة والشمس بوهجها تكاد تخطف الأبصار. ثمَّ تركهم وهمَّ بالذهاب، فلما رأته السيدة هاجر يذهب استوقفته واستغربت من فعله وسألته باستنكار كيف يتركهم في هذه الأرض الموحشة؟!

فلم يرد عليها إبراهيم عليه السلام. وهنا فطنت السيدة هاجر إلى أن هذا الفعل إنما هو أمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه.. فرضيت بقضاء الله تعالى وأيقنت أنه لن يضيعها هي ولا رضيعها.. فتركته يذهب وبقيت هي في هذه الأرض المقفرة، ودعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه بكلمات رقيقة؛ ***قال الله تعالى***: { رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ }([1]).

وسار إبراهيم حتى إذا أخفاه جبل عنهما وقف ورفع يديه الكريمتين إلى السماء وراح يدعو الله (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادي غير ذي زرع عند بيتك المحرم)

([1]) سورة إبراهيم (١٣ /٣٧،٣٨).

وكانت هناك حكمة عليا في هذه التصرفات الغامضة فقد كان إسماعيل الطفل الذي ترك مع أمه في هذا المكان هو الذي سيصير مسئولًا مع والده عن بناء الكعبة فيما بعد، وكانت حكمة الله تقتضي أن يمتد العمران إلى هذا الوادي وأن يقام فيه بيت الله الذي نتجه جميعًا إليه أثناء الصلاة بوجوهنا.

لقد ترك إبراهيم عليه السلام زوجته وابنه الرضيع في الصحراء امتثالًا لأمر ربه، وعاد راجعًا إلى كفاحه في دعوة الله.

وبعد ساعات قليلة من رحيل إبراهيم عليه السلام نفد الماء والطعام الذي كان معها، فقامت تبحث عن مخلوق في هذه الأرض أو زرع أو عين للماء، فأخذت تجري هنا وهناك ويمينًا ويسارًا في محاولة لإيجاد أي شيء، صعدت على جبل الصفا وأخذت تنظر من عليه علَّها تجد شيئًا.. ولم تجد، هبطت من عليه وصعدت على جبل المروة وأخذت تنظر حولها فلم تجد شيئًا، وأخذت تكرر ذلك الأمر سبع مرات دون جدوى.

سبع مرات تجري كل هذه المسافة تحت أشعة الشمس الملتهبة وفوق تلك الرمال المحرقة!! وعند ذلك بعث الله سبحانه وتعالى مَلَكًا ليفجر عينًا من الماء تحت قدمي إسماعيل عليه السلام ليرتوي هو وأمه وليصدق دعوة إبراهيم عليه السلام {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ}. فلما رأت السيدة هاجر هذا الماء فرجت فرحًا شديدًا وأخذت تجمع التراب حوله خوفًا من أن يذهب سُدى وأخذت تقول: زمزم.. وهي عبارة من عادات قبيلتها كانت تُقال عندما يشتغلون بأمر ما وكأنها تنشد.. ومن هنا سُميت بماء زمزم؛ قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لكانت

عينًا معينًا». وبشَّرها هذا الملك بأن بيت الله الحرام سيُبنى في هذا المكان عن طريق ولدها وأبوه، وأن الله لن يضيعهم أبدًا لأنهم أهل بيته الحرام، وتوافدت القوافل وبدأت تستقر في المنطقة، وبدأ العمران في هذا المكان وسكنتها القبائل (١).

فكانت المحنة التي يعقبها منحة، ولم يقف الأمر على هذا، بل جاء الاختبار الأعظم وهو التضحية امتثالًا لأمر المحبوب.

---

(١) القصة صحيحة وردت بتمامها في صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٦٤).

قال الله تعالى:

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ }(١)

ففي إحدى زيارات إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل رأى في المنام أنه يذبحه وإبراهيم . عليه السلام . يعلم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي فعزم على تنفيذ رؤياه دون تردد.

لكنه فكر في ابنه كيف يخبره فتلطف معه وترك له الأمر لينظر فيه، فقال إسماعيل . عليه السلام . لأبيه: هذا أمر يا أبي فبادر بالتنفيذ، فهنا امتثل الابن الأمر الإلهي ويقدم المشيئة ويطمئن والده بأنه سيجده صابرًا محتسبًا.

ولما استسلم إبراهيم وولده لأمر الله تعالى وفوضا أمرهما إليه.. ذهبا سويًّا إلى مكانٍ بعيدٍ وخلع إسماعيل قميصه ليكفنه والده فيه، وأضجع إبراهيمُ ولدَه على وجهه لئلا ينظر إليه فيشفق عليه.. وفي هذه اللحظات التي تُسكَب فيها العبرات، وتُحتَبس من أجلها الأنفاس داخل الصدور، فلا ترى إلا المدامع في العيون، وضع إبراهيم عليه السلام السكين على رقبة ولده ليحزها، فسُلِبَت السكين حدها كما سُلِبت النار من قبل إحراقها. وجاءت البشرى فنودي إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ ﴾ (٢)

فها هو إبراهيم عليه السلام يكتشف أن ابنه ينافسه في حب الله، وهنا عزم الأب والابن معًا على تنفيذ أمر الله مهما كان.

---

(١) سورة الصافات (٢٣ /١٠٣:٩٩).

(٢) سورة الصافات (٢٣ /١٠٦:١٠٤).

وهذا منهما دليل على الإسلام الحق الذي يقتضي مطلق الخضوع والاستسلام للأوامر مهما بلغت فلما ظهر التسليم منهما لرب العالمين نادى الله عزَّ وجلَّ إبراهيم انتهى الاختبار.

قال الله تعالى: {﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ }(١)

فجاءهم جبريل عليه السلام بكبش من السماء وفدى به إسماعيل عليه السلام فسرنا على نهج إبراهيم عليه السلام نتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ بالأضحية من كل عام؛ فداء لنبينا إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهذا يذكرنا نحن المسلمين بمعنى الإسلام الحق والخضوع لأوامر الله وأحكامه.

وليس هذا فحسب، بل كانت البشرى بإسحاق جزاء الصبر والتصديق لأمر الله.

قال الله تعالى:

{ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ }(٢)

ضيف إبراهيم والبشرى بإسحاق عليهما السلام:

لما خضع إبراهيم عليه السلام لأمر ربه في السابق بذبح ولده إسماعيل عليه السلام، أراد الله سبحانه وتعالى أن يكافئه مرات عدة فرزقه ولدًا آخر لتقر به عينه ويكثر نسله بعث الله سبحانه وتعالى الملائكة لتبشر إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة بهذا الولد، بل وبولد هذا الولد أيضًا كما

(١) سورة الصافات (٢٣ /١١١:١٠٦).

(٢) سورة الصافات (٢٣ /١١٣،١١٢).

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ } (١)

جاءت الملائكة على هيئة ضيوف ودخلوا على إبراهيم (عليه السلام) وهو لا يعرف أنهم من الملائكة، وكان عليه السلام معروفًا بإكرامه للضيف، فذهب وجاء بعجل سمين شواه على النار وقدمه لضيوفه ليأكلوا منه ظنًّا منه بأنهم من الآدميين. ولكن هؤلاء الضيوف لم يكونوا مثل باقي الضيوف؛ فإنه لما وضع الطعام لهم لم يمدوا أيديهم إليه ولم يأكلوا منه. فخاف إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنه من عادة العرب أن الذي لا يأكل الطعام يضمر شرًّا لأهل البيت أما إن أكل من الطعام الذي يقدمونه فمعنى ذلك أنه لا ينوي الشر فلما رأى الملائكة من إبراهيم ـ عليه السلام ـ الخوف طمأنوه وأخبروه بأنهم ملائكة أرسلهم الله تعالى إلى قوم لوط ليوقعوا عليهم العذاب والهلاك. فلما سمعت بذلك زوجته السيدة سارة فرحت بذلك لعملها بسوء ما يفعل هؤلاء القوم، فبشرتها الملائكة بالولد بأن الله سيرزقها إسحاق عليه السلام، بل وأنها سترى ولد ولدها وهو يعقوب عليه السلام. وهنا استغربت السيدة سارة من هذا وتعجبت وتساءلت كيف تلد وهي المرأة العجوز التي لم تلد في سن الشباب؟

(١) سورة هود (١٢/ ٦٩: ٧٣).

فكيف ستلد في هذه السن الكبيرة وكذلك زوجها أصبح عجوزًا؟ ثمَّ إنها عقيم لا تلد فأخبروها بأن إرادة الله عزَّ وجلَّ نافذة.

فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن حمد الله عزَّ وجلَّ على نعمته عليه بالذرية ودعا لهم بالصلاح.

قال الله تعالى: { ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ } (١)

زيارة إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام في مكة:

عاش إسماعيل عليه السلام في شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز) – روض الخيل واستأنسهم واستخدمها وكبر وتزوج من قبيلة جرهم العربية فكان من نسله العرب المستعربة ومن بين ذريته النبي محمد ـ ﷺ ـ فهو الرسول الوحيد الذي ينتسب إلى إسماعيل عليه السلام.

وقد مرت الأيام وزار إبراهيم ـ عليه السلام ـ ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقابلته زوجته فسألها عن حالها فأخبرته أنهما في ضيق وشدة فما كان منه إلا أن أمرها بأن تقرئ إسماعيل عليه السلام وتطلب منه أن يغير عتبة بابه. فلما أخبرت إسماعيل بعد مجيئه أعلمها أنه والده وأنه يأمرني فراقك الحقي بأهلك.

وتزوج امرأة أخرى ثمَّ جاء والده زائرًا فاستقبلته، فسألها عن حالها فأخبرته أنهما في سعة وخير ونعمة، فطاب صدر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهذه الزوجة لابنه (٢).

---

(١) سورة إبراهيم (١٣ / ٣٩:٤١).

(٢) هذه القصة ذُكرت بتمامها في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه رقم (٣٣٦٤).

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء البيت العتيق:

وفي إحدى زيارات إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأهله في مكة وبينما كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يمارس نشاطه في رمي النبال إذا إبراهيم عليه السلام يخبره بأن الله عزَّ وجلَّ قد أمره ببناء بيته المحرم. فأجابه: افعل ما أمرك به الله.

فأخبره بأنه سيعينه على ذلك فقبل أمر الله وتشاركا معا في بناء البيت الحرام. وهو أول بيت وضع للناس في الأرض وهو أول بيت عبد فيه الإنسان ربه.

لقد قام إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل بجمع الأحجار وبناء البيت الحرام ممتثلين أمر الله تعالى بتطهير البيت من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان، وأن يجعلاه مهيأ لاستقبال الطائفين به والعاكفين فيه، والمؤدين للصلاة بداخله.

قال الله تعالى: {۞ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ } (١)

فقاما عليهما السلام بذلك العمل على أتم وجه وهما يدعوان الله تعالى في أثناء عملهما أن يحفظ هذا البلد؛ مكة وأن يرزق أهله من كل الثمرات وأن يتقبل منهم هذا العمل وأن يجعلهم من المسلمين الموحدين وأن يُخرج من ذريتهم أمة مسلمة موحدة تعبد الله ولا تشرك به وأن يغفر لهم ويتوب عليهم.

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائهما فأخرج أمة العرب من لدن إسماعيل وبعث نبينا محمد ـ ﷺ ـ من أمة العرب هذه ومن نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام؛

قال الله تعالى: { وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ

(١) سورة الحج: (١٧ /٣٦).

مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ } (١)

إنَّ دعوة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن. إنه يبني الله بيته، ومع هذا يشغله أمر العقيدة، ذلك إيحاء بأن البيت رمز العقيدة، ثمَّ يدعوان الله أن يريهم شرائع عبادته ويعلمهم مناسك حجهم ويغفر لهم فهو رحيم بعباده.

ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقف عليه خلال بنائه للكعبة وثبت عن النبي ـ ﷺ ـ أنه لما طاف بالبيت صلى خلف المقام ركعتين، أما الحجر الأسود فقد نزل من الجنة مع آدم عليه السلام، وقد كان أبيض، ثمَّ أسودَّ بسبب ذنوب بني آدم، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم»(٢)، وقد كان مقام إبراهيم ملتصقًا بجوار الكعبة حتى جاء عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في إمارته فنحاه إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن المسلمون من الطواف.

ثمَّ بعد ذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يؤذن في الناس بالحج؛ **قال الله تعالى**: {وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن

(١) سورة البقرة (٢ /١٢٩:١٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٨٧٧).

كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ}(١).

وأذن إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الناس بالحج، فأمر بالنداء وعلى الله البلاغ فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ على جبل أبي قبيس ونادى في الناس بالحج إلى بيت الله.

وهنا تجلت قدرة الله عزَّ وجلَّ فقد سمعه من في الأرض جميعًا حتى الأجنة في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل من سمع فمن سمع كتب الله له الحج لبيك اللهم لبيك.

وفي الحج منافع للناس دنيوية ودينية، وكل من حج بيت الله الحرام التزم بمناسك إبراهيم عليه السلام من طواف وسعي، ووقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار وغير ذلك من الطاعات بشرط الإخلاص.

فالحج وتعظيم حرمات الله وشعائره هي سنة الخليل إبراهيم.

ولقد بقيت الكعبة بيت الله الحرام الذي كان وما زال وسيظل حرمًا آمنًا إلى قرب قيام الساعة بوعدٍ من الله جل وعلا، وقد كانوا في الجاهلية على مر العصور على الرغم من شركهم يقدسون البيت ويحترمونه حتى إن أحدهم ليرى قاتل أبيه في الحرم فلا يمسه بسوء.

ثمَّ تمَّ تجديد بناؤها في زمن النبي صلي الله عليه وسلم وقبل بعثته وقد تنازع العرب جميعًا على شرف بنائها، فشارك الجميع حتى انتهوا إلى وضع الحجر الأسود مكانه فتنازعوا كل قبيلة تريد أن تنال شرف رفعه حتى كادوا أن يقتتلوا، ثمَّ اتفقوا على قبول حكم أول شخص يدخل عليهم.

وكانت المفاجأة أن يكون الداخل هو محمد ـ ﷺ ـ والذي كان معروفًا بينهم بالأمين ففرحوا وقالوا جميعًا هذا الأمين رضينا به.

---

(١) سورة الحج (١٧ /٢٧).

وذلك قبل نزول الوحي عليه، فطلب منهم إحضار ثوب فبسطه ووضع الحجر فوقه، ثمَّ أمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب حتى يرفعوه إلى موضعه فقام النبي ـ ﷺ ـ بوضعه بيده الشريفتين.

قال الله تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ }(١)

يخبر الله عزَّ وجلَّ أن أول بيت وضع في الأرض هو المسجد الحرام وقد أخبر النبي ـ ﷺ ـ بذلك حين سأله أبو ذر قائلًا يا رسول الله أي مسجد وضع أولًا؟ فقال المسجد الحرام فسأله، ثمَّ أي قال المسجد الأقصى، فسأله كم بينهما قال أربعون سنة فسأله، ثمَّ أي قال ثمَّ حيث أدركتك الصلاة فصلّ فكلها مسجدًا" (٢)

وعن منزلة البيت الحرام يخبر الله عزَّ وجلَّ بأنه أول بيت وضع في الأرض فيه علامات واضحات تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها مقام إبراهيم، زمزم، الحطيم، الصفا والمروة، الحجر الأسود فهو قبلة لكل من أسلم وجهه لله عزَّ وجلَّ.

وقد زاده الله تشريفًا بأن فرض على المسلمين المستطيعين قصده بالحج، بل وجعلها من أركان الإسلام، فالحج هو أحد أركان الإسلام وقواعده التي فرضها الله عزَّ وجلَّ لمن استطاع إليه سبيلًا. (فمن ملك زاده وراحلته فوجب عليه الحج)

والصلاة بـ ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف صلاة) ويزيد الله لمن يشاء.

وقد سميت مكة (بكه) وأم القرى؛ نظرًا لأنَّ الجميع يقصدها في موسم الحج والعمرة من جميع القرى.

---

(١) سورة آل عمران (٤ /٩٦،٩٧).

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

وهكذا فقد كرم الله عزَّ وجلَّ إبراهيم عليه السلام بجعله أمامًا للناس يقتدي به حين قام بامتثال كل ما أمر الله به، وجعل الله عزَّ وجلَّ البيت الحرام ملاذًا للناس فيه أمنهم، من دخله كان في اشتياق مستمر للعودة إليه وخرج منه مغفور الذنب بإذن الله تعالى.

قال الله تعالى:

{وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ }(١)

وقد أكد الله عزَّ وجلَّ عظم ملة إبراهيم عليه السلام فهي الأصل ولا دين سواها فلا يرغب عن دين إبراهيم عليه السلام إلا من كان شقيًّا سفيه الرأي خفيف العقل، متبعًا لهواه وشيطانه ٠﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾(٢)

فقد اصطفى الله عزَّ وجلَّ إبراهيم عليه السلام بالحكمة والرسالة والنبوة والإمامة والدرجات العلا، فهو من الخاضعين لأوامر الله، امتثل الإسلام امتثالًا صحيحًا، جعل الإسلام وصيته لأبنائه وذريته من بعده بألا يموتوا إلا على الإسلام الخالص.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾(٣)

---

(١) سورة البقرة (١ /١٢٤).

(٢) سورة البقرة (١ /١٣١:١٣٠).

(٣) سورة البقرة (١ /١٣٢:١٣١).

بل حين جادل المجادلون في إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

{مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ}(١)

فدين إبراهيم عليه السلام هو الإسلام لا غير، وأولى الناس به من سلك طريقته واتبع منهجه في عصره وبعده من أمة محمد ـ ﷺ ـ فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين، وكان إبراهيم عليه السلام أول من سمانا المسلمين.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾(٢)

وأوجب الله عزَّ وجلَّ على محمد ـ ﷺ ـ وأمته الإيمان بجميع الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء جميعًا من صحف إبراهيم وموسى والقرآن والتوراة والإنجيل، فنحن مسلمون والإسلام يتطلب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب السماوية بدون تفرقة، ومن يطلب شريعة غير شريعة الإسلام فلن يتقبل منه وسيكون في الآخرة من الخاسرين.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

(١) سورة آل عمران (٣ /٦٧،٦٨).

(٢) سورة الحج (٧٨:١٧).

وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾(١)

وقد كانت صحف إبراهيم عليه السلام كلها أمثال وحكم وقد ذكر القرآن الكريم جزءًا منها فكان مما فيها: ألا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، وأن الإنسان لا يحاسب إلا على سعيه، وأن الله سوف يجازيه الجزاء الأوفى على سعيه.

وهذا أيضًا ممَّا تقره شريعة الإسلام.

قال الله تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ }(٢).

---

(١) سورة ال عمران (٣ / ٨٥:٨٢).

(٢) سورة النجم (٢٦/ ٤٢:٣٦).

العبرة من قصة إبراهيم –عليه السلام–:

- الصبر على المصائب وتحمل الأذى: فقد لاقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سبيل الدعوة إلى الله تعالى الكثير من الأذى من قومه ووالده، فقد هدده والده بالرجم إن لم ينتهِ عن الدعوة، وقام قومه بتسفيهه والتحقير من شأنه، ومع ذلك صبر وواصل مشوار الدعوة حتى أجمع قومه على حرقه في النار، ومع ذلك لم يرجع عن دعوته وإنما صبر وتوكل على الله وفوض أمره لله تعالى.
- الهجرة في سبيل الله: فالواجب على المسلم أن يهاجر بدينه من أرض الكفر وأرض الفتن إلى أرض أخرى ليدعو إلى الله ويعبد الله تعالى فيها. فقد هاجر إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بلاده بابل في العراق إلى الأرض المقدسة، ومن ثمَّ إلى مصر، ثمَّ عاد مرة أخرى إلى الأرض المقدسة.
- صدق التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: وهذا نراه جليًا واضحًا فيما فعلته السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام عندما تركها إبراهيم عليه السلام وحيدة في مكان لا زرع فيه ولا ماء ولا إنس ولا طير، عندما علمت أن الله سبحانه هو من أمر خليله بهذا أيقنت أنه تعالى لن يضيعهم وسيرزقهم ومع ذلك لم تتكل على هذا الأمر وتجلس تنتظر، وإنما سارعت إلى الجبال القريبة منها وصعدتها لتنظر إن كان هناك زرع أو ماء قريب، بل إنها لم تفعل ذلك مرة واحدة وإنما فعلت ذلك سبع مرات.
- الفزع إلى الصلاة حال الخوف: ففي الصلاة راحة للنفس وطمأنينة للقلب ومناجاة للرب؛ فإنَّ إبراهيم عليه السلام فزع إلى الصلاة ونصب قدميه بين يدي ربه حينما ذهبت زوجته سارة إلى جبار مصر.. قام يدعو الله عزَّ وجلَّ ولم يزل كذلك حتى عادت زوجته سالمة غانمة بفضل الله تعالى. وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يفزع إلى الصلاة إذا ألَمَّ به خطبٌ ما. فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى" (١).
- الاستغفار بعد الفراغ من العبادة: وهذا شأن الصالحين حيث تكون قلوبهم وجلة خائفة ألا يتقبل الله منهم أعمالهم؛ فإبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل قالا بعد الفراغ من بناء البيت الحرام:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢٩٧)، وأبو داود (١٣١٩).

{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

- من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه: فالله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين لا يتفضل عليه أحد من العالمين فمن ترك من أجله شيئًا عوضه مثله وزيادة؛ فإنَّ إبراهيم عليه السلام لما أيس من قومه قرر أن يعتزلهم ويبتعد عنهم، فوهب الله سبحانه وتعالى له على الكبر إسماعيل وإسحاق.
- إكرام الضيوف وآداب الضيافة؛ وقد قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (١).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري رقم (٦٠١٨ و٦١٣٦) ومسلم رقم (٤٧).

قصة إسماعيل عليه السلام

إسماعيل اسم الابن البكر لإبراهيم عليه السلام وهو ولده من جاريته هاجر القبطية، ولد في أرض الكنعانيين بين قادش وبارد سنة ١٩١٠ عشر وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح.

ومعنى إسماعيل بالعبرية: سمع الله أي إجابة الله؛ لأنَّ الله استجاب دعاء أبيه إبراهيم حين سأل الله أن يهبه من الصالحين، **قال الله تعالى**:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ } (١)

وكذلك أجاب الله دعاء أمه حين خرج معها رضيعًا إلى أرض مكة، وتركه أباه، فاستجاب الله لدعاء أمه فحفظه وأجرى نبع بين يديه، وأجاب دعاء أبيه فجعله مكانًا مباركًا، حيث بنيت الكعبة وأذن في الناس بالحج.

ولما كبر إسماعيل رأى إبراهيم رؤيا وحي أن يذبحه فعزم على ذبحه ففداه الله، وإسماعيل يومئذ الابن الوحيد لإبراهيم قبل ولادة إسحاق، وكان إسماعيل مقيمًا بمكة حول الكعبة، وتوفي بمكة سنة ١٧٧٣ ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح تقريبًا، ودفن بالحجر الذي حول الكعبة (٢).

وهو النبي العربي الذي ينتهي إليه نسب نبي الله محمد ﷺ.

ولم يرد ذكره –عليه السلام – منفردًا بل كان مقترنًا بأبيه إبراهيم عليه السلام، وإن كان كل منهما يسكن بعيدًا عن الآخر إلا أن دعوتهم واحدة وهي التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

---

(١) سورة الصافات (٢٣ /١٠١:٩٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١ /٧١٩).

قال الله تعالى:

{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ }(١)

ووصفه بأنه من الصالحين؛ لأنَّ نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحًا فإنَّ صلاح الأبناء قرة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم.

والحليم: الموصوف بالحلم وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق.

وليس أدل على صلاحه من امتثاله أمر أبيه حين جاء الأمر بذبحه وإجابته إيَّاه، ثمَّ بعد النجاة والفداء كان مشاركًا أباه في الدعوة إلى الله وبناء البيت الحرام.

قال الله تعالى:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ }(٢)

خصَّ إسماعيل بالذكر تنبيهًا على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه إسحاق؛ لأنَّ إسماعيل صار جد أمة مستقلة قبل أن يصير يعقوب جد أمة، ولأنَّ إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة.

وقد كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ صادق الوعد مع ربه ومع أبيه ومع الناس أجمعين ما وعد إلا ووفى، وكان رسولًا إلى قومه منذرًا نبيًّا، وهم يومئذ لا يعدون أهله أمه وبنيه وأصهاره من جرهم.

وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، ثمَّ إن أمة العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضًا، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشئون الحنيفة ملة أبيه إبراهيم –عليهما السلام–.

---

(١) سورة الصافات: (٢٣ /١٠١: ٩٩).

(٢) سورة مريم (١٦ /٥٤، ٥٥).

ولقد أنعم عليه نعمًا كثيرة، إذ باركه وأنمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذريته، وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذريته.

وكان إسماعيل –عليه السلام – فارسًا فهو أول من استأنس الخيل وكان صبورًا حليمًا، يقال إنه أول من تحدث بالعربية الفصيحة؛ حيث نشأ بين العرب من نسل يعرب بن قحطان فتعلم لغتهم.

العبرة من قصة إسماعيل –عليه السلام –.

- ضرورة الامتثال لأوامر الله وإن كان ظاهرها الشر، فإنَّ في باطنها الخير والرحمة.
- وجوب بر الوالدين وامتثال أمرهما ما دام يأمرا بطاعة الله.
- لا شدة ولا كرب يدوم، فبعد الليل لا بدَّ من طلوع الفجر، ومع العسر يسر.
- إنَّ الله عزَّ وجلَّ يكافئ الصابرين **قال الله تعالى**: { إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ }.

قصة إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى:

{وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ } (١).

لما كان خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام – قانتًا لربه، مطيعًا له سبحانه، حتى أنه عليه السلام لم يتأخر في تقديم ابنه– إسماعيل عليه السلام – الذي كان يترجاه – طاعة لله تعالى.

ولأنَّ الله يجزل العطاء لعباده الطائعين، والفرج مع الضيق، فقد فدا الله إسماعيل –عليه السلام – بذبح عظيم، وبشرت الملائكة إبراهيم عليه السلام بإسحاق؛ وذلك لأنَّ إبراهيم– عليه السلام– لم يقنط من رحمة الله، وإن كانت زوجته قد كبر سنها، لكن الله على كل شيء قدير.

قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾(٢)

---

(١) سورة الحجر /٥١: ٥٦.

(٢) سورة الأنبياء /٧٣:٧٢.

ولم يتوقف عطاء الله لإبراهيم –على إسماعيل وإسحاق فقط، فقد وهب الله –عزَّ وجلَّ– لإبراهيم عليه السلام إسحاق ومن بعده يعقوب، وجعلهما من عباده الصالحين، بل وجعلهم أئمة ورسلًا أوصى إليهم فعل الخير وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ودعوة الناس إلى ذلك كله فكانوا عابدين لله رب العالمين.

قصة لوط عليه السلام

قال الله تعالى:

{فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ}(١)

لوط عليه السلام بن هاران بن أزر بن أخ سيدنا إبراهيم عليه السلام صدقه وآمن معه وهاجر معه إلى أرض الشام، **حيث** بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم (٢) وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث(٣).

دعوة لوط –عليه السلام.

قال الله تعالى: {كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}(٤)

فبعد أن بيّن لهم أنه رسول الله إليهم، نهاهم عن فعلهم، وذكرهم بأن فعلهم هذا لم يأت به أحد من العالمين.

---

(١) سورة العنكبوت (٢٠ /٢٦).

(٢) سدوم مكان في قرى الأردن، التي قيل إنّها في مكان البحر الميّت الآن.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٨ /٢٣١،٢٣٠).

(٤) سورة الشعراء (١٨/ ١٦٤:١٥٩).

قال الله تعالى:

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}(١)

فالله عزَّ وجلَّ لما خلق الإنسان إنما كان للاستخلاف في الأرض، وعمارتها بالعبادة والطاعة له سبحانه.

قال الله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }(٢)

ثمَّ خلق منه زوجه حواء، ثمَّ بثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساء للعمارة في الأرض.

قال الله تعالى:

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }(٣)

---

(١) سورة الأعراف (٨ /٨٠،٨١).

(٢) سورة البقرة (١ /٣٠).

(٣) سورة النساء (١/٤).

وبدأ لوط عليه السلام في دعوة قومه وتذكيرهم بنعم الله عليهم، ونهيهم عن فعلهم الشنيع، لكنه قوبل بالتهكم، فهم متجاوزون الحلال بالحرام، فلم يؤمن له أحد غير أهل بيته إلا امرأته، وكانت قلوبهم قاسية وأهواؤهم مريضة.

قال الله تعالى:

{أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ}(١)

فما كان من قومه إلا أن حكموا على لوط –عليه السلام – ومن آمن معه بالطرد، فقد صار النقاء والطهر عندهم جريمة تستوجب الطرد.

قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٢).

وفي ذلك تمادٍ واضح وفسق وتكبّر، إذْ لم يكتفوا بتبجّحهم بالفاحشة، بل إنّهم كرهوا من يدعوهم إلى الطهر وأعمال الفطرة، ثمَّ تحدّوا نبيهم لوطًا –عليه السلام– أن يحلَّ بهم العذاب الذي توعَّدهم به في حال كفرهم واستمرار ذنوبهم.

---

(١) سورة الشعراء (١٨ /١٦٧: ١٦٥).

(٢) سورة النمل (١٨ /٥٧: ٥٤).

قال الله تعالى:

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ}(١)

فيئس لوط عليه السلام من قومه وتبرأ منهم، ثمَّ دعا عليهم، أن ينصره الله ويهلك المفسدين.

قال الله تعالى:

{ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}(٢).

نهاية قوم لوط عليه السلام:

بعد أن دعا لوط –عليه السلام– بالنصرة من الله تعالى؛ أرسل الله ملائكته؛ جبريل وإسرافيل وميكائيل عليهم السلام، ليُوقعوا العذاب على الكافرين، حيث مرّوا الملائكة أولًا على قرية إبراهيم عليه السلام قبل أن يذهبوا إلى لوط، حيث بشّروا إبراهيم بولده إسحاق وولد ولده يعقوب عليهم السلام، وأخبروا إبراهيم أنّهم أتوا ليوقعوا العذاب في قرى قوم لوط، فخاف إبراهيم واهتمّ لذلك الخبر، وجادل الملائكة خشيةً على ابن أخيه لوط، فطمأنته الملائكة أنّ الله سينجي لوطًا عليه السلام، وسيهلك باقي القوم، ومن بينهم زوجة لوط؛ لأنّها لم تتّبع رسالة زوجها التي أرسله الله بها.

---

(١) سورة العنكبوت (١٩ /٢٩، ٣٠).

(٢) سورة الشعراء (١٨ /١٦٩،١٦٨).

قال الله تعالى:

{وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}(١).

خرج الملائكة من عند سيدنا إبراهيم (عليه السلام) قاصدين قرية لوط (عليه السلام)، وأخبرته ابنته بهم فهرع لوط عليه السلام إليهم، فلم يكد يراهم فسألهم من أين هم فصمتوا عن إجابته وسألوه أن يضيفهم.

استحى منهم وسار معهم يحدثهم عن أهل القرية أنهم خبثاء، يخزون ضيوفهم ويفسدون في الأرض وكان الصراع يجري داخله محاولًا التوفيق بين أمرين؛ صرف ضيوفه عن المبيت في القرية دون إحراجهم، وبغير إخلال بكرم الضيافة، صحب لوط ضيوفه إلى بيته ولم يرهم من أهل المدينة أحد.

(١) سورة هود (١٢ / ٦٩ /٧٦).

لكن زوجته ما إن شاهدت الضيوف، حتى تسللت وأسرعت إلى قومها وأخبرتهم الخبر (١).

قال الله تعالى:

{وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾}(٢)

وحصل ما خشيه لوط؛ إذ أخبرتهم زوجة لوط بوجود رجال عند زوجها، فلمّا سمع القوم الخبر ذهبوا مُسرعين يفاوضون لوطًا ليدخلوا على ضيوفه، فحاول لوط إقناعهم وثنيهم عن ذلك، إلَّا أنّهم رفضوا الاستماع له.

قال الله تعالى:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣).

فلمّا رأت الملائكة الكرب الذي حلّ بلوط -عليه السلام- وهو يحاول إقناع قومه، أخبروه بأنّهم ملائكة، ولن يستطيع أحد إيذائهم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٢ /١٢٧: ١٢٥).

(٢) سورة هود (١٢ /٧٧).

(٣) سورة هود (١١ /٨٠: ٧٨).

قال الله تعالى: { قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ }(١).

بعد أن أخبرت الملائكة لوطًا –عليه السلام– أنّهم ملائكة مُرسلون من ربّ العالمين، وأنّهم أُرسلوا ليهلكوا القوم الكافرين، وطلبوا منه أن يخرج مع أهله من القرية ليلًا؛ لأنّ العذاب سيحلّ على قومه صباحًا، وطلبوا منه وممّن معه ألّا يلتفتوا إلى خلفهم لينظروا إلى عذاب الكافرين، فتجهّز لوط ومَن آمن معه وخرجوا في طريقهم، ورُوي أنّ جبريل –عليه السلام– قَلَبَ قرى قوم لوط بريشةٍ من جناحه، وقيل: إنَّ قرى قوم لوط كانت أربع أو خمس قرى، حيث قدّر ساكنيها بأربعمائةِ ألفٍ، حيث سمع أهل السماء نباح كلابهم وأصواتهم عند حلول العذاب بهم، فصار عاليها سافلها، وأُرسل عليهم صيحةً ومطرًا من الحجارة تتبع بعضها بعضا، وقيل: إنَّ كلّ حجر مكتوب عليه اسم الرجل الذي سيقتله، وكانت زوجة لوط قد خرجت معه أيضًا، إلّا أنّها عندما بدأ العذاب يحلّ بالكافرين سمعت أصواتهم وصراخهم فالتفتت تصرخ واقوماه فأصابها ما أصابهم، وأنجى الله لوطًا وأهله إلا امرأته كانت من الهالكين (٢).

وهكذا فقد حكي القرآن الكريم هلاك قوم لوط؛ لأنهم خالفوا الفطرة وعصوا الله ورسوله، حتى أن زوجته لما أقرت لهم ما يرتكبون من فاحشة، أصابهم ما أصابهم ولم يمنعه عنها، كونها زوج نبي.

---

(١) سورة هود (١١ /٨٣: ٨٠).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (١ /١٧٥)، جامع البيان (١٥ /٤٤٢: ٤٣٠).

قال الله تعالى: {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } (١).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾(٢) .

ولقد حكى القران الكريم قصة نبي الله لوط مع قومه في أكثر من موضع، الأعراف وهود، والحجر والشعراء والعنكبوت، والذاريات والقمر؛ ليؤكد للناس بأن ما جاء به الرسل هو الحق المبين، الذي يهدي إلى صراط مستقيم.

قال الله تعالى:

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}(٣)

لقد كان في هلاك قرى قوم لوط عبرة لقوم يعقلون، فهي شاهدة عليهم تحكي أفعالهم الشنيعة، لتأنف النفس اقتراف ذنبهم، فيصبها ما أصابهم.

قال الله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}(٤).

---

(١) سورة العنكبوت (٢٠ /٤٢).

(٢) سورة التحريم (٢٨ /١٠).

(٣) سورة الأعراف (٨ /٣٣).

(٤) سورة الصافات (٢٣ /١٣٧، ١٣٨).

العبرة من قصة لوط – عليه السلام–.

- لقد أنزل الله تعالى الأنباء والآيات في القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل على سيدنا محمد – ﷺ - لينتفع بها في ويرتقي في مراتب الإيمان.

قال الله تعالى: {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ }(١).

- تقوى الله تعالى من أجل مراتب الإيمان، وهي التي تعصم المؤمن من نزع الشيطان الذي هو العدو الحقيقي للإنسان يتربص به آناء الليل والنهار، ليزحزحه عن طريق الهدى والإيمان، إلى طريق الشرك والضلال.

قال الله تعالى: {يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ }(٢).

- إنَّ العاقبة للمتقين ولو كانوا قلة، ونعلم هوان الكفرة على الله ولو كانوا أكثر الناس، فالله سبحانه وتعالى جعل عاقبة المجرمين وخيمة لنراها دائمًا، وهي ليست مبنية على القلة والكثرة، بل على الأعمال والصفات والأخلاق.

---

(١) سورة هود (١٢ /١٢٠).

(٢) سورة الأعراف (٨/ ٢٦، سورة الأعراف (٨/ ٢٦،٢٧).

قال الله تعالى: {فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ}(١).

فلم ينج من قوم لوط إلا هو وأهله حتى زوجه كانت من الهالكين، حيث أقرت قومهم على صنيعهم. حفظ الخالق سبحانه النفس البشرية من الانغماس في الشهوات منذ بدء الخليقة، وجعل الزواج هو السبيل القويم لتفريغها، وحرم ما دون ذلك من طرق غير مشروعة كالزنا (وهو أن يأتي الرجل غير زوجته)، واللواط (وهو أن يأتي الرجل الرجل)، والسحاق (وهو أن تأتي المرأة المرأة) وتوعد سبحانه من يخالف شرعه بالعذاب الأليم في الدارين، ولنا في قوم لوط العبرة والعظة.

(١) سورة الذاريات (٢٤/٢٧:٢٥).

قصة يعقوب عليه السلام

بشّر الله –عزَّ وجلَّ – سيدنا إبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

قال الله تعالى:

{فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ }(١)

ولقد أمر الله –عزَّ وجلَّ –إبراهيم –عليه السلام– بالإسلام فأسلم، وخضع، ووصى أبناءه بالإسلام. وكذلك يعقوب عليه السلام فقد وصى أبناءه في موته بعبادة الله الواحد إلههم واله آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحد ونحن له مسلمون، والنص قاطع في أنهم بعثوا على دين الإسلام (٢)، وأن الإيمان بالله هو الميراث الحقيقي لأبناء إسرائيل من بعده فليحرصوا عليه حتى الموت.

قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ }(٣)

---

(١) سورة هود (٧١/١٢).

(٢) الأصل في معنى الإسلام: هو الخضوع التام والانقياد والتسليم لله –عز وجل – وهو أصل كل الأديان وإن اختلفت المسميات.

(٣) سورة البقرة (١ /١٣٣:١٣١).

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام واسمه إسرائيل. وكلمة إسرائيل معناها؛ قيل: أنه مركب من (إسرا) وهو العبد في اللغة العبرانية، و (إيل) اسم من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله.

والثاني: أن معنى (إسرا) صفوة، و (إيل) الله تعالى، ومعناه صفوة الله.

والاصطفاء هنا ليعقوب عليه السلام، وليس لذريته لأنه ابتلى من الله بلاء شديدًا في ابنه يوسف عليه السلام، وسنعرف قصة يوسف عليه السلام فيما بعد، ومقدار تقوى والده يعقوب –عليه السلام – وما واجهه من بلاء وما تحمله في حياته فاستحق به أن يكون صفيًّا لله (١).

(١) ينظر: تفسير الطبري (١ /٥٥٣).

قصة سيدنا يوسف عليه السلام

قال الله تعالى: {الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ}(١)

أوحى الله –سبحانه وتعالى– إلى سيدنا محمد ﷺ – القرآن المبين: أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة وتفسيرها ويبنيها، فهو جامع البلاغ محيط بكل شيء ومنهج للبشرية للحياة الكريمة ويأتي بالخبر اليقين.

تأتي قصة سيدنا يوسف عليه السلام بالدروس والعبر المتعددة؛ لتزيح غطاء الصدور وتعرفنا ما يدور في القلوب.

وسيدنا يوسف –عليه السلام– وصفه سيدنا محمد ـ –ﷺ – (الكريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم نبي الله، وولد نبي الله، وحفيد نبي الله، وسبط نبي الله) (٢).

قال الله تعالى: {إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ

(١) سورة يوسف (١٢ /١:٣)

(٢) أخرجه البُخاريّ (٣٣٨٢).

رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(١).

تبدأ قصة يوسف، حين يقصُّ لأبيه يعقوب –عليهما السلام– رؤيا قد رأها، ولأنَّ رؤيا الأنبياء حق، فقد أيقن يعقوب –عليه السلام – أن يوسف هو نبي بني إسرائيل المقبل، وتنبأ لعظيم شأنه وعلو مكانته.

ولقد كانت عاطفة يعقوب –عليه السلام نحو يوسف كبيرة، بحكم أنه صغير ويحتاج إلى حكمة الأب وعطفه، فضلًا إلى كونه نبي الله كما علم أبيه من أمر الرؤيا.

قال الله تعالى: {۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا

(١) سورة يوسف (١٢ /٤ :٦).

يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ }(١).

ولأنَّ الحب مسألة عاطفية لا تقنين لها ولا تكليف فيها، نجد القرآن الكريم يجردنا من هذه العاطفة في الحكم بين الناس.

والحب أنواع: حب عاطفي، وحب عقلي، فالحب العقلي: أن تؤثر النافع على الضار، وإخوة يوسف لم يعرفوا هذا الفارق؛ لذلك حقدوا على أخيهم يوسف –عليه السلام – وخططوا للتخلص منه، ولم يفكروا بأن أباهم شيخ كبير وكل ما يملكه في أيديهم وهم عصبة.

قال الله تعالى: { وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } (٢).

وعندما جاءوا لأبيهم بقميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج عرف أنه كذب، واستعان بالله أن يرزقه الرحمة والصبر على ما يصفون، وهذا شأن المؤمن الموحد بالله في مصائبه.

قال الله تعالى: { وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى

(١) سورة يوسف (١٢ /٧: ١٧).

(٢) سورة يوسف (١٢ /١٨).

ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ }(١)

أما يوسف –عليه السلام– فقد أكرمه الله – جل جلاله– وهيأ له بيت عزيز مصر، وقال لزوجته أكرمي مثواه، علمه ربه من تأويل الأحاديث، وتفسير الرؤى، وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر بعد ذلك.

وكذلك كان –عليه السلام – من المحسنين، يعبد ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة (٢) له بحب وإخلاص وطاعة كأنه يرى الله بقلبه وينظر إليه في حال عبادته وخلوته.

وقربه من ربه هذا كان عصمة له من الوقوع في المعاصي والآثام.

قال الله تعالى: {وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن

---

(١) سورة يوسف (١٢/٢٢:١٩).

(٢) فالإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ {(١).

دعت امرأة العزيز يوسف الذي هو في بيتها إلى نفسها لحبها الشديد له وحسن

بهائه، وغلقت الأبواب عليها وعلى يوسف، وقالت هلمَّ إليَّ، فقال معاذ الله فاعتصم بالله العلي القدير واستجير من الذي تدعوني إليه، من خيانة سيدي الذي أحسن منزلتي وأكرمني فلا أخونه في أهله، والمعنى هنا (لولا أن رَءا برهان ربه لهم بها) فإن لولا تمنع حدوث الحدث.

(١) سورة يوسف (١٢ /٢٢:٣٤).

فكان برهان ربه في داخله عصمة له، ويقول الله تعالى: إنه من عبادنا المخلصين؛ أي الذين لا يقربهم الشيطان أبدًا.

وتدور أحداث القصة بعد ذلك على أنه يعصم نفسه من الفتن ويدعو ويستغيث ربه فيستجيب له.

قال الله تعالى: ﴿ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ

قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ}(١).

وكان السجن فرصة ليوسف –عليه السلام – ليصدع بدعوته إلى وحدانية الله تعالى، فما تعبدون من دون الله إلا أسماء لا معاني وراءها، جعلتموها أنتم وآباؤكم أربابا جهلًا منكم وضلالة، ما نزل الله من حجة أو برهان على صحتها، فالحكم الحق لله تعالى وحده لا شريك له، فهو الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته، له الملك وله الأمر ليس كمثله شيء، فهو منزه في ملكه لا منازع له في سلطانه.

والتوحيد هو بوابة الإنسان لمعرفة الخالق أمر ألا تنقادوا ولا تخضعوا لغيره، وأن تعبدوه وحده وهذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته.

وفي السجن بدأت دعوة يوسف عليه السلام ومنه خرجت، ولكن بعد أن صار دين التوحيد له أتباع كُثُر في مصر، وهم من تولوا نشر دين التوحيد بعد خروجهم منه.

رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن.

قال الله تعالى: { وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ

(١) سورة يوسف (١٢ / ٤٢:٣٥).

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } (١)

وتمَّ فك ألغاز اللغة الهيروغليفية، عرفنا أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة، حين استعمر مصر ملوك الرعاة وهذه الحقيقة عرفها العالم في العصر الحديث.

وهم الذين يسمون الهكسوس، وهذه الفترة التي ظهر فيها يوسف وإخوته فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس وقتلوا من كانوا يوالونهم.

---

(١) سورة يوسف (٤٣: ٥٤).

وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا.

وفي تأويل رؤيا الملك طلب يوسف –عليه السلام– أن يزرع أهل مصر بدأب وجد واجتهاد، فما تحصدونه فلكم أن تأكلوا القليل منه، وتتركوا بقيته محفوظًا في سنابله، والحفظ في السنابل يعلمنا قدر القرآن، وقدرة من أنزل القرآن سبحانه، وما آتاه الله جل جلاله ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله له.

فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خزن في سنابله، فتلك حماية ووقاية له من السوس والآفات التي تضر بالإنسان وكذلك القشرة الملازمة بحبة القمح تحتوي على قيمة غذائية كبيرة، كما أنهم بذلك قد ضمنوا طعام الإنسان والحيوان على سواء. وهذا من إعجاز القرآن أيضًا (١).

قال الله تعالى: {قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}(٢).

بعد أن ثبت براءة يوسف ـ عليه السلام ـ وعرفها الجميع رأى الملك في يوسف عليه السلام أخلاقًا رفيعة، وسعة وعلم، فصار من أهل الثقة والأمانة عند الملك فاستخلصه لنفسه وأمنه، ولذلك طلب يوسف ـ عليه السلام ـ من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ليتخذ من إصلاحه سبيلًا لدعوته وتحقيقًا لرسالته، ومن الإسلام أنه وجد في نفسه الحكمة أو الخبرة وقادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر، وهكذا كان تمكين الله تعالى ليوسف ـ عليه السلام ـ في الأرض، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة وعادلة.

---

(١) ينظر: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم (١ /١٦٠).

(٢) يوسف (١٢ / ٥٦،٥٧).

والحديث: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (١).

قال الله تعالى: { وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٠).

أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ
وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا
كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ
يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ
صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم
مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ
كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ
كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ
دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ
أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ

أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا
مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا
ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ
مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ
إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ
ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ
﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا
يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ
مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ

جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾}[1]

---

(١) سورة يوسف (١٣/١٠٠).

ثمَّ جاء إخوة يوسف –عليه السلام– بسبب القحط الذي لم يؤثر على مصر وحدها بل أثَّر على المناطق المجاورة لها، وذاع أمر يوسف عليه السلام، الذي اختزن الأقوات تحسبًا لذلك القحط فقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه الميرة والطعام، ولم يتخيلوا بأي حال أن يكون من أمامهم هو أخوهم الذي ألقوه في الجب،..... ثمَّ لقائه بأبويه بعد ذلك وتحقق رؤياه.

قال الله تعالى: { رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ } (١)

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا ربه عزَّ وجلَّ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك، فأنت ناصري ومعيني في الدنيا والآخرة وأن توفاني مسلمًا موحدًا موقنًا بلا إله إلا الله.

قال الله تعالى: { ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ }(٢).

يقول الله تعالى لمحمد – ﷺ – المذكور من أمر يوسف عليه السلام أعلمناك به وحيًا إليك وإنزالًا عليك عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم.

---

(١) يوسف (١٠١).

(٢) يوسف (١٠٢).

قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }(١).

يقول الله تعالى لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، عبرة لأصحاب العقول، وأن هذا القرآن تصديق لما قبله من الكتب ويبين كل شيء يحتاج إليه في الدين لتهتدي به قلوبهم من الضلال إلى الرشاد، وينالون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا ويوم الميعاد.

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا من الوجوه الناضرة لربها ناظرة بإذن الله تعالى

العبرة من قصة يوسف – عليه السلام–.

- يجوز كتمان الخير وعدم التحدث بالنعمة منها وكذلك قول الرسول– ﷺ – (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) (٢)

وينبغي للعبد البُعد والكتمان عما يخشى مضرته، وقد وجه يعقوب عليه السلام فلذة كبده بذلك قائلًا: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} وأمرنا الرسول الكريم محمد – ﷺ– بالاستعاذة من الشيطان دائمًا.

---

(١) يوسف (١١١).

(٢) مجمع الزوائد (١٣٧٣٢).

- العدل في التعامل مع الأولاد قدر الإمكان حتى لا ينزغ الشيطان بينهم.
- الصبر والثبات على الحق: فقد صبر يوسف عليه السلام صبرًا عظيمًا، حينما ألقاه أخوته في الجب، كما صبر على كيد امرأة العزيز، وما حاكته ضده من المؤثرات التي انتهت بوضعه في السجن، حيث لبث فيه بضع سنين، ولم تغتر المحن عزيمة يوسف عليه السلام الذي ظلَّ ثابتًا على الحق والمبدأ.
- الصبر مفتاح الفرج: فرق العلماء بين الصبر الجميل والصبر العادي، حيث إنَّ الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولا شكوى.
- **الحفاظ على رسالة الدعوة إلى دين الله تعالى حتى في أشد اللحظات وأصعبها** {يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ}.
- تبرئة النفس من التهم: يعلم يوسف عليه السلام بأنه مظلوم وأن الله ناصره ومؤيده ولو بعد حين، وكل إنسان ما دام بريئًا فلا بدَّ أن تعلن براءته ويعرفها الجميع.
- خطورة الخلو بالمرآة في البيت قال الرسول ﷺ " **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –** رضي الله عنه – عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (١). وهذا ما فعله يوسف عليه السلام، قال سيدنا يوسف في هذا أن عليه حقَّين؛ حق الله تعالى معاذ الله أن يعصيه، وحق الذي أكرمه وأحسن مثواه.
- لولا معونة الله تعالى للعبد فلا يثبت على الحق {كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ}.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٦٠).

- شهادة الحق دائمًا، فشهادة قريب الملك كانت أقوى الشهادات.
- أن الرؤيا فتوى لقول يوسف عليه السلام {قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ}
- فلا يجوز قص الرؤيا على أحد، بل العلماء يقول الرسول ﷺ: " إِنَّ الرُّؤْيَا تَقَعُ عَلَى مَا تُعَبَّرُ، وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ رَفَعَ رِجْلَهُ، فَهُوَ يَنْتَظِرُ مَتَى يَضَعُهَا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا، فلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا، أَوْ عَالِمًا ") (١) .
- سورة يوسف عليه السلام مكية نزلت قبل الهجرة إلى المدينة المنورة نزلت على النبي ﷺ في عام الحزن لتهون عليه ما به.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨١٧٧).

قصة أيوب عليه السلام

قال الله تعالى: {إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا } (١)

كان لإبراهيم- عليه السلام –ولدان هما إسماعيل وإسحاق – عليهما السلام – ومن نسل إسماعيل –عليه السلام – كان النبي محمد –ﷺ – فهو الوحيد من ذرية إسماعيل عليه السلام.

أما جميع الأنبياء فكانوا من ذرية إسحاق عليه السلام.

فأيوب من ذرية إسحاق عليهم السلام، وهو رجل من الروم أيوب بن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحاق وكانت أمه من ولد لوط، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيًّا، وأرسله إلى قوم حوران بالشام، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظًّا وفيرًا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلًا وولدًا من رجال ونساء، وكان رحيمًا بالمساكين، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله (٢)

قال الله تعالى:

{وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ} (٣)

---

(١) النساء (٦ /١٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٢٢ /١٧١)، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط: الثالثة ١٤٢٠هـ.

(٣) الأنعام (٧ /٨٤).

لقد أراد الله تعالى أن يبتليه: أي يختبره، فسلب جميع ذلك وكل شيء يملكه، وماتت جميع أولاده الواحد تلوا الواحد ومع ذلك كان شاكرًا عابدًا مطيعًا في حياته، ثمَّ ابتلاه سبحانه وتعالى بالمرض الشديد حتى لم يبق من جسده مغرز إبره سليمًا سوى قلبه فقعد لا يقوم من مقامه ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته . رضي الله عنها- فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساء هي التي كانت تخدمه تطعمه وتشربه وتغسله وتنفق عليه من ماله حتى فني، فأخذت تعمل بالأجرة، ظل أيوب -عليه السلام- في هذا البلاء ثماني عشرة سنة وهو صابر لا يشتكي لأحد حتى لزوجته.

ضربت الأمثال في صبر هذا النبي العظيم وقد أثنى الله تبارك وتعالى على عبده في محكم كتابه.

قال الله تعالى: { إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ }(١)

والأواب هو العودة إلى الله عزَّ وجلَّ بالذكر والشكر والصبر

قالت له زوجته لما طال وجعه يا أيوب لو دعوت ربك أن يفرج عنك ويشفيك أنت نبي ولكن لا يشتكي ويصبر ويرضي، فهو يعلم جيدًا بأن الله سبحانه وتعالى يختبره فيصبر ويرضى ويشكر.

ووصل بها الأمر أن الناس توقفوا عن استخدامها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفًا من أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحدًا يستخدمها باعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتها بطعام طيب كثير فأتت أيوب فقال: من أين لك هذا وأنكره فقالت: خدمت به أناسًا فلما كان الغد لم تجد عملًا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضًا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين أتت به؟ فكشفت عن رأسها فلما رأى رأسها محلوقًا؟ فعندها دعا الله عزَّ وجلَّ (٢).

---

(١) سورة ص (٢٣ /٤٤).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (١ /٥٠٩:٥٠٦).

قال الله تعالى:

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ}(١).

فاشتكى بحاله لله الرحمن الرحيم وغلبه اليقين بأن ربه يعلم به أكثر من نفسه.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٢).

وقد ذكرت بعض كتب التاريخ أن أيوب عليه السلام تساقط لحمه ولم يتبق منه إلا العظم والعصب (٣) فإننا نستنبط أن يكون مرضه منفردًا أو مشوهًا فهذا يتنافى مع منصب النبوة فالأنبياء لا يمرضون مرضًا ينفر الناس منهم.

دعا أيوب عليه السلام ربه أن يبعد عنه شر الشيطان وجرأة الشيطان عليه وتصوره أنه يستطيع أن يغويه.

فأمره ربه أن يقوم من مقامه ويضرب الأرض برجله فأنبع الله تعالى عينًا وأمره أن يغتسل.

عندما اغتسل ذهب المرض من خارجه، فلما شرب خرج المرض من داخله، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا.

قال الله تعالى: {ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ} (٤).

---

(١) الأنبياء (١٧ /٨٣).

(٢) سورة ص (٢٣ /٤١).

(٣) ينظر: البداية والنهاية (١ /٥٠٩).

(٤) سورة ص: (٢٣ /٤٢،٤٣).

فجاءته زوجته ما عرفته وقالت له هل رأيت هذا المبتلى نبي الله فأنا تركته هنا فوالله ما رأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال ويحك أنا أيوب وقد ردّ الله عليَّ جسدي (١).

وأعاد الله تعالى به نعمة الأهل وأكرم زوجته فرد الله تعالى عليها شبابها، هي صبرت معه صبرًا عظيمًا، وولدت لأيوب عددًا كبيرًا من الذكور والبنات أكثر من قبل.

قال الله تعالى: {فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ}(٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ» (٣)

فلما أذهب الله عنه الضر أمره الله عزَّ وجلَّ أن يأخذ عرجونًا فيه مائه شمراخ (عود دقيق) فيضر ب بها ضربة واحدة لكيلا يحنث في قسمه وبذلك يكون قد بر في قسمه وهذا لصبر زوجته معه هذا الفرج والمخرج لمن اتق الله تعالى وأناب إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ﴾(٤)

وهذا له قصة أخرى أشارت إليها الآية إجمالًا ولم يرد في تعيينها أثر صحيح ومجملها أن زوج أيوب حاولت عملًا ففسد عليه صبره من استعانة ببعض الناس على مواساته فلما علم بذلك غضب وأقسم ليضربنها عددًا من الضرب ثمَّ ندم وكان محبًّا لها، وكانت لائذة به في مدة مرضه فلما سري عنه أشفق على امرأته من ذلك ولم يكن في دينهم كفارة اليمين فأوحى الله إليه أن يضربها بحزمة فيها

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١ /٥١٢).

(٢) سورة الأنبياء: (١٧ /٨٤).

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري: (٣٣٩١) .

(٤) سورة ص: (٢٣ /٤٤).

عدد من الأعواد بعدد الضربات التي أقسم عليها رفقًا بزوجه لأجله وحفظا ليمينه من حنثه إذ لا يليق الحنث بمقام النبوءة. وليست هذه القضية ذات أثر في الغرض الذي سيقت لأجله قصة أيوب من الأسوة وإنما ذكرت هنا تكملة لمظهر لطف الله بأيوب جزاء على صبره (١).

قال الله تعالى: { وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا } (٢).

العبرة من قصة أيوب– عليه السلام–.

- ضرورة الإيمان بالقدر فأقدار الله كلها خير.
- الصبر على الابتلاء الذي قضاه الله على عباده فيكون لهم الجزاء في الدنيا والآخرة.
- ضرب بأيوب المثل الأعلى في الابتلاء.
- الزوجة الصالحة هي من تتحمل زوجها في شدته قبل رخائه وصحته.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣ /٢٧٣).

(٢) سورة الطلاق: (٢٨ /٢،٣)

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى: { وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾}(١)

هو يونس بن متى أرسله ربُّه -تعالى- إلى قرية نِينَوى، وهي مدينة بالعِراق، كانت عاصمةً للدولة الآشورية، ولها شهرتُها التاريخيَّة، وهي اليومَ أطلالٌ وآثار، تقع على الضفة اليُسرى لنهر دجْلة.

قال الله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾}(٢).

كان عددُ أهل هذه القرية مائة ألف أو يزيدون، عبدوا الأصنام، وتعلَّقوا بالأموات والخُرافات، فقام فيهم يونس -عليه السلام- مبلغًا رسالة ربه، ومجددًا لمعالِم التوحيد التي اندرستْ، رغَّبهم نوال ربهم إنْ تابوا ووحَّدوا، وأنذرهم عقابَه وبأسه إن كفروا وأشركوا، ولبث فيهم ناصحًا مصلحًا ما شاء الله له أن يلبث.

فما كان موقف قومه إلا الإعراضَ والجفاء، والصد والاستعصاء، ولشدَّة يقينه بدعوته، وعِظَم تشبُّعه بها؛ غضب على قومه وغاضبهم، فخَرج من ديارهم، وقد

---

(١) سورة الأنعام: (٧ /٨٩).

(٢) سورة الصافات: (٢٣ /١٣٩:١٤٨).

بَلَغ به الحنقُ منهم مبلغه؛ فارَقَ يونسُ ابن متى قريتَه نينوى، قبل أن يُؤذنَ له من ربه (١).

استعجل يونس ابن متى -عليه السلام- الخروجَ من ديار قومه، وكان يظنُّ أن ربَّه لن يضيّق عليه بسبب هذا الخروج.

مضى العبد الصالح، ميمِّمًا وجهه شطر البحر، وهو لا يدري عن المصير الذي ينتظره، والبلاء الذي يتحيَّنه، وحين وَصَل شاطئ البحر، وَجَد سفينةً قد ضاقتْ بأهلها، فركب مع من ركب؛ أقلعتْ تلك السفينةُ المتواضعة بأمْر ربِّها، وسارتْ في عُرْض البحر، حتى إذا توسَّطت البحر، تلاطمتْ بها الأمواج، وتقاذفتْها الرِّياح، فاضطربت السفينة ومادتْ، ومالتْ براكبيها وماجتْ، وظنَّ أهلُ السفينة أنه قد أُحيط بهم، وتيقَّنوا أنهم على شفا مَهْلَكة ومتلَفة.

في هذه الحال المفجعة، والساعة المهولة، اجتمع أهلُ السفينة وتشاوروا، ثمَّ قرَّروا: أنه لا بدَّ من التضحية ببعض أفراد السفينة، حتى يخفَّ الحمل عليها؛ لينجوَ من بقي بعد ذلك؛ فهلاك البعض أهون من هلاك الجميع.

واختاروا طريقة عادلة لمن سيكون ضحيةً في البحر، فوضعوا قرعةً بينهم، والكل يرجو ألا يكون هو. اقترعوا، وسقطت القرعة على النبيِّ الكريم، الذي خرج مغاضبًا، وظنَّ أن ربَّه لن يضيّق عليه، فأُعيدت القرعة ثانية، فوقعتْ عليه، ثمَّ أعيدت ثالثة، فكان هو صاحب القرعة؛ لم يكن بُدٌّ من إلقاء النبي الكريم وسطَ لجَّة البحر، وتقدَّم يونس بن متى إلى البحر الهائج، ليستقبل برُوحه هذا المصيرَ المجهول، واحتمالاتِ الهلاك المنتظَرة.

إنَّه مصير ليس له مخرج، إلا من يكشف السوء، ويُفرِّج الكرب -سبحانه وتعالى-، سقط العبد الصالح في وسط البحر، وقد تعالتْ أمواجُه، وأظلم ماؤه؛ من بُعْد قعره، فابتلعه البحر الهائج المائج، ولم ينتظر طويلًا حتى كان الابتلاع الآخر مِن حوت البحر..

الْتقم الحوت نبيَّ الله يونسَ، ومرَّ النبي الكريم بين فكي الحوت، ثمَّ إلى جوفه، فكانتِ احتمالات الهلكة مضاعفةً متيقَّنة؛ فلا نور هناك ولا هواء، ولا طعام ولا ماء، إنها -وربِّي - كرباتٌ في كرباتٍ، وظلماتٌ في ظلمات.

---

(١) الأصل: أنَّ كل نبي يمكث في مقر دعوته، حتى يؤذن له بالهجرة والمفارقة، فهذا نبيُّنا -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان يتشوَّف للهجرة، وكان أبو بكر يستأذنه في ذلك، فكان - عليه الصلاة والسلام- يقول له: "انتظر؛ فإني أنتظر أن يؤذن لي"، ثم أتى إلى أبي بكر بعدَ ذلك يبشِّره، ويقول له: "إني قد أذن لي بالهجرة".

هنا تذكَّر هذا النبيُّ الصالح أن له ربًّا يسمع النداء، ويغيث الكرب، فهتف واستغاث بكلمات مِن قلبه قبل لسانه؛ إذ نادى وهو مكظوم، ردَّد -عليه الصلاة والسلام-: [لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ].

إنها كلمة التوحيد والعبودية، والتعظيم والاعتراف؛ لا إله إلا أنت، إفراد وإقرار بالعبودية للواحد القهار؛ فهو -سبحانه- المِلك الحق، لا ربَّ غيرُه، ولا معبود سواه، فأعظم ما يُنادي به العبدُ ربَّه، ويتقرَّب إلى بابه، اعتقادُه واعترافه باستحقاق العبودية لله -سبحانه-.ثمَّ نزَّه العبدُ الصالِح ربَّه، وعظَّمه وقدَّسه، فقال (سبحانك(، ثمَّ تواضع لربه، واعترف بخطئه وتقصيره واستعجاله: إني كنت من الظالمين، فاجتمعت في هذه الكلمة المختصَرة أسبابُ إجابة الدعاء؛ قال -ﷺ- : "دعوة ذي النون، إذ دعا وهو في بطن الحوت :(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)فإنه لم يَدْعُ بها رجل مسلِم في شيء قط إلا استجاب الله له) (١).

وبعدَ زفرات التعظيم، ولهجات الاعتراف، لجأ بالدُّعاء والشكاية، كانتْ معية الله، ورحمة الله مع عبْده المكروب الملهوف.

فهذا النِّداء في جوف البحار، سَمِعَه مَن وَسِعَ سمعُه الأصوات، وهذه الحال المكروبة، رآها عالِمُ الخفيات، يعلم ما في البر وما في البحر، وما تسقط مِن ورقة إلا يعلمها، ولا حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

هنا، وبأمرٍ من الله -جل جلالُه- الذي يدبّر الكون بيْن الكاف والنون، توقَّفتْ عواملُ الهلاك لنبي الله -تعالى-؛ فشاء الله -تعالى- أن يعيشَ يونس بن متى في بطن الحوت، كما يعيش الجنين في رَحِم أمه.

ومكث يونس -عليه السلام- أمدًا في هذا المكان المظلِم، فقيل: مكث في بطن الحوت أربعين يومًا، وقيل: عشرين يومًا، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: الْتقمه الحوت ضحًى، ولفظه عشاءً، وكلها أقوال واجتهادات لا يعضدها نصٌّ صحيح، لكن -والعلم عند الله- أنَّه مكث في بطن الحوت مدة ليست بالقصيرة، بدليل تغيُّر جسمِه وبدنه، حين خرج من بطن الحوت.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٥٠٥)، والإمام أحمد رقم (١٤٦٢).

بقي الرجل الصالح في كربته يسبّح ويناجي ويدْعو، فأدركتْه نعمةٌ من ربّه ورحمة، فلفظه الحوت في مكان قفْرٍ خالٍ من الأشجار.

قال الله تعالى: {لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾}(١)

خرج يونس ابن متى من بطن الحوت يلهج بالحمد والثناء، قد كَتَبَ الله له حياةً جديدة، خرَج من بطن الحوت، وحالُه غير الحال التي دخل عليها، خرَج وقد اعتلَّت صحتُه، وتغيَّر بدنه، ورقَّ جلده.

قال ابن مسعود: " خرج كهيئة الفَرْخ، ليس عليه ريش، ثمَّ توالتْ نِعمُ الله ولطفُه على عبده، فأنبَتَ الله عندَه شجرةً من يقطين، شجرة القَرْع، فكان ورقُ تلك الشجرة غطاءً ناعمًا يظلل جسمَه، ويَقيه حرَّ الشمس، وجفافَ الهواء ".

حتى إذا رجعتْ إليه صحتُه، وعادتْ له عافيته، رجع إلى قومه الذين تركهم مغاضبًا لهم، وعاد يتمِّم مهمَّتَه الأولى، فدعاهم ودعاهم، فآمنوا كلُّهم أجمعون، فكانتْ عودته ودعوته بركةً عليهم ونجاة لهم، وكان أهل نينوى هم الأمَّةَ الوحيدة من أمم الأرض التي آمنتْ بنبيِّها دون أن يتخلَّف أحد منها "(٢).

قال الله تعالى: { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ }(٣).

---

(١) سورة القلم (٢٩ /٤٩).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢ /١٧٨ وما بعدها).

(٣) سورة يونس: (١١ /٩٨).

العبرة من قصة يونس– عليه السلام–.

- إنَّ السر في نجاة يونس –عليه السلام– وكشف غمّته قد جاء مبينًا في القرآن: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

والتسبيح هنا ليس حالَ كونه في بطن الحوت فقط؛ وإنما هو حكاية عن حال يونس –عليه السلام– الدائِمة، فحياتُه كلها كانت تسبيحًا وطاعة وعبادة، فلمَّا سبَّح في بطن الحوت، كان تسبيحه في هذا المكان امتدادًا لتسبيحه في حياته السابقة، فعبادة التسبيح، سببٌ لدفع الهمّ، واستدفاع الغَمّ.

- إنَّ الأعمال الصالحات في أيام الرَّخاء تُرافِق العبدَ في شدته، وتكون سببًا بعون الله في إزالة كربته، ورفْع محنته، ومِصداقُ ذلك قول النبي –ﷺ– لابن عباس: "تعرَّف إلى الله في الرخاء، يعرفْك في الشدة".
- رسالةٌ لكل داعية ومربٍّ، ومصلِح وأب، ألا ييْئَسَ ولا يضيق مِن دعوته وتوجيهاته.
- الدعوة والنصيحة والتوجيه ليستْ جولةً واحدة؛ بل هي جولة وجولات، فقد لا يكون للكلمة المشفِقة أثرٌ في مهدها، ولكن مع الصِّدق والصبر، يفتح الله –تعالى– للكلمات الناصحة مغاليقَ القلوب.
- الصبر على البلاء ممَّا يَزيد العبدَ رفعةً عند ربِّه، ومقدارًا بين خلقه.
- وفي قصَّة يونس –عليه السلام–: دليلٌ على القاعدة الأصولية المشهورة، وهي: ارتكاب أخف الضررين لدفْع أعلاهما، فإلقاء بعض أفراد السفينة، وإن كان فيه ضررٌ متحقِّق، إلا أنَّ فيه دفعًا لضرر أعلى، وهو هلاكهم جميعًا.

قصة سيدنا موسى عليه السلام

بعد وفاة نبي الله يوسف عليه السلام، حكم مصر أحد الطغاة المستكبرين في الأرض،

وقد حكى القرآن الكريم قصة نبي الله موسى، الذي ولد وتربى في مصر، ثمَّ اصطفاه الله بالرسالة ليردّ الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله الواحد من جديد.

قال الله تعالى:

{طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ } (١)

لقد استعلى فرعون مصر على رعيته وأذاقهم الذل والهوان، بل إنه علا حتى على ربه- والعياذ بالله - وأدّعى الألوهية، وقال أنا ربكم الأعلى، فكان طاغية زمانه، بل وجعل أهل مصر طبقات يستعبد بعضهم البعض، مع أن المفروض في شرع الله أن الرعية كلهم سواء.

---

(١) سورة القصص (٢٠ /١:٦).

ومصر في ذلك العصر كانت مسكونة بالقبط (أي: المصري القديم) وليس النصارى حيث إنه لما احتل الرومان مصر كانوا يدينون بالمسيحية، ومن هنا وقع هذا الخلط عند البعض.

وبني إسرائيل وهم أبناء يعقوب عليه السلام هاجروا من فلسطين إلى مصر في زمن يوسف ـ عليه السلام ـ حيث كان يتحكم في مصر في تلك الفترة فعاش بنو إسرائيل كالملوك وتناسلوا وتكاثروا.

وهنا لنا وقفة مع إعجاز القرآن الكريم.

في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ تكلم القرآن عن حاكم مصر ملك، وفي قصة موسى عليه السلام تكلم عن حاكم مصر فرعون وذلك لأنه؛ في أيام يوسف عليه السلام كان الذي يحكم مصر هم ملوك الرعاة ولكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة.

فبعد وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ جاء فرعون الطاغية وحكم مصر فأذلهم وكان بنو إسرائيل ينتظرون الخلاص منه.

ولقد رأى فرعون في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة، والحزاة (١)، والسحرة، وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر. على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان من بني إسرائيل وترك النساء والفتيات وكان هذا بلاء عظيم (٢).

ميلاد موسى –عليه السلام – ونشأته:

كان هارون قد ولد وكانت أم موسى ـ عليه السلام ـ حاملًا وأخفت حملها خوفًا عليه من القتل، إلى أن ولدته أمه ترضعه في السر، ثمَّ جاءت عليها ليلة مباركة أوحى الله تعالى إليها فيها أن أرضعيه وألقيه في اليم.

---

(١) الحزاة جمع حاز: وهو كالكاهن، يحرز الأشياء ويقدرها بظنه. ويقال للذي ينظر في النجوم ويتكهن.

(٢) ينظر: البداية والنهاية (١ /٢٧٤).

قال الله تعالى:

{وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١

۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ

مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ
بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن
تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ
مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ
لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ
إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ }

فقد فصل القرآن نشأته في بيت فرعون، وما كان في شبابه، وتركه مصر إلى أرض مدين وزواجه من أحد ابنتي شعيب وإقامته هناك عشر سنين، ثمَّ عودته إلى مصر مرة أخرى.

نزول الوحي على موسى –عليه السلام –.

قال الله تعالى: { فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ }(١) .

{فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ }(٢).

{وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا }(٣) .

يبلغ الحق –سبحانه – سيدنا محمد –ﷺ– بأنه كلم سيدنا موسى– عليه السلام –بلا واسطة.

فكان حديث الله الأول له:

{إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا

---

(١) النمل (١٩ / ٨،٩).

(٢) القصص (٢٠ /٣٠).

(٣) النساء (٦ /١٦٤).

مَّـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾}(١)

لقد تحققت نبوة موسى ـ عليه السلام ـ واطمأنت نفسه لنداء الله عزَّ وجلَّ له وعلم أنه في معية الله تعالى.

وكأن الحق يعلمنا بأن ما دمنا في معية من لا يدركه الأبصار فلن تدركنا الأبصار. (أي آمنين)

ثمَّ تثبيت قلب موسى ـ عليه السلام ـ وتدريبه في مواجهة فرعون

﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ (٢)

وضع موسى ـ عليه السلام ـ يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالقمر، وضع يده على قلبه كما أمره الله تعالى فذهب خوفه تمامًا

ثمَّ صدر الأمر منه تعالى لموسى – عليه السلام –أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله الواحد.

قال الله تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن

(١) طه (١٦ / ١٢: ٢٣).

(٢) القصص (٢٠ /٣٢).

يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ }(١)

شعور موسى عليه السلام بعظم تحمل المسئولية

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ وَلَقَدْ ﴿٣٦﴾ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾(٢)

فطلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه أن يجمع قواه ليفهموه والتماس العون من الله عزَّ وجلَّ بمشاركة أخيه؛ ليعينه على هذه المهمة التي اصطفاه الله تعالى لها

---

(١) القصص (٢٠ /٣٥:٣٣).

(٢) طه (١٦ / ٤٢:٢٥).

فقال رسول الله (ﷺ): {إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه} (١)

فكأنه يقول: أجب- يا إلهي- دعائي بأن تشرح صدري.. وتشد بأخي هارون أزري، كي نسبحك تسبيحًا كثيرًا، ونذكرك ذكرًا كثيرًا، إنك- سبحانك- كنت وما زلت بنا بصيرًا، لا يخفى عليك شيء من أمرنا أو من أمر خلقك، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك.

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه، وأطال الابتهال في بسط حاجته، وكشف ضعفه.. فماذا كانت النتيجة؟

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه، وحقق له مطالبه، وذكره ببعض مننه عليه، تذكير منه- سبحانه- لموسى، بجانب من النعم التي أنعم بها عليه، حتى يزداد ثباتًا وثقة بوعد الله- تعالى

ثمَّ كان الأمر بالجهر بالدعوة **قال الله تعالى**:

{ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود رقم (٢٩٣٢)، وأحمد (٢٤٤٥٩)، وأبو يعلى (٤٤٣٩)، وابن حبان (٤٤٩٤)، والبيهقي (٢٠٨١٦)

شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ}(١).

أي: فأتيا فرعون، وأدخلا عليه داره أو مكان سلطانه، وقولا له بلا خوف أو وجل إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ الذي خلقك فسواك فعدلك.

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما، ولإحقاق الحق من أول الأمر، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين، لدعوته إلى الدين الحق، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى التخلي عن الكفر والطغيان. وأنهما لم يأتياه بدافع شخصي منهما وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين. ثمَّ قولا لفرعون أطلق سراح بني إسرائيل، ودعهم يعيشون أحرارًا في دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

وقد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا، وتؤيد مدعانا، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله- تعالى- إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول في الدين الحق.

قولا له- أيضًا- السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله- تعالى- وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها، فهي قد بدأت بالأساس الذي تقوم عليه كل رسالة سماوية إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ

(١) طه (١٦/ ٤٩: ٤٢).

وربعت بالترغيب والاستمالة وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى. ثمَّ ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١).

وقد حكى القرآن الكريم في أكثر من موضع قصة نبي الله موسى، الأعراف، يونس، هود، طه، الشعراء، النمل، القصص، غافر، الزخرف، الدخان.

فما كان من فرعون إلا الصدود والأعراض، بل والتهديد بالسجن، ورميه بالسحر.

قال الله تعالى: {قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}(٢).

ولأن الله – عزَّ وجلَّ مؤيد رسله بالمعجزات الباهرات، فكانت معجزة موسى – عليه السلام – من جنس ما برع فيه قومه حينئذ وهو السحر.

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط د/ محمد سيد طنطاوي (٩ /١١١) دار نهضة مصر ، ط : الأولى ١٩٩٨م .

(٢) الشعراء (١٨ /٢٩:٣٧).

لقاء موسى –على السلام مع السحرة:

حكاها القرآن في أكثر من موضع، منها: الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء.

قال الله تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ }(١).

فقد حكت الآيات تحذير موسى عليه السلام لقومه، لكنهم أبوا واختاروا المبارزة، فجاء الموعد المحدد للقاء، ثمَّ حكى القرآن بعد ذلك أن موسى- عليه السلام- ترك فرصة البدء لهم، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم، فإذا حبالهم وعصيهم التي طرحوها، جعلت موسى- لشدة اهتزازها واضطرابها- يخيل إليه من شدة سحرهم، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمّا غفيرًا، وجمعًا كبيرًا- أي السحرة- فألقى كل منهم عصا وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حيات، يركب بعضها بعضًا. فأخفى موسى- عليه السلام- في نفسه شيئًا من الخوف، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عند ما رأى هذا الأمر الهائل من السحر، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر في نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله.

وهنا ثبته الله- تعالى- وقواه، وأوحى إليه- سبحانه- بقوله: لا تخف يا موسى مما فعلوه، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر. أنت الأعلى؛ لأنَّ معك الحق ومعهم الباطل.

---

(١) طه (١٦ / ٥٤:٧٦).

وألق يا موسى ما في يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخييل، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى.

قال ابن كثير: وذلك أنها صارت تنينًا هائلًا- أي: حية عظيمة- ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهارًا نهارًا.. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون، ولأنَّ السحرة خبرة بفنون السحر فعلموا يقينا أنه حق ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول له كن فيكون فعند ذلك وقعوا سجدًا لله، وقالوا ءامنا برب العالمين، رب موسى وهارون (١).

وهكذا كان سحرة فرعون أول من ءامنوا بموسى، وبالرغم من توعدهم بالعذاب الأليم، إلا أنهم تمسكوا بإيمانهم وخضوعهم لله رب العالمين.

قال الله تعالى:

{فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} (٢)

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١ /٣١١)، تفسير ابن كثير (٥ /٢٦٦).

(٢) يونس (١١ /٨٣: ٨٧).

فما ءامن لموسى إلا فئة قليلة من الشباب على خوف من فرعون وأشراف مصر، فقال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم:

يا قوم إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ حق الإيمان، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده اعتمدوا، وبجنابه وحده تمسكوا، فإن من توكل على الله واتجه إليه، كان الله معه بنصره وتأييده. فَقالُوا مجيبين لنصيحة نبيهم عَلَى اللَّهِ وحده لا على غيره تَوَكَّلْنا واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه. رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل؛ لأننا لو كنا على الحق- في زعمهم- لما تمكنوا منا، ولما انتصروا علينا (١).

ثمَّ ظل موسى مع من آمن به في انتظار وعد الله له بالنصر المبين والاستخلاف في الأرض.

قال الله تعالى:

{قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾} (٢)

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥ /١٦٨).

(٢) الأعراف (٩ /١١٨، ١١٩).

موقف فرعون من موسى بعد انتشار دينه وزيادة أتباعه.

قال الله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ

مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ } (١).

(١) غافر (٢٣ /٤٦:٢٦).

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئِه لموسى- عليه السلام-، قيض الله- تعالى- لموسى رجلًا مؤمنًا من آل فرعون كان يخفي إيمانه. هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعًا حكيمًا مؤثرًا، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى. ثمَّ أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتغير. إنَّ سنة الله- تعالى- قد اقتضت أنه- سبحانه- لا يهدي إلى الحق والصواب، من كان مسرفًا في أموره، متجاوزًا الحدود التي شرعها الله- تعالى- ومن كان كذابًا في إخباره عن الله- تعالى-، ولو كان موسى مسرفًا أو كذابًا، لما أيده الله- تعالى- بالمعجزات الباهرة، وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه، فنجى المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب (١).

واستمرت معجزات الله –تعالى –إلى فرعون وملئِه، لكنها زادتهم طغيانًا على طغيانهم.

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ

(١) ينظر: التفسير الوسيط (١٢ /٢٨٦).

عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾}(١).

فقد تدخلت قوة الله سبحانه وتعالى فشدد عليهم لعلهم يرجعون إلى الله ويطلقون سراح بني إسرائيل، لكنهم ما إن ينكشف البلاء حتى ينقضوا عهدهم ويعودون إلى ما كانوا عليه.

ومع هذا كله فقد حاول فرعون بشتى الطرق صرف الناس عن كلام موسى.

فأمر ببناء صرح إلى السماء لعله يقف على حقيقة إله موسى – سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا –.

قال الله تعالى:

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ }(٢).

فقد استخف بعقول قومه فأطاعوه فأصابهم ما أصابه.

---

(١) الأعراف (٩ / ١٣٧:١٢٥).

(٢) القصص(٢٠ /٣٨: ٣٩).

ولقد أكدت الأبحاث العلمية أن حجارة الأهرامات قد تم صبّها من الطين العادي، وهذا ما أشار إليه القرآن على لسان فرعون {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا}، ولكن العلماء يؤكدون أن الأهرامات لم يقم ببنائها فرعون موسى، فنرجو إيضاح هذه المسألة.

ونقول: لقد حيَّرت الأهرامات كثيراً من الباحثين طيلة قرون، إذ كيف تمكَّن بشر من حمل حجارة تزن آلاف الكيلو غرامات ونقلها لارتفاع أكثر من ١٤٠ متراً؟ وبعد بحث طويلة أجراه أحد العلماء الفرنسيين اقترح أن هذه الحجارة قد صُبَّت من الطين في قوالب خشبية، وبعد سنوات قام أحد العلماء الأمريكيين بالتأكد من صدق هذه الفرضية باستخدام المجهر الإلكتروني وتحليل نماذج من حجارة الأهرامات.

إذاً النتيجة التي خرج بها العلماء هي أن تقنيَّة صب الحجارة من طين كانت سائدة زمن الفراعنة، واستخدموها خلال آلاف السنوات في بناء الأهرامات والأبراج والصروح. وهذه التقنية كشفها القرآن من خلال آية جاءت على لسان فرعون يطلب من وزيره هامان أن يوقد له النار على الطين ليبني صرحاً (بناء مرتفعاً): (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا).

وهذه الآية لا تدل بالضرورة إلى أن فرعون موسى (وهو رمسيس الثاني حسب أصح الأقوال)، هو الذي بنى الأهرامات، بل تشير الآية إلى الآلية الهندسية التي كانت معروفة في ذلك الزمن وهي مزج الحجارة الكلسية بالماء (لتشكل الطين) وتسخينها لدرجة حرارة محددة، ومن ثم وضعها في قوالب خشبية وصب الحجارة المطلوبة في أماكنها، وليس حملها ورفعها. (١)

(1) ينظر : موقع أسرار الإعجاز العلمي د/ عبد الدائم الكحل
https://www.kaheel٧.com/ar/index.php/-٠٣-٢٠١٣-١١٠٣/٠٨-٣١-١٨-٠٤-١٢-٢٠١٢
١٤-٢٦-١٨-٢٠

قال الله تعالى: {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ }(١).

هلاك فرعون وقومه ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين:

لما ضاق السبيل على موسى ومن معه لجأ إلى ربه بالدعاء على القوم الظالمين، فاستجاب الله له، وأغرق الفاسقين.

قال الله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ }(٢).

وأوحى الله إلى موسى -عليه السلام- أن يخرج من مصر مع بني إسرائيل ليلًا إلى ساحل البحر شرقًا، إلى الأرض المقدسة في فلسطين. فخرج فرعون وجنوده يتبعون خُطى موسى وقومه. ويصف

---

(١) الزخرف (٢٤ / ٥٦: ٥٠).

(٢) يونس (١١ / ٨٩، ٨٨).

القرآن الكريم خروجهم هذا هو الأخير من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم تعجيلًا بالجزاء على الظلم والبطر والبغي، وتحقق المستحيل -في منطق الناس- ووقعت المعجزة، إذا أراد الله شيئًا أن يقول له كن فيكون، فلا يعطل قانون الأشياء إلا خالقها.

قال الله تعالى: { وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ } (١).

وأوحى الله -عزَّ وجلَّ- إلى موسى -عليه السلام -أن يترك البحر على حاله ساكنًا، وبشّره بأن فرعون وجنوده مغرقين فيه.

قال الله تعالى: {فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

(١) الشعراء (١٨ /٦٧:٥١).

وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾} (١).

فما إن صار فرعون وجنوده في منتصف البحر حتى أصدر الله تعالى أمره للبحر فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه.

ولما عاين فرعون الغرق ولم يعد يملك النجاة سقطت عنه كل الأقنعة الزائفة وتضاءل فلم يكتف بأن يعلم إيمانه، بل والاستسلام أيضًا (وأنا من المسلمين).

ولكن انتهى الأمر ولا نجاة لك، بل سينجو جسدك لتكون لمن يأتي من بعدك آية، ولفظت الأمواج جثته إلى الشاطئ (٢).

قال الله تعالى: {وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾}(٣).

نحن نقص عليك يا محمد -ﷺ- من أخبار القرى التي ظلمت نفسها بالشرك، للعظة والاعتبار وأن نصر الله آت لا محالة.

---

(١) الدخان (٢٤ /٢٣:٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦ /٦٠٠)، تفسير ابن كثير (٤ /٢٥٤).

(٣) يونس (١١ /٩٢:٩٠).

قال الله تعالى: { وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ } (١).

وهكذا كانت نهاية فرعون وتمكن الله تعالى للمؤمنين في الأرض.

قال الله تعالى: { وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ }(٢)

---

(١) هود (١٢ /١٠١: ٩٦).

(٢) الأعراف (٩ / ١٣٧).

موقف بني إسرائيل من إله موسى:

لقد كان إيمان بني إسرائيل بموسى إيمان مصلحة، فقد علموا أن موسى – عليه السلام – النبي المخلص لهم من عذاب فرعون وأقباط مصر، فلما نصرهم الله عادوا إلى ضلالهم وعبادة الأوثان من جديد.

قال الله تعالى:{وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١ } (١).

فإن القوم لم يكونوا على استعداد للمهمة الكبرى، مهمة الخلافة في الأرض بدين الله، فكان لا بدَّ من رسالة مفصلة لتربية هذه الأمة وإعدادها لما هم مقبلون عليه، ولذلك كانت مواعدة الله تعالى لعبده موسى– عليه السلام – ليلقاه. واستخلف عليهم أخاه هارون عليه السلام، وأوصاه أن يصلح أمور القوم ويمنعهم عن أي فساد.

اصطفاء الله تعالى لموسى –عليه السلام –.

قال الله تعالى:{وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ

(١) الأعراف (٩ /١٤١:١٣٨).

سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ } (١).

لقد حكى القرآن ما كان من موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه، –ثمَّ بين– سبحانه– ما حدث للجبل عند التجلي فقال: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا فحين ظهر نوره– سبحانه– للجبل على الوجه اللائق بجلاله جَعَلَهُ دَكًّا فنبه– سبحانه– بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته ما دام لم يستقر عند هذا التجلي، فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر.

وفي ذلك تسلية لموسى– عليه السلام– وتلطف معه في الخطاب، وتكريم له، وتعظيم لأمر الرؤية، وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته.

فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أي: فلما أفاق موسى من غشيته، وعاد إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يخر مغشيا عليه، قال تعظيما لأمر الله سُبْحانَكَ، تنزيهًا لك من مشابهة خلقك في شيء تُبْتُ إِلَيْكَ من الإقدام على السؤال بغير إذن وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بعظمتك وجلالك، أو أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد.

ثمَّ قال الله –تعالى– لموسى إني اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين في زمانك.

---

(١) الأعراف (٩ /١٤٥:١٤٢).

فخذ يا موسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والمناجاة، وكن من الراسخين في الشكر على ما أنعمت به عليك، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك.

وقد كتبنا في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح، ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيبًا وترهيبًا، فخذها بقوة، وأمر قومك بأن يأخذوا بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل؛ لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة، ونفوسهم منحرفة (١).

وهكذا كان كلام الله لموسى عليه السلام، فسبحانه لا تدركه الأبصار.

قال الله تعالى:

{لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ}(٢).

حتى حديثه كان من وراء حجاب، **قال الله تعالى:** {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾}(٣).

وكشأن الأنبياء في علو الهمة وسرعة الاستجابة والامتثال لأوامر الله، فقد تعجل موسى للعودة إلى قومه لإبلاغهم بما اختصوا به من أحكام وتشريعات، فأخبره ربه بما كان من قومه وعبادتهم للعجل.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣ /٤٢٥) ، التفسير الوسيط (٥ / ٣٧٥).

(٢) الأنعام (٨ /١٠٣).

(٣) الشورى (٢٤ / ٥١)

قال الله تعالى: {وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾}(١).

عودة موسى من لقاء ربه:

قال الله تعالى:{فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ } (٢).

رجع موسى– عليه السلام – من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة، وقلبه يغلي بالغضب والحزن الشديد وسألهم عن خلافهم للوعد (حيث أوصاهم قبل أن يذهب لميقات ربه وقال لهم: اسلكوا طريق هارون عليه السلام واستمعوا لأوامره حتى أرجع، وهو ليس فردًا عاديًّا ولكن الله أشركه في الرسالة معي، فهو الذي سيخلفني فيكم)، قالوا ما أخلفنا وعدك باختيارنا، ثمَّ يعتذرون ويخبرونه عما كان بأيديهم من حلي قوم فرعون الذي كان معهم قبل خروجهم من مصر قد استعاروه لعرس وغيره، فقال لهم هارون ــ عليه السلام ــ لا يحل لكم الذهب لأنه ملك قوم فرعون، ولكنهم لا

(١) طه (١٦ /٨٣: ٨٥).

(٢) طه (١٨ /٨٩:٨٦).

تستطيعون إرجاعه، ولا يحل لكم فأتوا به واقذفوه في النار، ففعلوا فأخذه السامري وصنع منها تمثالًا عجلًا، وكان السامري رجل أبصر بما لم يبصروا به، فصنعه لهم بدقة، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتًا كصوت خوار البقر (١).

ثمَّ ألقى موسى الألواح والتفت إلى أخيه هارون معاتبًا.

قال الله تعالى: { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى ﴿٩٦﴾ نَفْسِى قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ } (٢).

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان السامري رجلًا من أهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، وكان من قرية سامرا. قال بصرت بما لم يبصروا به حيث رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨ /٣٤٩)، تفسير ابن كثير (٥ /٢٧٣)، البداية والنهاية (١ /٣٢٢).

(٢) طه (١٦ /٩٨:٩٥).

فاتجه إلى العجل وألقاه في النار ولم يكتف بصهره أمام عيون القوم المبهوتين وإنما نسفه في البحر نسفًا فحول العجل المعبود من دون الله أمام عيون القوم المفتونين إلى رماد يتطاير في البحر، وارتفع صوت موسى (عليه السلام): - إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا (١).

أما بنو إسرائيل فقد أعلنوا توبتهم لله رب العالمين لما أيقنوا بضلالهم.

قال الله تعالى: { وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٢).

ثمَّ دعا موسى ربه لنفسه وأخيه، وبيّن لبني إسرائيل عاقبة ما فعلوا وأن الله يقبل من تاب وأناب.

قال الله تعالى: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ } (٣).

ولما سكت عن موسى- عليه السلام- وهدأ من الغضب أخذ الألواح وعرضها على بني إسرائيل ليهديهم من الضلالة، معلمًا إياهم ما اختصوا به من أحكام وتشريعات، ليخضعوا لأوامر الله -عزَّ وجلَّ-.

---

(١) ينظر: تفسر الطبري (١٨ / ٣٦٨)، تفسير ابن كثير (٥ / ٢٧٥).

(٢) الأعراف (٩ / ١٤٩).

(٣) الأعراف (٩/١٥٣:١٥١).

قال الله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } (١).

وتتوالى أحداث قصة موسى- عليه السلام فبعد كل ما أنعم الله به عليهم من النعم، وما اختصوا به الفضل، تشككوا في أمره نبيهم وما بين أيديهم من الألواح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢).

إنَّ موسى لما أتى بني إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا ما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم، وأبوا أن يقبلوا ذلك، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رؤوسهم مقدار عسكرهم، فلما نظروا إليه فوق رؤوسهم خروا ساجدين، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفًا من أن يسقط فوقهم إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم- عليه السلام.

قال الله تعالى: {وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }(٣).

فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا خوفًا لا خشوع.

---

(١) الأعراف (٩ /١٥٤).

(٢) هود (١٢ /١١٠، ١١١).

(٣) الأعراف (٩ /١٧١).

ولم يكتفوا بهذا فحسب، بل استمروا في عنادهم وطغيانهم، فما كان من موسى – عليه السلام – إلا أن اختار سبعين (٧٠) رجلًا منهم لميقات الله، لكنهم جحدوا وطلبوا رؤية الله –تعالى الله عما يقولون–

قال الله تعالى: { وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ }(١).

فلما أخذتهم الرجفة وأهلكتهم الصاعقة، توجه موسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه بالدعاء فهو خير ما يعتصم به، فرد الله إليهم الحياة من جديد عسى أن يكونوا من المفلحين.

قال الله تعالى: { وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ

(١) الأعراف (٩ / ١٥٥، ١٥٦).

ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ { (١).

فتأمل ما أنعم الله به عليهم من النعم، أنجاهم من آل فرعون، شق لهم البحر، أنزل لهم الألواح، تاب عليهم بعد ما عبدوا العجل، رفع الجبل فوقهم كأنه ظله، أحياهم بعد ما أماتهم، وظللهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، والمن مادة يميل طعمها إلى الحلاوة وتفرزها بعض أشجار الفاكهة، وساق إليهم السلوى من أنواع الطيور يقال إنه (السمان) ودلهم على طريق بيت المقدس، ولكن مع ذلك لم يؤمنوا، بل حين اشتد بهم الظمأ إلى الماء ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من المياه (٢).

قال الله تعالى:

{ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }(٣).

ومع ذلك كفروا وعصوا، وقالوا نريد مزيد خير وفضل.

---

(١) البقرة (١ / ٥٦:٥٩).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١ /٦٦).

(٣) البقرة (١ / ٦٠).

قال الله تعالى:

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ }(١).

فلقد أكرمهم ربهم وأخذ عليهم الميثاق، ولكن الجحود طبع فيهم.

خروج نقباء بني إسرائيل إلى بيت المقدس.

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ

(١) البقرة (١ /٦١).

ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ }(١).

وكان الله تعالى قد أمر موسى- عليه السلام -أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء بأن يقاتلوا ويدخلوا الأرض المقدسة وطاعة أوامر الله – عزَّ وجلَّ – لكن شتَّان أن يكون هذا فقد عارضوا نبيهم وخالفوا أمر ربهم.

وملخص ما جاء في هذه القصة أن أوحى الله- تعالى- إلى موسى أن يختار من قومه اثني عشر نقيبًا، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التي كان يسكنها الكنعانيون حينئذ. ليتحسسوا أحوال سكانها، وليعرفوا شيئًا من أخبارهم.

ولقد نفذ موسى- عليه السلام- ما أمره به ربه- سبحانه-، وكان مما قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة: «لا تخبروا أحدًا سواي عما ترونه».

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة، واطلعوا على أحوال سكانها. وجدوا منهم قوة عظيمة، وأجسامًا ضخمة.. فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له- وهو في جماعة من بنى إسرائيل-: قد جئنا إلى الأرض التي بعثتنا إليها، فإذا هي في الحقيقة تدر لبنًا وعسلًا، وهذا شيء من ثمارها، غير أن الساكنين فيها أقوياء، ومدينتهم حصينة. وأخذ كل نقيب منهم ينهي سبطه عن القتال.

إلا اثنين منهم، فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى- عليه السلام- وبقتال الكنعانيين معه. ولكن بني إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة وأصروا على عدم الجهاد، ورفعوا أصواتهم بالبكاء، وقالوا: يا ليتنا متنا في مصر أو في هذه البرية. وحاول موسى- عليه السلام- أن يصدهم عما تردوا فيه من جبن وعصيان، وأن يحملهم على قتال الجبارين، ولكنهم عموا وصموا.

---

(١) المائدة (٦ /١٣،١٢).

فأوحى الله- تعالى- إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم (١).

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ }(٢).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣ /٦٥)

(٢) المائدة (٦ / ٢٠: ٢٦).

قصة بقرة بني إسرائيل:

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }(١).

(١) البقرة (١ /٦٧: ٧٣).

روى المفسرون أنه كان في بنى إسرائيل رجل غني، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثمَّ أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى- عليه السلام- يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى- عليه السلام- فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي، فدعا موسى ربه فأوحى الله- تعالى- إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. دهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا؟ فطبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون عن حالها ولونها وصفاتها.

وقد أمرهم الله- تعالى- بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفي أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه- سبحانه- يقول لهم: إنَّ هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقي والعمل والذبح (١).

وبعد جدال طويل امتثلوا وذبحوا البقرة وعرفوا القاتل وأخذوا الدية منه.

(١)ينظر: التفسير الوسيط (١/ ١٦٢)، البداية والنهاية (١ /٣٤١).

قصة موسى والغلام.

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا

﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾{(١).

فقد روي أن موسى- عليه السلام - قام خطيبًا في بني إسرائيل فلما انتهى من خطبته فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، إذ ظنَّ أنه ليس في الأرض من هو أعلم منه.

فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إلى الله، قيل: بلى، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: إنَّ لي عبدًا يجمع البحرين على الساحل عند صخره هناك هو أعلم منك.

قال موسى لربه فكيف السبيل إليه قال تأخذ معك حوتًا؛ أي سمكة في سلة فحيثما فقدت السمكة تجده هناك.

---

(١) الكهف (١٥ /١٦:٨٣).

اشتاقت نفس موسى الكريمة إلى زيادة العلم وانعقدت نيته على الرحيل لمصاحبة هذا العبد الصالح العالم، فكان لقاؤه مع الخضر (١).

الغاية من القصة الرضا بالقضاء والقدر والتسليم لأمر الله تعالى وأمر الله كله خير

فنجد موسى عليه السلام مرسل لتبليغ الرسالة – افعل ولا تفعل.

أما الخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم لله الذي قد تغيب نتائجه على سُلم العقل، فإذا أظهرت حكمة الغيب فيه آمن به العقل ولله في ذلك حكم، لكل وجهة هو موليها وهي الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ في النهاية.

قصة قارون:

قال الله تعالى: { إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨ /٥٥)، تفسير ابن كثير (٥ /١٥٦)، البداية والنهاية (١/٣٤٣).

حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ }(١).

كان قارون أيضًا مما كذب بموسى عليه السلام، واغتر بثروته فجعله الله تعالى عبرة لكل من تمنى أن يكون مثله، لقد تمادى قارون في بغيه، ولم يستمع لنصح الناصحين، فغيبناه في الأرض هو وداره، وأذهبناهما فيها إذهابًا تامًا.

فما كان لقارون من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله، بأن تدفعه عنه، أو ترحمه من عذاب الله.

(١) القصص (٢٠ /٧٦:٨٣).

بعض الآثار الواردة فيما ورد عن موسى عليه السلام:

عن قتاده أن موسى- عليه السلام – قال لربه ([1]):

- قال رب إني لأجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اجعلهم أمتي، قال تلك أمة محمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح أمة هم الآخرون في الحق سابقون في دخول الجنة قال رب اجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثمَّ لم يعملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة فاجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح أمة حيلهم في صدورهم بقراءتهم، وكان من قلبهم يقرءون كتابهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وإنَّ الله أعطاهم من الحفظ شيئًا لم يعطه أحد من الأمم فاجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقه فقبلت منه بعث الله نملًا أكلها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وإن أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم قال رب فاجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.
- قال رب إني لأجد في الألواح هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي، قال تلك أمة أحمد.

وفي هذا دلالة واضحة على التشابه بين أصل الدين في اليهودية والإسلام، فالجوهر واحد وإن اختلفت المسميات والفروع.

([1]) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧ /٣٩) دار الكتب العلمية – بيروت ،ط: الأولى ، ١٤٠٥هـ.

قال الله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }(١).

وفاة موسى عليه السلام:

أورد الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه – (أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال: أي رب؟

ثمَّ ماذا؟ قال: الموت. قال: فالآن. قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله: لو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر (٢).

---

(١) الأعراف (٩ /١٥٧،١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٧).

العبرة من قصة موسي –عليه السلام–:

- من لجأ إلى الله واعتصم به أواه ونجاه، كما فعلت أم موسى عليهما السلام.
- الأخوة هم سند المرء وقوته الحقيقة، فأخت موسى هي من اقتفت أثره وردته إلى أمه، وأخوه هارون هم من تحمل معه أعباء الدعوة إلى الله.
- كشف حقيقة اليهود ليكون عبرة للناس في كل زمان ومكان، فهم من خانوا العهود وقتلوا الأنبياء بغير حق.
- بيان مكانة مصر القديمة وحضارتها العظيمة حتى أنها باتت سرًّا من أسرار الكون. فقد اكتشف العلماء أن الحجارة التي بني بها الأهرامات غير عادية فهي مصنوعة صناعة يدوية ووجدوا فقاعات هواء أيضًا، وقيل إنَّ الفراعنة قاموا ببناء الأهرامات من خلال صب الطين في قوالب خشبية مع استخدام الحرارة فهي تجمده بسرعة وتزيده صعوبة.
- مهما بلغ المرء من القوة والعلم فهو بحاجة إلى رب قدير.
- العلم ليس وقف على الأنبياء وحدهم، فالخضر وهو العبد الصالح كان أعلم بالله من موسى (عليه السلام)، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

قصة يوشع عليه السلام

ابتعث الله جل وعلا بعد موسى- عليه السلام - يوشع بن نون بن افراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيًّا وأمره بالمسير إلى أريحاء لحرب من فيها من الجبارين، وقد حبس الله له الشمس في فتح بيت المقدس.

إنه هو الفتي الذي صاحب موسى للقاء الخضر، كان قائدًا لجيش يتجه نحو الأرض التي أمرهم الله بدخولها، خرج يوشع بن نون ببني إسرائيل من التيه بعد أربعين سنة وقصد بهم بيت المقدس، كانت هذه الأربعين سنة –كما يقول العلماء –كفيلة بأن يموت فيها جميع من خرج مع موسى عليه السلام من مصر، ويبقي جيل جديد تربى على أيادي موسى وهارون ويوشع بن نون، جيل يقيم الصلاة ويؤتي الذكاة ويؤمن بالله ورسله (١).

قطع بهم نهر الأردن إلى أريحا، وكانت من أحسن المدائن سور أو أعلاها قصورًا وأكثرها أهلًا، فحاصرها ستة أشهر، وفي المعركة الأخيرة التي بدأت يوم الجمعة، أوشك اليهود على تحقيق الانتصار لكن الشمس قاربت على المغيب، وكان اليهود لا يعملون ولا يحاربون يوم السبت.

فخشي يوشع بن نون أن يذهب النصر فنظر يوشع إلى الشمس وقال: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم أحبسها عليّ فتوقفت الشمس مكانها، وظلت واقفة إلى أن فتح بيت المقدس ودخله، إن هذا زمن المعجزات التي وقعت لبني إسرائيل، فنجد معجزة فلق البحر، ومعجزة دك الجبل، وكذلك حبس الشمس وصدر الأمر الإلهي لبني إسرائيل أن يدخلوا المدينة سجدًا..... أي راكعين مطأطئين رؤوسهم شاكرين الله عزَّ وجلَّ ما منَّ ربه عليهم من الفتح. أمروا أن يقولوا حال دخولهم: (حطه) بمعنى: حط عنا خطايانا التي سلفت، وجنبنا الذي تقدم من آبائنا، إلا أن بني إسرائيل خالفت ما أمرت به قولًا وفعلًا (٢).

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١ /٤٣٥).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (١/٢٧٧:٢٧٢).

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك **قال الله تعالى**:

{ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }(١)

فدخلوا الباب متعالين متكبرين رافعي رؤوسهم، وبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم... فأصابهم عذاب من الله بما ظلموا.

كانت جريمة الآباء هي الذل، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء.

وعاش بنو إسرائيل في فلسطين وكان يوشع عليه السلام ملكًا ونبيًّا عليهم وبعد وفاته، وهكذا فقد حكمهم الملوك وأدار شئون الدين الأنبياء، وانفصل الدين عن

الملك.

كان الملك في ذرية يهوذا بن يعقوب (عليهم السلام)، وكانت النبوة في ذرية لاوز بن يعقوب (عليه السلام) (٢).

---

(١) سورة البقرة (١/٥٩:٥٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١ / ٢٧٥،٢٧٤)

قصة سيدنا إلياس عليه السلام

قال الله تعالى:

{ لله مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ}(١)

لله ما في السموات والأرض ملكًا، وعبيدًا، وإيجادًا، وتقديرًا، فلا يستحق العبادة أحدًا غيره

وقد جاء في الحديث القدسي:

(إنَّ السماء والأرض بالنسبة لملك الله تعالى كحلقه ألقاها ملق في خلاة).

فلا تظن أن ملك الله مجرد هذه المخلوقات التي نعلمها رغم ما توصل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية.

فالله سبحانه وتعالى هو الغني المطلق؛ لأنه خلق هذا الكون وهو غني عنه ثمَّ أعطاه لعبيده وجعله في خدمتهم، فله الحمد والثناء على كل حال.

قال الله تعالى:

{ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا

(١) سورة لقمان (٢٦/٢٢).

تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ}(١).

فلو أن أشجار الأرض كلها بريت أقلامًا والبحر مدادًا لها، ويمد بسبعة أبحر أخرى، وكتب بتلك الأقلام ما نفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد، إنَّ الله عزيز في انتقامه ممن أشرك به، حكيم في تدبير خلقه.

فما خلقكم أيها الناس ولا بعثكم يوم القيامة في السهولة واليسر إلا كخلق نفس واحدة وبعثها إن الله سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم، لا يخفي عليه منها بشيء، وسيجازيكم عليها.

وذلك كله من عظيم قدرتي، لتعلموا وتقروا أن الله هو الحق في ذاته وصفاته

وأفعاله، وإن مايدعون من دونه الباطل، وأن الله هو العلي بذاته وقدره وقهره فوق جميع مخلوقاته، الكبير على كل شيء، وكل ماعداه خاضع له، فهو وحده المستحق أن يعبد دون من سواه(٢).

إلياس أحد أنبياء الله تعالى إلى بني إسرائيل وواحد من الأنبياء الذين أتي في القرآن الكريم ذكرهم.

قال الله تعالى:

{ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي

(١) سورة لقمان (٢٢ /٣٠:٢٧).

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي (١٩ / ١١٧١٩).

ٱلۡأَٰخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ }(١)

فهذه الآيات هي كل ما ذكره الله تعالى في قصة إلياس؛ لذلك اختلف المؤرخون في نسبه وفي القوم الذين أرسل إليهم – فقال الطبرى إنه إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون (٢).

أما ابن كثير، فيقول إن إلياس والياسين اسمين لرجل واحد؛ فالعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها (٣).

أما دعوته فنذكر أشهر الروايات عنها:

جاء في تاريخ الطبرى عن ابن اسحق ما ملخصه (٤): إنَّ إلياس عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى نبذ عبادة الأصنام، والاستمساك بعبادة الله وحده رفضوه ولم يستجيبوا له، فدعا ربه فقال: اللهم إن بني إسرائيل قد أبو الا الكفر بك والعبادة لغيرك، فغير ما بهم من نعمتك فأوحى الله إليه إنا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك، فقال إلياس: اللهم فأمسك عليهم المطر فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد الناس جهدًا شديدًا، وما أن دعا عليهم حتى استخفى عن أعينهم، وكان يأتيه رزقه حيث كان فكان بنو إسرائيل كلما وجدوا ربح الخير في دار قالوا هنا إلياس فيطلبونه، وينال أهل المنزل منهم شر، وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن خطوب به ضر فأوته وأخفت آمره، فدعا ربه لابنها فعافاه من الضر الذي كان به واتبع (إلياس) وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حينما ذهب وكان (إلياس) قد سنَّ وكبر، وكان اليسع غلامًا شابًا، (وقال ابن عباس هو عم اليسع).

---

(١) سورة الصافات (١٢٣:١٣١/٢٣).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٤٦١/١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢١٧/٢).

(٤) ينظر: تاريخ الطبري (٤٦١/١).

ثمَّ إنَّ (الياس) قال لبني إسرائيل إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرج عنكم، فأخرجوا اصنامهم ومحدثاتهم، فدعا الله لهم ففرج عنهم وأغاثهم، فحيَتْ بلادهم، ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه ولم يستقيموا فلما رأى إلياس منهم دعا ربه أن يقبضه إليه فقبضه ورفعه.

ويذكر ابن كثير (١) أن رسالته كانت لأهل بعلبك غربي دمشق وأنهم كانوا يعبدون صنم يسمى (بعلًا) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه:

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾(٢).

ويذكر بعض المؤرخين أنه عقب انتهاء ملك (سليمان بن داود) عليه السلام وذلك في سنة ٩٣٣ قبل الميلاد انقسمت مملكة بني اسرائيل إلى قسمين، الأولى: يخضع الملك سلالة (سليمان) وأول ملوكهم (صبعام بن سليمان)، والثاني: يخضع لأحد اسباط افرايم بن يوسف الصديق واسم ملكهم جريعام. وقد تشتت دولة بني إسرائيل بعد (سليمان عليه السلام) بسبب اختلاف سلوكهم وعظمائهم على السلطة، وبسبب الكفر والضلال الذي انتشر بين صفوفهم.

وقد سمح أحد ملوكهم وهو أخاب بن عومرى لزوجته الملكة ايزابيل بنشر عبادة قومها في بني إسرائيل، وكان قومها عبادًا للأوثان فشاعت العبادة الوثنية وعبدوا الصنم الذي ذكره القرآن الكريم واسمه (بعل)، فأرسل إليهم (إلياس عليه السلام)

ويعرف النبي إلياس في كتب بني إسرائيل (التوراة) باسم إيليا.

فلما توفي إلياس (عليه السلام) أوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء واسمه (اليسع) ليقوم في بني إسرائيل فيدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار(٣).

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٣٩٣/١).

(٢) سورة الصافات (١٢٨،١٢٩/٢٣).

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٤٦١/١).

قصة ذي الكفل

ذكر أهل التاريخ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام واسمه في الأصل (بشر بن أيوب عليهم السلام)(١)

قال الله تعالى: { وَا إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ} (٢).

وقال أيضًا: { وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ } (٣).

- ذو الكفل من الأخيار الصابرين الصالحين.
- وقد بعثه الله تعالى بعد أيوب (عليه السلام) وكان مقامه في الشام وأهل دمشق
- ذو الكفل تكفل لله بثلاث

١. كان يصوم النهار.
٢. ويقوم الليل.
٣. ولا يغضب.

- وتكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل، فكان حاكمًا مقسطًا عادلًا؛ ولذلك سمي بذي الكفل (٤).

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١ /٢٥٩).

(٢) سورة ص (٤٨/٢٣).

(٣) سورة الأنبياء (١٧ /٨٥،٨٦).

(٤) ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير (١ /٣٧٠).

قصة اليسع عليه السلام

جاء ذكره (عليه السلام) ضمن مجموعة من الرسل إذ لم يذكر القرآن الكريم وكتب التفسير الكثير عن حياته (عليه السلام) سوى أنه كُلف من الله تعالى بتبليغ الدعوة إليه – سبحانه وتعالى – بعد انتقال نبي الله إلياس –عليه السلام – إلى الرفيق الأعلى في مدينة يانياس إحدى مدن الجمهورية السورية حاليًا.

فهو من ذرية إبراهيم عليه السلام واسمه أسباط بن عدى بن شوتلم بن أفراتيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وقد بعث اليسع (عليه السلام) في بعلبك وما حولها لدعوة الناس إلى وحدانية الله ونبذ كافة مظاهر الشرك فشريعة الأنبياء واحدة.

وأرسل مؤيدًا بعدة معجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وشرع في الدعوة إلى الله بكل إخلاص وأمانة سائرًا علمه نهج من سبقه من الأنبياء خاصة سلفه إلياس عليه السلام وفي الزمن الذي بعث فيه اليسع. عليه السلام – كانت قد كثرت الذنوب والخطايا وازداد عدد الملوك والطغاة والجبابرة الذين أمضوا في الأنبياء والمؤمنين تقتيلًا وتشريدًا وتنكيلًا فدعاهم اليسع (عليه السلام) إلى الرجوع عن غيّهم، لكنهم أصروا واستكبروا استكبارًا ورفضوا الانصياع للحق. ذلك موقف بني إسرائيل المتكرر مع كل نبي ورسول.

فاستمر بينهم في دعوتهم إلى أن توفاه الله، فسلط الله على بني إسرائيل من سامهم سوء العذاب كما جاء في القرآن الكريم (١).

ولقد جاء ذكر نبي الله اليسع (عليه السلام) في القرآن الكريم مرتين.

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/٤٦٤).

قال الله تعالى:

{ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ }(١)

قال أيضا: {وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ }(٢)

فلم يذكر في القرآن الكريم بصورة منفردة وإنما جاء ضمن مجموعة من الرسل الكرام- عليهم السلام- والذين شهد لهم الله تعالى بأنهم من الأخيار؛ أي المختارين لطاعة الله والقيام بواجبهم وعبادته وهو من فضل الله عليهم كى يرفع من قدرهم في الدنيا والآخرة.

فهو بذلك واحد من الرسل الذين يتوجب على المسلم الإيمان بهم كي يحقق مفهومًا واحدًا من أركان الإيمان ألا هو: الإيمان بالرسل جميعًا.

---

(١) سورة الأنعام: (٨٦/٧).

(٢) سورة ص (٤٨/٢٣).

قصة شمويل عليه السلام

امتدت جرائم بني إسرائيل بعد ذلك وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قراطيس يبدون بعضها ويخفون كثيرًا، حسبما تقتضي الأموال وتدفع المصلحة المباشرة، عظمة فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وزاد طغيانهم فكانوا يقتلون الأنبياء نبيًّا يليه نبيًّا فسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة ملوكًا منهم جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله أعداءهم عليهم ومكن لهم من رقابهم وأموالهم، وتتالت الهزائم على بني إسرائيل حتى أنهم أضاعوا التابوت في المعارك، واستطاع العماليق أن يأخذوا منهم تابوت الميثاق الذي كان يستبشرون به في المعارك وتطمئن به قلوبهم بالنصر، ويضم التابوت ما بقي من ألواح التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، ونجت من يد الزمان وعصاه وأمور أخرى وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون- عليهما السلام- وساءت الأحوال ببني إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم لأنفسهم إلى أن بعث الله تعالى فيهم نبي لهم شمويل (عليه السلام)، وبدأ يدعوهم للتوحيد فطلبوا منه أن يختار من بينهم ملك ليقاتلوا معه في سبيل الله (١).

قال الله تعالى:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/٢٩١).

تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ} (١)

فكان قيمة الثبات لهم على التعاقد الإيماني بقولهم نقاتل في سبيل الله ولكن جبنوا وتراجعوا فظلموا أنفسهم إلا فئة قليلة منهم.

قال الله تعالى:

{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }(٢).

فكان الرد منهم فيه غطرسة وكبرياء ولكن الله تعالى هو الذي أراد لهم طالوت ملكًا وزاده سعة في العلم والجسم؛ وبذلك ليقودهم في الحرب إلى النصر.

وجاء الحق بمعجزة التابوت التي تؤكد اختبار وإصطفاء الله تعالى لطالوت ملكًا لهم يأمر من الله فحملته الملائكة بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت فأقروا بملكه وتسارعوا إلى الجهاد.

---

(١) سورة البقرة: (٢/ ٢٤٦).

(٢) البقرة:(٢/ ٢٤٧، ٢٤٨).

قال الله تعالى:

{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ } (١).

وكأن الحق قد وضع لطالوت منهج الاختبار فالذي ينتصر على شهوته في الشرب من النهر هو الصالح لمهمة القتال، فلا يجاهد في سبيل الله إلا المأمون على هذا الجهاد.

(١) البقرة: (٢/٢٤٩).

قصة سيدنا داود عليه السلام

قال الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١)

لما بدأ القتال بالمبارزة، ونادى جالوت من يبارزني فقد كان قوي الجسم، فقال طالوت من يخرج له ليبارزه، فلم يخرج أحد، فقال: من يخرج وأنا أزوجه ابنتي ويكون له الملك من بعدي فخرج شاب اسمه داود كان في جيش طالوت، وكان يريد أن يقتل جالوت؛ لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله، وكان يقاتل بالمقلاع – وهي جلده وضع فيها ثلاثة أحجار ثمَّ سلطها على رأس جالوت فقتله–، فطلب الفئة القلة المؤمنة الصبر والثبات والنصر من الله عزَّ وجلَّ.

فقتلوهم بإذن الله، ثمَّ تزوج داود (عليه السلام) ابنه طالوت وصار الملك بعد موت طالوت، وأتاه الله عزَّ وجلَّ النبوة والملك والحكمة،وكان من ذرية يهوذا بن يعقوب عليهم السلام فأحبه بنو إسرائيل فأصبح ملكًا عليهم.

لقد أكرم الله نبيه الكريم بعدة معجزات

فأنزل الله عليه الزبور {وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا} (٢)،وآتاه جمال الصوت

---

(١) البقرة (٢/٢٥١،٢٥٠).

(٢) النساء: (٧ /١٦٣).

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }(١)

وأمر الله تعالى الجبال والطير بالتسبيح معه، ووهبه القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء يضع منها دروعًا ذات نسيج معين تتيح لمن يرتديها الحماية، وهو يقاتل وهي

صنعه علمه الله تعالى إياها.

قال الله تعالى: { وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ }(٢) فالله تعالى يحب من عباده الشكور.

ولقد حكى القرآن الكريم عن نبي الله داود أنه كثير العبادة والتوبة والرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى: { ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ } (٣)

كان داود (عليه السلام) ذا قوة في العلم والعمل والطاعة لله عزَّ وجلَّ؛ ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم نصف الدهر؛ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان كثير الرجوع إلى ربه في كل أموره وشئونه، وكان من أجمل الناس صوتًا فكان يتلو الزبور، ويسبح معه كل من في الأرض دائم التسبيح، عند إشراق الشمس وآخر النهار، وقويناه وآتيناه البيان في كل قصد، فأعطاه الله مع النبوة

---

(١) سبأ: (٢٢/ ١٠، ١١).

(٢) الأنبياء: (١٧ /٨٠).

(٣) ص: (٢٣/ ١٧:٢٠).

والملك الحكمة والقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته، وكذلك جعل الله ملكه قويًّا عظيمًا يخيف الأعداء حتى بغير حرب، فهو النبي الملك الحاكم العادل.

ولقد حكى القرآن الكريم كيف كان حكمه وعدله بين المتخاصمين.

قال الله تعالى: { وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَۜ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا }(١).

وكان داود عليه السلام رغم قربه من الله وحب الله له، يتعلم دائمًا من الله، وقد علمه الله يومًا ألا يحكم أبدًا إلا إذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين أو أقوالهم جميعًا.

ولكن داود عليه السلام استعجل في الرد لعدم سماع الآخر فعاتبه ربه فاستغفر ربه وخرَّ راكعًا وأناب.

---

(١) سورة ص (٢٣ /٢١:٢٦).

وكان من تمام نعم الله تعالى على سيدنا داود أن وهبه سليمان، غلام فطن حليم حكيم ورث عدل أبيه وحكمته.

قال الله تعالى: { وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ }(١).

فكان سليمان ابن داود –عليهما السلام– كأبيه في عبادة ربه في جميع الأوقات والأحوال؛ لذا امتن الله عليه بما امتن به على أبيه داود من قبل.

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}(٢)

فالله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعم سبحانه.

وقد حكى القرآن الكريم أحد صور تلك العلم والعدل بين الوالد وابنه (عليهما السلام).

قال الله تعالى: { وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ}(٣).

جلس داود عليه السلام كعادته يومًا يحكم بين الناس في مشكلاتهم وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر، وقال له صاحب الحقل سيدي النبي إن غنم هذا الرجل نزلت حقلي أثناء الليل وأكلت كل عناقيد العنب التي كانت فيه، وقد جئت إليك لتحكم لي بالتعويض، قال داود –عليه السلام– لصاحب الغنم: هل صحيح أن غنمك أكلت حقل هذا الرجل؟ قال صاحب الغنم نعم يا سيدي قال داود: لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلًا من الحقل الذي أكلته: قال سليمان... وكان الله

---

(١) سورة ص (٢٣ / ٣٠).

(٢) سورة النمل: (١٩ /١٥).

(٣) الأنبياء (١٧ /٧٩،٨٠).

قد علمه حكمة تضاف إلى ما ورث من والده: عندي حكم آخر يا أبي... قال داود: قله يا سليمان.. قال سليمان أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذي أكلته الغنم.. ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب، وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه، فإذا كبرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليمًا كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه.

قال داود: هذا حكم عظيم يا سليمان... الحمد لله الذي وهبك الحكمة... فكان سليمان ملازمًا لأبيه في مجلسه، حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشي به ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير(١).

ومنها ما جاء في الحديث الصحيح: حدثني زهير بن حرب حدثني شبابة حدثني ورقاء عن ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. يقول «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان وأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى» (٢).

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا قبيصة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: "كان (داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب. فقال داود أنت والله إذن ملك الموت مرحبًا بأمر الله.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٧ /١١٥).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٧٣٥٢) ومسلم رقم (١٧١٦).

ثمَّ مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس. جناحًا.

قال: قال أبو هريرة: " فطفق رسول الله (ﷺ) يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله (ﷺ) بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية "فقال سليمان للطير: أظلي على داود.

فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال: وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعًا عليه منهم على داود، قال: فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح، فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا فصاحوا إلى سليمان ـ عليه السلام ـ من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير: أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح ففعلت، فكان الناس في ظل، وتهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان (١).

(١) ينظر البداية والنهاية: (٢ /٢١).

العبرة من قصة داود –عليه السلام–:

- تجليات فضل الله على عباده.
- ترادف نعم الله على عباده عامة وعلى أنبيائه وأوليائه خاصة لا ينكره إلا جاحد، وقد خصَّ الله نبيه داود بمزيد من فضله وظهر ذلك واضحًا في المظاهر الآتية: سخر الله له الجبال والطير تردد معه ذكره وتسبيحه، ألان في يده الحديد فصار كالعجينة يصنع منه ما يشاء. يسَّر له تلاوة الزبور، وآتاه الملك فجمع له الخيرين خير الدنيا والآخرة، أنعم عليه بالقوة في البدن والحكمة في الرأس والعدل في الحكم، أنعم عليه بالذرية الصالحة.
- الشكر قيد النعمة: شكر النعمة يمنعها من الزوال ويجلب المزيد، ويمنع النقمة، وكان داود – عليه السلام – من هذا القليل الشاكر، فاستحق من الله الثناء.
- أفضل ما أكل الإنسان من عمل يده: هذا أيضًا مما تعلمناه من قصة داود – عليه السلام –، فعلى الرغم من كونه خليفة في الأرض وملكًا على أمة امتد ملكها، إلا أنه كان يأكل من عمل يده فكان – عليه السلام – يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها.

وفي صحيح البخاري قال – ﷺ –: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده"(١).

وهكذا الأنبياء والصالحون.

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري رقم (٢٠٧٢).

قصة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى:

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ } (١).

لقد ورثه في النبوة والعلم والدين والدعوة إلى منهج الله تعالى، أما أموالهم فهي صدقة عنهم.

قال سيدنا محمد (ﷺ) "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه من مال فهو صدقة ".(٢)

قال الله تعالى:

{ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ{ (٣).

كان سيدنا سليمان (عليه السلام) محبًّا للخيل وخاصة ما تسمى بـ"الصافنات" وكانت من أجود أنواع الخيل، وذات يوم عرض عليه عدد من الخيل ليراها ويتفحصها، وكان عدد هذه الخيل كبيرًا، فانشغل عن ورده اليومي لذكر الله حتى غربت الشمس. فحزن سيدنا سليمان عليه السلام حزنًا شديدًا واستغفر ربه، وأمر جنوده أن يأتوا بالخيل فأخذ السيف وبدأ يضرب أعناق الخيول وأرجلها، وقيل في رواية أخرى أنه كان يمسح بيده فقط على أعناقها وأرجلها ويذكر الله ويستغفره (٤).

---

(١) النمل: (١٩ /١٦).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري رقم (٦٧٢١).

(٣) سورة ص (٢٣ /٣٣:٣٠).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢١ /١٩٣).

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ } (١).

فتن الله تعالى سليمان–عليه السلام – وأختبره.

يقول الفخر الرازي عن حقيقة فتنة سليمان عليه السلام ما ذكره ابتلى سليمان –عليه السلام – بمرض شديد حار فيه أطباء الإنس والجن وأحضرت له الطيور أعشاب طبية من أطراف الأرض فلم يشف حتى أصبح إذا جلس على كرسيه كأنه جسد بلا روح، وكان لا يتوقف عن ذكر ربه واستغفاره وحبه لله عزَّ وجلَّ واستجار برحمة الله فشفاه وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان وأعاد إليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وملكه لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى فدعى ربه أن يهبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده.

– فسخر الله تعالى له الريح تجري بأمره، فكان لديه بساط خشبي ضخم جدًّا ترفعه الريح وينتقل به للمكان المطلوب في سرعة فائقة، وكذلك استخدمه في الحرب فكان جيشه مكون من البشر والجن والطيور، وسخر من الجن وطائفة غواصون في أعماق البحار يستخرجون ما فيها من اللؤلؤ والمرجان والياقوت والأشياء النفسيه التي لا توجد إلا فيها ومنهم مقيدون في الأغلال الذين تمردوا وعصوا (٢).

---

(١) سورة ص (٢٣/٤٠:٣٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٦ /٣٩٥).

قال الله تعالى: { وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ}(١).

ومما أنعم الله به عليه قال الله تعالى: (وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ) أي: أسال له النحاس.

وقد استفاد سليمان –عليه السلام –من النحاس المذاب فائدة عظيمة في الحرب والسلم.

وكان الجن يستجيبون لأوامره خوفًا من عذاب الله لهم، وقاموا بالأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر في الأبنية والقصور وغيرها وكان سليمان عليه السلام في شكر دائم على نعم الله عليه.

قال الله تعالى:

{ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ } (٢).

سمع سليمان عليه السلام كلام النملة فتبسم ضاحكًا من قولها وشكر الله أن منحه هذه النعم.

---

(١) سورة سبأ (٢١ /١٢،١٣).

(٢) سورة النمل (١٩ /١٧:١٩).

ويقول العلماء ((ما أعقلها من نملة وما أفصحها)) . (يا) نادت، (أيها) نبهت، (ادخلوا) أمرت، (لا يحطمنكم) نهت، (سليمان) خصت، (وجنوده) عمت، (وهم لا يشعرون) اعتذرت.

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ رحيمًا بالنمل يسمع همسه وينظر أمامه ولا يمكن أبدًا أن يدوسها فقد منحه الله تعالى الرحمة والشفقة والحنو والرفق.

سليمان –عليه السلام– وملكة سبأ:

قال الله تعالى: { وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ {(١).

(١) سورة النمل (١٩ /٤٤: ٢٠).

وتبدأ قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ باليمن بتفقد الجيش وتخلف الهدهد، فقد أدرك الهدهد قضية العقيدة وقضية الإيمان، وتعجب من قوم يعبدون غير الله –جل وعلا – سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

لذا؛ تعجب سليمان –عليه السلام– من كلام الهدهد وأرسل معه رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ يدعوهم أن يأتوه مسلمين، فما كانت من ملكة سبأ إلا أن حاولت استرضاه بالمال، لكن حاش لنبي أن يتخلى عن دعوته وغايته لأمل دنيوي.

فأراد سليمان – عليه السلام – أن يحاربهم بالعقل ويظهر لهم قوة الله الواحد وتأيده له . فطلب من الملأ حوله أن يأتوا إليه بعرش سبأ قبل وصولها وقد كان

ثمَّ أراد سليمان –عليه السلام– أن يختبر ذكاء الملكة بلقيس فغير بعض الشيء في عرشها وكان ردها عاقلًا حكيمًا.

فدخلت قصر سليمان –عليه السلام –كان الصرح أعظم من ملكه وسلطانها فأراها قصر زجاج والأرض من زجاج أبيض شفاف تحته ماء عذب.. فحسبته بحر فأراد سليمان أن يُريها عظمة ملكه وهبة الله تعالى له فعلمت أنها ما أتيت من ملك فملك سليمان أعظم وتبصرت في أمره إن دينه هو الحق وأنه نبي من عند الله واستغفرت ربها ودعاها إلى السلام، فأسلمت لله رب العالمين.

ومن الأعمال التي قام بها سليمان –عليه السلام – إعادة بناء المسجد الأقصى الذي بناه يعقوب– من قبل.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "إِنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ ربه عزوجل خِلَالًا ثَلَاثًا فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا الثَّالِثَةُ، سَأَلَهُ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مَنْ بَيْتِهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهَا "(١).

(١) حديث حسن أخرجه النسائي (٤٣/٢) وابن ماجة برقم ١٤٠٨) وأحمد (٢٢/١١).

عن أبي ذر الغفاري (رضي الله تعالى) عنه قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المسْجِدُ الحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المسْجِدُ الأَقْصَى»

قال الله تعالى: { كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}(١).

يقص القرآن الكريم قصص الأنبياء لسيدنا محمد- ﷺ- ليتعظ بها أصحاب العقول.

لقد بعث الله- سبحانه وتعالى- محمد ﷺ. رسولًا للناس جميعًا، وكان من بينهم أهل الكتاب الذين يتلون التوراة ويعرفون أنه الحق، لكنهم لم يعلموا بما فيها من الإيمان بالرسول. ﷺ. وما جاء به، ولم يقفوا عند الترك للآيات الحق، بل اتبعوا ما جاء به الباطل وهو السحر الذي جاء به الشياطين.

قال الله تعالى: { وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ

(١) سورة ص (٢٩/٢٣).

مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ }(١).

فلقد شاع وانتشر بين الناس السحر واتباع الشياطين، أسوة بما كان من تسخير الله تعالى لهم لنبيه سليمان –عليه السلام – ولكن شتَّان بينها فسليمان – عليه السلام مؤمنًا

وبذلك لم يكن سليمان عليه السلام يعلم السحر، ولكن ملكه واستتاب الأمر له هي مشيئة الحق سبحانه وتعالي.

موت سليمان –عليه السلام.

قال الله تعالى: { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ } (٢)

كان موت سليمان –عليه السلام – وعدم علم الجن بموته آية من آيات الله، فهو ينفي معرفة الجن للغيب، وأن الله وحده عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحد.

---

(١) سورة البقرة (١ /١٠٢، ١٠١).

(٢) سورة سبأ (٢٢/ ١٤).

قال الله تعالى: { عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ }(١).

وهكذا تتوالى رفعة الله لأنبيائهم عليهم السلام، فداود وسليمان من ذرية إبراهيم عليه السلام، ونسل بني إسرائيل.

قال الله تعالى: { وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الجن (٢٩ /١٨: ١٦).

(٢) سورة الأنعام (٧/ ٨٩: ٨٣).

العبرة من قصة سليمان –عليه السلام–:

- ورعه عليه السلام؛ وذلك عندما استعرض خيله التي يُجاهد بها في سبيل الله، فشغلته، فتصدق بها كُلها.

–إقامة دولته على عِظمها على الدين، والالتزام بشرع الله، وتطبيقه في حياته وحياة الناس.

- معرفة الكثير من خصائص الجنّ وعالمهم، وانضباطهم مع جُند سُليمان –عليه السلام.
- إبطال ما اعتقده بعض الناس في معرفة الجن للغيب؛ فلو علموه لعلموا بوفاة سُليمان (عليه السلام).
- ظهر عدل سُليمان –عليه السلام– وتديُّنه ورحمته، فهم لا يُحطم نملةً ولا يدوس عليها، وتبسّمه من قولها يدلُ على سروره بأمر الآخرة والدين، وبُعده عن الدُنيا، وإفهام الله له لكلامها؛ دليلًا على تأييد الله له بالمعجزات.
- التحفيز وتهديد الأتباع؛ فقد تَغيّب الهُدهُد عن اجتماع سُليمان –عليه السلام–، فتوعّده بقوله: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)، ومعرفته لغيابه دلالةٌ على يقظته وانتباهه، وتوعده أمام الجميع؛ لتغيبه من غير عُذر، ولكن ما إن جاء بما يُبررُ غيابه قام بتحفيزه.
- الرعية والجُند من واجبات ولاة الأمر، ومُعاقبة المخالفين منهم، وعدم التهاون في ذلك.
- إقامة العُذر للشخص الغائب، والتأني قبل إصدار الإحكام عليه.
- العلم والحكمة من سمات الحاكم؛ حيثُ تأنّت ملكة سبأ في بيان رأيها من الكتاب الذي حمله الطير.
- الاستشارة ومشاركة الآخرين؛ وذلك بعد استدعاء بلقيس لمن حولها ومُشاورتهم في الكتاب الذي جاءها من سُليمان –عليه السلام–.

- اتخاذ الملك وسيلةٌ إلى الدعوة، فلم يصدّ الملكة بلقيس بالرغم مما عندها من الملك والسُلطان عن اتّباع الحق.
- أهمية الشورى في حياة الناس، وبناء الأُمم يعتمدُ على القوة، وأعضاء مجلس الشورى ينبغي أن يكونوا من أهل الرأي.
- الإيجاز والاختصار في حال وصف الأحوال، كما فعل الهُدهد عند وصفه لسليمان حال ملكة سبأ.

قصة عُزير عليه السلام

عزير "رجل صالح من بني إسرائيل، لم يثبت أنه نبي، وإن كان المشهور أنه من أنبياء بني إسرائيل"(١).

قال الله تعالى: { أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } (٢).

مرَّ عُزير على هذه القرية وهي بيت المقدس على المشهور، وكانت خاوية ليس فيها بشر فتعجب لماذا أرسلني الله تعالى إلى هذه القرية وقد خربها بختنصر وقتل أهلها في معركة قد خاضها معهم فخربها تخريب شامل حتى سقوفها وبيوتها ساقطة وجدرانها خراب شديد وقف مستغربًا، ينتظر أن يحييها الله وهو واقف؛ لأنه مبعوث إليها فسؤاله سؤال تعجب وليس اعتراضًا.

فأماته الله مائة عام ثمَّ بعثه، قبض الله روحه وهو نائم، ثمَّ بعثه فاستيقظ عزير من نومه، فأرسل الله تعالى ملكًا في صورة بشر فقال له (كم لبثت) فأجاب عزير (قال لبثت يومًا أو بعض يوم) نمت يوم أو عدة أيام، فرد الملك: (قال بل لبثت مائة عام). ويعقب الملك مشيرًا إلى إعجاز الله عزَّ وجلَّ (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك) فكان معه عنب وتين وعصير فوجده كما

---

(١) البداية والنهاية (٢/٣٨٩).

(٢) سورة البقرة (٣ /٢٥٩).

هو لم يتغير منه شيء، ثمَّ أشار له إلى حماره فرأه قد مات وتحول إلى عظام، ثمَّ بين له الملك السر في ذلك

(ولنجعلنك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمَّ نكسوها لحمًا) فنظر عُزير للحمار فرأى عظامًا تتحرك فتتجمع فتتشكل بشكل الحمار، ثمَّ بدأ اللحم يكسوها والجلد والشعر، فاكتمل الحمار أمام عينيه (١).

خبرنا المولي بما قاله عُزير في هذا الموقف: (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) سبحان الله تعالى أي إعجاز هذا !

ثمَّ خرج إلى القرية، فرآها قد عمرت وامتلأت بالناس

فسألهم: هل تعرفون عزير؟ قالوا: نعم وقد مات منذ مائة سنة.

فقال لهم: أنا عزير. فأنكروا عليه ذلك.

ثمَّ جاءوا بعجوز معمرة، كانت أَمَة تعيش مع أسرة عزير فسألوها عن أوصافه، فوصفته لهم فنظروا في العلامات فوجدوه هو وتأكدوا أنه عُزير، فأخذ يعلمهم التوراة ويجددها لهم. فبدأ الناس يقبلون عليه وعلى هذا الدين من جديد، وأحبوه حبًّا شديدًا وقدسوه للإعجاز الذي ظهر فيه، حتى وصل تقديسهم له أن قالوا عنه أنه ابن الله.

قال الله تعالى: { وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ } (٢).

لكنه سبحانه وحده لا إله إلا هو، تعالى عن الشريك والولد.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/٤١٤).

(٢) سورة التوبة (١٠/٣٠).

قصة زكريا عليه السلام

قال الله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }(١)

إنَّ الله تعالى اصطفى آدم –عليه السلام – خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته المكلفين بخدمه البشرية وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة، وهو أول نبي بعث على الأرض.

واصطفى نوحًا عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى الأرض.

واصطفى إبراهيم خليل الله أبو الأنبياء ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد (ﷺ).

يقول الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد (ﷺ) في قرآنه العظيم:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (٢).

---

(١) سورة ال عمران (٣ / ٣٣،٣٤).

(٢) سورة الأنعام (٧/١٦٥:١٦١).

واصطفى الله -تعالى- آل عمران، حيث اختار لبني إسرائيل عددًا من الأنبياء والرسل كان آخر ثلاثة منهم؛ زكريا وابنه يحيى وعيسى -عليهم السلام-، وجميعهم من آل عمران؛ ذلك لأنّ امرأة عمران أنجبت بنتين؛ إحداهما تزوجها زكريا-عليه السلام- وأنجبا يحيى -عليه السلام-، والثانية هي مريم التي أنجبت عيسى -عليه السلام-.

قال الله تعالى: { إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ }(١)

امرأة عمران هي: جنة أم مريم –عليهما السلام– وكانت لا تلد فرأت يومًا طائرًا يطعم فرخه في فمه ويسقيه فاشتهت الولد فدعت الله –تعالى– أن يرزقها فاستجاب الله دعاءها رحمة منه فأحست ذات يوم أنها حامل ~ وملأها الفرح والشكر لله فنذرت ما في بطنها محررًا لله: أي خالصًا يتفرغ لعبادة الله وخدمه بيت المقدس، وفوجئت بأن المولود أنثى ولكن قررت أن تفي بنذرها لله، وتسأله أن يحفظ هذه الفتاة التي سمتها مريم وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم: أي ولدها عيسى عليه السلام (٢).

يروي الإمام مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال:" مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ، إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ " (٣).

---

(١) سورة آل عمران (٣/٣٦،٣٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢ /٣٢ /٣٦).

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري رقم (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

كان عمران قد مات قبل ولادة مريم، وأراد علماء ذلك الزمان وشيوخه أن يربوا مريم؛ لأنه شرف لمن يربي ابنة شيخهم الجليل العالم وصاحب صلاتهم وإمامهم فيها؛ وذلك لرغبتهم في الأمر والشرف.

قال زكريا عليه السلام: أنا أكفلها هي قريبتي وزوجتي هي خالتها، وأنا نبي وأولاكم بها فاختلفوا، ثمَّ اتفقوا على إجراء قرعة وأجريت القرعة ثلاث مرات وفي كل مرة تكون لزكريا عليه السلام، فسلموها لزكريا، وأعطوه مريم ليكفلها.

قال الله تعالى: { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ } (١).

وبدأ زكريا –عليه السلام – يخدم مريم ويربيها ويكرمها حتى كبرت فقد تقبلها الله تعالى ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فكانت من العابدات الزاهدات والخالصات لله عزَّ وجلَّ وكانت صِدّيقة.

وكفاله زكريا لمريم عليهم السلام وتعجبه في الرزق الذي لم يأت به هو فكلما سألها من أين فتخبره هو من عند الله إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب، وتكرر هذا المشهد أكثر من مرة.

وهذا دلالة على كرامات الأولياء الصالحين لله تعالى.

وكان زكريا عليه السلام يتمنى أن يكون له ولد يرث علمه ويصير نبيًّا ويستطيع أن يهدي قومه ويدعوهم إلى كتاب الله ومغفرته، كان ذلك في نفسه ، فلما رأى حال مريم اتجه إلى الله بالدعاء.

قال الله تعالى: { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ }(٢)

---

(١) سورة آل عمران (٣٧/٣).

(٢) سورة آل عمران (٣٨/٣).

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾ (١).

زكريا عليه السلام كان نبيًّا عظيمًا من أنبياء بني اسرائيل يعمل نجارًا، يأكل من عمل يده، وكان شيخًا كبيرًا وامرأته عاقرًا كبيرة مثله، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه في جوف الليل وهو قائم يصلي في المحراب (المسجد) محل عبادته وخلوته ومناجاته لله رب العالمين أن يرزقه بالولد الصالح يرثه النبوة والحكمة والفضل والعلم.

قال الله تعالى: { وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ } (٢).

فلم يكد زكريا يهمس في قلبه بدعائه لله أن يهبه الولد؛ ليكون من بعده نبيًّا.

---

(١) سورة مريم (١٦/١: ٦).

(٢) سورة الأنبياء (١٧ /٩٠،٨٩).

قال الله تعالى: { يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا } (١).

فوجئ زكريا عليه السلام بهذه البشرى... أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل... أحس زكريا من فرط الفرح باضطراب...

تساءل من موضع الدهشة: أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ، وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى ؛ كل شيء يريده يأمره بالوجود فيوجد بالمشيئة ((إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون)) الملك لله وحده فامتلأ قلب زكريا بالشكر لله وحمده وتمجيده.

وسأل ربه أن يجعل له آية أو علامة .

أخبره الله أن ستجيء عليه ثلاث ليالٍ لا يستطيع فيها النطق وأن يتحدث مع الناس عن طريق الإشارة وأن يسبح لله كثيرًا في الصباح والمساء، فعرف أن معجزة الله قد تحققت فأومأ إلى قومه أن يسبحوا لله في الفجر والعشاء وراح هو يسبح الله في قلبه وصلَّ لله شكرًا على استجابته لدعوته ورزقه بيحيى –عليهما السلام –.

---

(١) سورة مريم (١٦ / ١١:٧).

ظلَّ زكريا (عليه السلام) يدعو إلى منهج ربه حتى جاءت وفاته وتعددت الروايات في قتله، **قيل** في سبب قتله: إنه لما شاع الخبر في بني إسرائيل أن مريم عليها السلام حامل اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام لذلك عزموا على قتله، فأمسكوا به ثمَّ نشروه بالمنشار، وقتل عليه السلام ظلمًا بأيدي اليهود المجرمين ومات شهيدًا ﷺ.

وقيل في سبب قتله قولٌ آخر وهو أنه لما قُتل ابنه نبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام بأمر الملِك الظالم حاكم فلسطين "هيرودس"، أرسل هذا الملِك في طلب أبيه زكريا عليه السلام فاستخفى عليه السلام منهم، فدخل بستانًا ومر بشجرة عند بيت المقدس فنادته الشجرة بمشيئة الله: هلمَّ إليَّ يا نبي الله، فلما أتاها عليه السلام انشقت بقدرة الله ومشيئته فدخلها فانطبقت عليه وبقي عليه السلام في وسطها، فأتى عدو الله إبليس اللعين فأخذ هُدْبَ رداء زكريا عليه السلام فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم، ثمَّ لقي القوم الذين خرجوا في طلب زكريا (عليه السلام) وكان متشكلًا لهم بصورة رجل فقال لهم: ما تريدون؟ فقالوا: نلتمس زكريا، فقال لهم: إنه سَحَر هذه الشجرة فانشقت له فدخلها، فقالوا له: لا نصدقك! قال لهم: فإنّ لي علامة تصدقونني بها، فأراهم طرف ردائه فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشجرة وشقوها بالمنشار فقتل نبي الله زكريا فيها ومات شهيدًا، وقد سلط الله تبارك وتعالى عليهم أخبث أهل الأرض فانتقم منهم، والله عزيز ذو انتقام (١).

العبرة من قصة نبي الله زكريا –عليه السلام– :

- إن الله عزَّ وجلَّ فعَّال لما يريد.
- اللجوء إلى الله بالدعاء في سائر مباحات الحياة.
- الأكثار من ذكر الله في كل الأحوال يورث الطمأنينة في القلب.
- محبة الذرية والدعاء بها أمر فطري.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٢ /٥٢).

قصة يحيى عليه السلام

يحيى ابن نبي الله زكريا، وُلِدَ استجابة لدعاء زكريا لله أن يرزقه الذرية الصالحة.

قال الله تعالى:

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}(١).

بشرت الملائكة زكريا عليه السلام بابنه يحيى فقد جاء بعد عمر طال حتى يئس الشيخ من الذرية وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا عليه السلام فكان يحيى عليه السلام سيد العلم والعبادة والتقى حصنه ربه من جميع الذنوب؛ أي ممنوعًا من كل ما حرم الله مطهرًا، وهو نبي متبع من الصالحين.

قال الله تعالى:

{ ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}(٢).

---

(١) سورة آل عمران (٣/٣٨،٣٩).

(٢) سورة مريم (١٦ /١٠)

يحيى نبي الله الذي شهد الحق عزَّ وجلَّ له أنه لم يجعل له من قبل شبيهًا ولا مثيلًا في النسك والزهد والحب الإلهي كان يضيء حبًّا لكل الكائنات.

قال الله تعالى:

{ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا} (١).

كان يحيى عليه السلام يحب القراءة، وكان يقرأ في العلم من طفولته وكلما كبر يحيى في السن زاد النور في وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام، فلما صار صبيًّا نادته رحمه ربه: بأن يدرس الكتاب بقوة وإحكام واجتهاد وهو التوراه التي كانوا يتدارسونها بينهم ويحكم فيها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار وكان صغير السن في ذلك الوقت رزقه الله تعالى الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبي... وكان أعلم الناس وأشدهم حكمة في زمانه.

كان يحكم بين الناس ويبين لهم أسرار الدين ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطأ.

كبر يحيى فزاد علمه، وزادت رحمته، وازداد حنانه بوالديه، والناس والمخلوقات، والطيور، والأشجار حتى عمَّ حنانه الدنيا وملأها بالرحمة.

كان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يدعو الله لهم.

وكان يحيى –عليه السلام –إذا وقف بين الناس ليدعوهم إلى الله أبكاهم من الحب والخشوع – وأثر في قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله وعلى عهد الله.

فكان يبلغهم بأمر الله عزَّ وجلَّ وكلماته بأن يعمل بها وأمركم أن تعملوا بها.

---

(١) سورة مريم (١٦ /١٤:١١).

- أن تعبدوا الله وحده بلا شريك.
- وأمركم بالصلاة لأنَّ الله ينظر إلى عبده وهو يصلي ما لم يلتفت عن صلاته والخشوع فيها.
- وأمركم بالصيام... فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك جميل الرائحة، كلما سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر.
- وأمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيرًا فهو أسرع الحصون.

(يذكر العلماء فضل يحيى ويوردون أمثله كثيرة، كان يحيى معاصرا لعيسى- عليهم السلام -وقريبه من جهة الأم وابن خالة أمه)...

قال الله تعالى:

{ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }(١).

وتروي السنة أن يحيى وعيسى التقيا يومًا. فقال عيسى ليحيى عليهم السلام: استغفر لي يا يحيى. أنت خير مني. قال يحيى : استغفر لي يا عيسى أنت خير مني. قال عيسى: بل أنت خير مني. سلمت على نفسك وسلم الله عليك. فالاستغفار بإخلاص سبيل الطاعة لله عزَّ وجلَّ.

وكان يحكم في بني إسرائيل في ذلك الزمان ملك طاغية ضيق العقل غبي القلب يستبد برأيه وكان الفساد منتشرًا في بلاطه، وكان يسمع أنباء متفرقة عن يحيى فيدهش لأن الناس يحبون أحدًا بهذا القدر وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه أحد،... وكان الملك يريد الزواج من ابنة أخيه حيث أعجبه جمالها، وهي أيضًا تطمع في ملكه، وكانت بغية فاجرة وكانوا يعلمون أن هذا حرام في دينهم فأراد الملك أن يأخذ الإذن من يحيى- عليه السلام - فذهبوا يستفتون يحيى -عليه السلام- ويغرونه بالأموال ليستثني الملك، لم يكن لدى الفتاة أي حرج من الزواج بالحرام، لكن يحيى عليه السلام أعلن أمام الناس تحريم زواج البنت من عمها حتى يعلم الناس فعلها، فغضب الملك وامتنع عن الزواج، لكن الفتاة كانت لا تزال طامعة في الملك. وفي إحدى الليالي الفاجرة أخذت البنت تغني وترقص فأرادها الملك لنفسه فأبت وقالت: إلا أن تتزوجني. قال: كيف أتزوجك وقد نهانا يحيى. قالت ائتني برأس يحيى مهرًا لي. وأغرته إغراء شديدًا فأمر حينها بإحضار رأس يحيى له. فذهب الجنود ودخلوا على يحيى وهو يصلي في المحراب. وقتلوه. وقدموا رأسه على صحن للملك، فقدم الصحن إلى هذه البغي وتزوجها بالحرام (٢).

---

(١) سورة مريم (١٦ /١٥).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٢ /٥٤).

قصة عيسى عليه السلام

قال الله تعالى:

{ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا } (١).

الله تعالى قدره، وتنزه عن مشابهة ما سواه، وعظم خيره وعطاؤه مالك السموات والأرض خلقًا وملكًا وعبيدًا الذي نزل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ للخلق أجمعين.

قال الله تعالى:

{ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا }(٢).

لقد أنذر الله –سبحانه وتعالى – إدعاء الولد له، بقوله إن يقولون إلا كذبا.

---

(١) سورة الفرقان (١٨ /١، ٢).

(٢) سورة الكهف (١٥ / ١:٥)

قال الله تعالى:

{ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ } (١).

بلغ يا محمد ـ ﷺ ـ أن الألوهية لله وحده

قال الله تعالى:

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ }(٢).

تحذير الله تعالى لعباده لتستحضر قوته المطلقة، فتحذره في السر والعلانية.

قال الله تعالى:

{ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ }(٣).

---

(٢) سورة الإخلاص (١١٢ / ١:٤)

(٣) سورة آل عمران (٣ /٣٠).

(٣) سورة آل عمران (٣ /٣٢: ٣٦).

لقد كانت امرأة عمران تملك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج التعبدي ، فهِيَ "حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُوذَا. قِيلَ: مَاتَ زَوْجُهَا وَتَرَكَهَا حُبْلَى فَنَذَرَتْ حَبْلَهَا ذَلِكَ مُحَرَّرًا أَيْ مُخَلَّصًا لِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانُوا يَنْذِرُونَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمَوْلُودُ ذَكَرًا.فاستجاب الله دعاءها"(١).

قال الله تعالى: { ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } (٢).

أخبر القرآن الكريم سيدنا محمد ﷺ . عما حدث في كفالة زكريا لمريم عليها السلام.

عندما جاءت مريم بيت المقدس كانت رضيعة، وكان من عاداتهم أي مولود يهدى لبيت المقدس يتكفل به أحد الأحبار، وكلهم أرادوا أن يكفلوها، وكان التنازع على من يكفل مريم–عليها السلام –؛ لأنها بنت شيخهم الجليل العالم وصاحب صلاتهم وإمامهم فكانت القرعة هي التي تخرج الناس من مراداتها إلى مراد الله. وكان في زمانهم الاقتراع الوسيلة لفك التنازع بينهم.

وجعل الله تعالى كفالتها ورعايتها إلى زكريا –عليه السلام–.

قال الله تعالى: { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (٣).

فرعاية زكريا لمريم –عليهم السلام– قدر من الله عزَّ وجلَّ لتقتبس منه علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، كانت مريم مثلًا للعبادة والتقوى، وأسبغ الله تعالى عليها من نعمة ممَّا لفت أنظار الآخرين.

---

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٢/٣)

(٣)سورة آل عمران (٤٤/٣).

(٤) سورة آل عمران (٣ /٣٧).

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾}(١).

فهمت مريم أن الله يختارها ويجعلها على رأس نساء العالمين (أي نساء زمانها) وصدر الأمر بعد البشارة أن تزيد من خشوعها وسجودها وركوعها لله.

وذكر عن رسول الله (ﷺ) أن الله تعالى اصطفى من النساء أربعة: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(٢)

قال الله تعالى: { وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾} (٣).

انقطعت مريم –عليها السلام– للعبادة وجاءها جبريل –عليه السلام – وهي في المحراب على صورة بشر، فخافت مريم وقالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا أرادت أن تحتمي في الله، فجاء

---

(١) سورة آل عمران (٣ /٤٣:٤٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه: البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١).

(٣) سورة مريم (١٦ / ١٥: ٢١).

جوابه ليطمئنها بأنه يخاف الله ويتقيه: قال ((إنما أنا رسول ربك)) استقبل عقل مريم كلمات الروح الأمين وبشرى الملك لها بالولد وتتجلى طلاقة القدرة لله –عزَّ وجلَّ– ومعجزاته.

قال الله تعالى: { قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } (١).

فهو الله الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، فمسألة الخلق ليست عملية ميكانيكية تخضع لقانون إنما هي قدرة الله وإرادته.

قال الله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ}(٢).

لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب وأم، وخلق حواء من غير أم وخلق عيسى من غير أب وخلق سائر الخلق من أب وأم، وهكذا استوفى الخلق القسمة العقلية في كل صورها فهو القادر على كل شيء بأمره كن فيكون، فطلاقة القدرة لله الواحد الأحد.

قال الله تعالى: { قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ }(٣).

زادت دهشة مريم –عليها السلام – قبل أن تحمل في بطنها تعرف اسمه وتعرف أنه سيكون وجيهًا عند الله وعند الناس وتعرف أنه سيكلم الناس وهو طفل وهو كبير.

---

(١) سورة آل عمران (٣ /٤٧).

(٢) سورة آل عمران (٣ /٥٩).

(٣) سورة آل عمران (٣ /٤٦:٤٥).

قال الله تعالى:

{ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ }(١).

نفخ جبريل (عليه السلام) في جيب مريم (الجيب هو شق الثوب الذي يكون في الصدر).. فحملت فورًا، وتصورت نظرات الشك وكلمات الفضول وتعليقات الناس وامتلأ قلبها بالحزن. ولقد اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر (٢).

ولم تكد مريم تنتهي من تمنيها الموت والنسيان، حتى ناداها جبريل – عليه السلام – يطلب منها أن تكف عن حزنها ولتمتلئ بالسلام والفرح ولا تفكر في شيء، ولم تكلم بشرًا ولتدع له الباقي (٣).

قال الله تعالى:

{ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ

---

(١) سورة مريم (١٦ / ١٢:١٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥ /٢٢٢).

(٣) ورد في بعض الروايات أن الذي ناداها عيسى – عليه السلام – لكن القرآن لم يحكِ ذلك في القراءات الصحيحة المتواترة ، فأول نطق للمسيح كان عندما أتت به قومها. يقول الطبري : "ومن متأوّل منهم أنه عيسى، وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولدته. وقرأ ذلك بعض قرّاء أهل الكوفة والبصرة (فَنَادَاها مَنْ تَحْتَها) وبفتح التاءين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أن الذي تحتها عيسى، وأنه الذي نادى أمه" . (ينظر تفسير الطبري ١٨/ ١٧٢).

بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}(١)

ولقد ورد في بعض الروايات أن الذي ناداها عيسى – عليه السلام – لكن القرآن لم يحكِ ذلك في القراءات الصحيحة المتواترة ، فأول نطق للمسيح كان عندما أتت به قومها. يقول الطبري : "ومن متأوّل منهم أنه عيسى، وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولدته. وقرأ ذلك بعض قرّاء أهل الكوفة والبصرة (فَنَادَاها مَنْ تَحْتَها) وبفتح التاءين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أن الذي تحتها عيسى، وأنه الذي نادى أمه" (٢).

راحت الاتهامات تسقط عليها وهي مرفوعة الرأس تومض عيناها بالكبرياء والأمومة، ويشع من وجهها نور يفيض بالثقة، وهي تعلم أن ميلادها المسيح بدون أب معجزة من الله عزَّ وجلَّ خصصها لها.

واشتد توكلها على ذي الجلال والإكرام وأشارت بيدها لعيسى فعلموا أنها صائمة عن الكلام، واندهش الناس وتساءل الكهنة ورؤساء اليهود، كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ أيام !

قال الله تعالى: { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } (٣).

---

(١) سورة مريم (١٦ /٢٨:٢٤).

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٨/ ١٧٢.

(٣) سورة مريم (١٦ /٣٣:٢٩).

نطق عيسى ابن مريم في المهد تبرئة لأمه الصديقة، وإقرارًا بالعبودية لله، وبيان أن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيًّا.

كانوا يشهدون معجزة تقع أمامهم مباشرة وكلامه يعني أنَّ سلطتهم في طريقها إلى الانهيار بمولد هذا الطفل وعندما يكبر وشعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية لهم.

لذا فسرعان ما اتهموا مريم العذراء ببهتان عظيم. اتهموها بالبغاء رغم أنهم عاينوا المعجزة بأنفسهم.

قال الله تعالى: { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا }(١).

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى قصة مريم وابنها عيسى معجزة عظيمة تدل على كمال قدرته.

اختار الله تعالى لمريم القرار الذي تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلي مستوى بحيث لا يحتاج أن تنقل منه إلى غيره. فالحق سبحانه وتعالى مهَّد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق؛ ليؤكد على أن أصل الدعوة واحد ، وأن كل رسول يؤكد على رسالة من قبله ويكملها .

قال الله تعالى: { وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ }(٢).

كبر عيسى ونزل عليه الوحى وأعطاه الله الإنجيل وأظهر الله على يديه المعجزات، وجاء عيسى عليه السلام ليخفف عن بني إسرائيل بإباحة بعض الأمور التي حرمتها التوراة عليهم عقابا لهم (الكتب السماوية متممة بعضها البعض وكل عصر له رسالة في الأحكام إلى أن ختم الرسالات بالمصطفى محمد ﷺ). إنَّ أديان السماء كلها متكاتفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حاله العصر زمانًا ومكانًا.

---

(١) سورة النساء (٦ /١٥٩).

(٢) سورة المؤمنون (١٨ /٥٠).

قال الله تعالى:

{ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ } (١).

لقد حدد لهم هدف الرسالة والمنهج أن الله ربي وربكم فاعبدوه بطاعة أوامره إلا أن بني إسرائيل مع كل هذه الآيات كفروا.

قال الله تعالى:

{ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ }(٢).

---

(١) سورة آل عمران (٣ /٤٨: ٥١).

(٢) سورة آل عمران (٣ /٥٢: ٥٣).

وعندما أحس عيسى –عليه السلام – منهم الكفر، أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة فآمن معه الحواريون– والحور هو شدة البياض وهم جماعة أشرقت في وجوههم سماء الإيمان فكأنها مشرقة بالنور– والإيمان أمر غيبي عقدي في القلب وجاء على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام؛ لأنَّ الإسلام خضوع لمتطلبات الإيمان وأحكامه، وقد بلغهم ذلك وعملوا به وأعلنوا الإيمان بما جاء به عيسى

آمن الحواريون، لكن التردد ولا يزال موجودًا في نفوسهم.

قال الله تعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞۖ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ} (١).

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك التردد. **قال الله تعالى**: { إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ

(١) سورة الصف (٢٨ /١٤).

خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ } (١).

استجاب الله عزَّ وجلَّ لهم، ولكنه حذرهم من الكفر بعد هذه الآية التي جاءت تلبية لطلبهم.

المائدة، وأكل الحواريون فيها وظلوا على إيمانهم وتصديقهم لعيسى –عليه السلام– وبدأ الناس يتحدثون عن معجزات عيسى عليه السلام، خاف رهبان اليهود أن يتبع الناس الدين الجديد فيضيع سلطانهم.

قال الله تعالى: { وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ } (٢).

وعندما بلغ عيسى (عليه السلام) أنهم يريدون قتله، خرج على أصحابه وسألهم من منهم مستعد أن يلقى الله عليه شبهه فيصلب بدلًا منه ويكون معه في الجنة، فقام شاب فحن عليه عيسى عليه السلام لأنه لا يزال شابًا. فسألهم مرة ثانية، فقام نفس الشاب، فنزل عليه شبه عيسى (عليه السلام) ورفع الله عيسى أمام أعين الحواريين إلى السماء، وجاء اليهود وأخذوا الشبه وقتلوه، ثمَّ صلبوه (٣).

---

(١) سورة المائدة (٧/١١٥:١١١).

(٢) سورة آل عمران (٣ /٥٣: ٥٧).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢ /٤٤٨).

قال الله تعالى: { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }(١).

وجاءت روايات كثيرة عن رفع عيسى عليه السلام وهذه أرجحها (والله أعلى وأعلم).

ولقد اختلف النصارى في أمر رفعه عليه السلام.

قال الله تعالى: { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ }(٢).

يقول ابن كثير: "اختلفت الفرق وصاروا شيعًا فيه، منهم من يقرّ بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق- ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله -تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا- (٣).

يقول ابن عباس: افترق النصارى ثلاث فرق.

فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثمَّ صعد إلى السماء.

وقالت طائفة: كان فينا ابن الله ما شاء ثمَّ رفعه الله إليه.

وقالت طائفة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثمَّ رفعه الله إليه.

---

(١) سورة النساء (٧ /١٥٦: ١٥٨).

(٢) سورة الزخرف (٦٤/٢٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٧ /٢٣٧).

قال الله تعالى: { وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ }(١).

لقد بين –سبحانه وتعالى – أن اليهود قالوا أن عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله – سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا – ذلك قولهم بأفواههم أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم يضاهؤن أي يشابهون قول الذين كفروا من قبل أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء قاتلهم الله قال ابن عباس: لعنهم الله أنى يؤفكون؟ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل !

ثم ذكر علة قولهم بأن هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب يريدون أن يطفؤا نور الله –أي ما بعث به رسول الله ﷺ –من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم وهذا لا سبيل إليه . فهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق –(فالهدى هو ما جاء به من الأخبار الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة). ليظهره على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»(٢).

---

(١) سورة التوبة (١٠ /٣٢: ٣٠).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

فذلك قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ}(١)

فأمة محمد (ﷺ) لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله.

فلله الحمد والمنَّة.

قال الله تعالى: { يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ } (٢).

يوجه الحق جل وعلا أهل الكتاب إلى عدم المغالة في ادعاءات الألوهية للبشر، فإن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه بيده.

---

(١) سورة الصف (٢٨ / ١٤).

(٢) سورة النساء (١٧١/٦).

قال الله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ}(١).

فاعلموا أن الكون كله ناشيء بأمر الله في (كن) سبحانه وتعالى جل شأنه.

ثمَّ أرشد الناس إلى صحيح العقيدة في عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: { مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ }(٢).

تتكلم هذه الآية عن بشرية عيسى عليه السلام وأمه،وأن شأنه شأن سابق النبيين والمرسلين.

ولقد أيدّ الله –عزَّ وجلَّ – سيدنا عيسى –عليه السلام– بالمعجزات فأمره أن يأتي بالطين وجعله كهيئة الطير، ونفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله

ولم يكن لعيسى أن يفعل هذا إلا بأمر الخالق؛ فهو إنسان من الخلق، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال.

ولكل نبي وكل رسول جاء من الكرامات والمعجزات ما تشهد لهم بالنبوة فيما تميز أهل عصره؛ مثل: عصا موسى عليه السلام لم يكن سحرًا، ولكن نقلها الله عزَّ وجلَّ من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتغيرت حية في عصر نبغ فيه السحر.

وكذلك عيسى (عليه السلام) جاء في زمن كان الطب قد بلغ فيه مثلًا عظيمًا فأعطاه الله ما تفوق على أهل عصره على أن يشفي بكلمة واحدة الأكمه والأبرص، أو أن يعيد الميت من موته إلى الحياة، فعلى الرغم من تقدمهم في الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك.

---

(١) سورة ال عمران (٣/ ٥٩).

(٢) سورة المائدة (٦/ ٧٥).

والمثال في الإسلام الإسراء برسولنا ونبينا محمد (ﷺ) حيث حدث الإسراء في لمح البصر، ونحن في زماننا نرى التقدم الآلي والفني قد اخترع الصواريخ بنظام دقيق بعد تجارب مضميه، ولكن الحق عندما أراد، لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة في التو واللحظة من اقتدار مقتدر سبحانه.

فليعلم الناس أن ما فعله الرسل ليس قدرة بشرية، ولكنه قدرة فوق قدرة البشر تجريها على الرسل لإثبات صدقهم في تبليغ رسالتهم بوحدانية الله واتباع منهجه الرباني.

لأنه لا تسليم لأحد إلا الله.

ولأن النبي –ﷺ – هو خاتم الأنبياء والمرسلين فقد بشر به كل السابقين ومنهم عيسى –عليه السلام–.

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }(١).

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ نَحْوٌ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا، فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَجَعْفَرٌ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُرْفُطَةَ، وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَأَبُو مُوسَى، فَأَتَوْا النَّجَاشِيَّ، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ بِهَدِيَّةٍ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّجَاشِيِّ سَجَدَا لَهُ، ثُمَّ ابْتَدَرَاهُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَا لَهُ: إِنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عَمِّنَا نَزَلُوا أَرْضَكَ، وَرَغِبُوا عَنَّا وَعَنْ مِلَّتِنَا، قَالَ: فَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ فِي أَرْضِكَ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ جَعْفَرٌ: أَنَا خَطِيبُكُمُ الْيَوْمَ فَاتَّبَعُوهُ، فَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْجُدْ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ؟ قَالَ: إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: " إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ ﷺ، وَأَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ "، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: فَإِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ؟ قَالُوا: نَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ، هُوَ كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحُهُ، أَلْقَاهَا إِلَى

(١) سورة الصف (٢٨ / ٦).

الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، وَلَمْ يَفْرِضْهَا وَلَدٌ، قَالَ: فَرَفَعَ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْحَبَشَةِ، وَالْقِسِّيسِينَ، وَالرُّهْبَانِ، اللهِ مَا يَزِيدُونَ عَلَى الَّذِي نَقُولُ فِيهِ مَا يَسْوَى هَذَا، مَرْحَبًا بِكُمْ، وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، فَإِنَّهُ الَّذِي نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ، وَإِنَّهُ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، انْزِلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَاللهِ لَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحْمِلُ نَعْلَيْهِ، وَأُوَضِّئُهُ، وَأَمَرَ بِهَدِيَّةِ الْآخَرِينَ فَرُدَّتْ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ تَعَجَّلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَدْرَكَ بَدْرًا، وَزَعَمَ أَنَّ: النَّبِيَّ ﷺ، اسْتَغْفَرَ لَهُ حِينَ بَلَغَهُ مَوْتُهُ "(١).

والوحى الإلهي ينير بصيرة رسول الله (ﷺ) بأنَّ النجاشي (أنه لا يظلم عنده أحد) فالرسول لا ينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا، وَرَأَتِ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»(٢).

لا يزال عيسى –عليه السلام– حيًّا؛ ويدل على ذلك أحاديث صحيحة كثيرة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ: دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطٌ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُعَطِّلُ الْمِلَلَ، حَتَّى تَهْلِكَ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلُ كُلُّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ الْكَذَّابَ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ وَالْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ، لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ "(٣).

---

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤٠٠).

(٢) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٢٦١).

(٣) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٦٣٢).

ففي الحديث الذي جاء براوية أخرى يحدد لنا رسولنا الكريم مدة مكوثه في الأرض عَنِ ابْنِ المسَيِّبِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ثمَّ يُتَوَفَّى، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ". (١).

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ }(٢)

ويخبرنا المولى عزَّ وجلَّ بحوار لم يقع بعد، هو حواره مع عيسى عليه السلام يوم القيامة.

ليبين لنا القول الفصل في اعتقاد ألوهية عيسى عليه السلام، أو أنه ابن الله فهو شأنه شأن النبيين والمرسلين، وأنه محاسب على أعماله لا محالة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٢٢٢).

(٢) سورة المائدة (٧/١٢٥: ١٢٩).

قال الله تعالى: { ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ }(١).

هذا هو عيسى بن مريم عليه السلام، آخر الرسل قبل سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

لا يتم إيمان مؤمن إلا أن يؤمن بأن عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله.

قال الله تعالى: { قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ }(٢).

وهكذا تنزه سبحانه عن الشريك والنظير والولد تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

فكان أول الخلق إقرار لوحدنيته، وكذلك آخر الأنبياء جاء تأكيدًا لذلك، وختم بآخر الأديان وهو الإسلام؛ ليتحقق الخضوع والتسليم التام لله رب العالمين.

فهيَّا بنا لنقف مع نبي الإسلام فَبِه تمام الرسالات.

قال الله تعالى: { إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ }(٣)

---

(١) سورة مريم (١٦ /٣٣: ٣٥).

(٢) سورة يونس (١١/ ٦٨: ٧٠).

(٤) سورة آل عمران (٣/ ١٩) .

قصة سيدنا محمد ﷺ

قال الله تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ }(١).

وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين، ففي الدين مبدأ ومنهج ينظم كل شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس.

نسبه ومولده (٢):

كان رسول الله -ﷺ- أشرف الناس نسبًا وأعظمهم مكانةً وفضلًا، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وينتهي نسبه الشريف -ﷺ- إلى سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم -عليهما السلام- ولما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرًا ونذيرًا.

حياته في الأربعين عامًا قبل النبوة:

رضاعته: رضع محمدٌ -عليه الصلاة والسلام- من حليمة السعدية بعد أن قدمت إلى قريش تلتمس أيّ من الرضعاء، وكان لها ابنًا رضيعًا لا تجد ما يسدّ جوعه، ذلك بعد أن رفضت نساء بن سعد إرضاع النبي -عليه السلام- بسبب فقده لوالده؛ ظنًّا منهنَّ ألَّا تعود عليهنَّ رضاعته بالخير والأجر؛ وبسبب ذلك نالت حليمة السعدية بركةً في حياتها وخيرًا عظيمًا لم ترَ مثله قطّ، ونشأ محمّد -عليه السلام- بخلاف غيره من الشباب من حيث القوة والشدة. وعادت به إلى أمّه بعد أن بلغ العامين من عمره واستأذنتها ببقاء محمدٍ عندها خوفًا عليه من الأمراض في مكة، وعاد معها بالفعل، وفي

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٧/١٧).

(٢) ينظر سيرة ابن هشام (١٥٨/١).

أحد الأيام أتاه جبريل وشقّ صدره واستخرجه، واستخرج من قلبه علقةً وقال إنها حظّ الشيطان منه، فغسلها بماء زمزم في طست من ذهب، ثمَّ لأمه وأعاده مكانه، فكانت حادثة شقّ الصدر، وكان ذلك الأمر الفاصل في عودته إلى أمه.

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك –رضي الله عنه–: (أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ...) (١).

كفالته: توفيت والدة النبي –عليه السلام– آمنة بنت وهب وهو ابن ست سنواتٍ، وكانت عائدةً به من منطقة الأبواء؛ وهي منطقةٌ واقعةٌ بين مكة والمدينة، إذ كانت في زيارةٍ لأخواله من بني عدي من بني النجار، فانتقل بعدها للعيش في كفالة جدّه عبد المطلب حيث كان يعتني به اعتناءً شديدًا؛ ظانًّا فيه الخير والشأن العظيم، ثمَّ توفي جدّه والنبي في الثامنة من عمره، وانتقل بعدها للعيش في كفالة عمه أبي طالب، وكان يأخذه معه في رحلاته التجارية، وفي إحدى الرحلات أخبره إحدى الرهبان بأنَّ محمدًا سيكون ذا شأنٍ عظيمٍ.

عمله: برعي للأغنام عمل الرسول –عليه الصلاة والسلام– في رعي أغنام أهل مكة، وفي ذلك يقول –عليه الصلاة والسلام–: (ما بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ، فقالَ أَصْحابُهُ: وأَنْتَ؟ فقالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعاها علَى قَرارِيطَ –جزء من الدينار والدرهم– لأَهْلِ مَكَّةَ) (٢)، وبذلك كان النبي –عليه السلام– قدوةً في كسب الرزق.

عمله بالتجارة: كانت خديجة بنت خويلد –رضي الله عنها– ذات مالٍ كثيرٍ ونسبٍ رفيعٍ، وكانت تعمل في التجارة، وحين بلغها أن محمدًا رجلٌ صادقٌ في قوله أمينٌ في عمله كريمٌ في أخلاقه استأمنته

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١٦٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٢٢٦٢).

على الخروج تاجرًا بأموالها مع غلامٍ لها يُدعى ميسرة مقابل الأجر، فخرج -عليه الصلاة والسلام- تاجرًا إلى بلاد الشام، وجلس في الطريق تحت ظلّ شجرةٍ قريبةٍ من راهبٍ، فأخبر الراهب ميسرة أنَّ مَن نزل تحت تلك الشجرة لم يكن إلّا نبيًّا، وأخبر ميسرة خديجة بقول الراهب، ممَّا كان سببًا في طلبها الزواج من الرسول، فخطبها له عمّه حمزة، وتزوّجا (١).

مشاركته في بناء الكعبة: عقدت قريش العزم على تجديد بناء الكعبة؛ لحمايتها من الهدم بسبب السيول، واشترطوا بناءها من الأموال الطيبة التي لم يدخلها أي نوعٍ من الربا أو الظلم، وتجرّأ الوليد بن المغيرة على الهدم، ثمَّ شرعوا بالبناء شيئا فشيئا إلى أن وصلوا إلى موضع الحجر الأسود، إذ وقع الخلاف بينهم في مَن سيضعه في موضعه، وتراضوا على قبول حكم أول داخلٍ عليهم، وكان الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وأشار عليهم بأن يضع الحجر الأسود على ثوبٍ تحمله كل قبيلةٍ من طرفٍ ليضعه في مكانه، وقبلوا بحكمه دون خلافٍ، وبذلك كان رأي الرسول -عليه الصلاة والسلام- عاملًا في عدم تنازع قبائل قريش وعدم خلافها فيما بينها.

بداية الوحي: كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- يخلو بنفسه في غار حراء في شهر رمضان تاركًا كلّ من حوله؛ مبتعدًا عن كلّ باطلٍ، محاولًا التقرّب من كلّ صوابٍ قدر ما استطاع، متفكّرًا في خلق الله وإبداعه في الكون، وكانت رؤياه واضحةً لا لبس فيها، وبينما هو في الغار جاءه ملكٌ قائلًا: (اقرأ)، فردّ الرسول قائلًا: (ما أنا بقارئ)، وتكرّر الطلب ثلاث مرّاتٍ، وقال الملك في المرة الأخيرة: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، فعاد إلى خديجة وهو في حالة فزعٍ شديدٍ ممَّا حصل معه، فطمأنته.

قال الله تعالى:

{ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ }(٢)

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام (١/١٨٧).

(٢) سورة العلق (٣٠/١: ٥).

قال الإمام ابن كثير: فأول خطاب إلهي وجه إلى النبي -ﷺ -من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم والقرآن فيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم؛ لأنه شعار دين الإسلام أي اقرأ يا محمد القرآن مبتدئًا ومستعينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق جميع المخلوقات، وأوجد جميع العوالم.

وفي ذلك روت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وهو التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ له النبيُّ ﷺ: فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ} [العلق: ١]- حتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الإنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٥]) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ(١).

ثمَّ أخذت به خديجة -رضي الله عنها- إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان شيخًا كبيرًا لا يُبصر يكتب الإنجيل بالعبرية، وأخبره الرسول بما حصل، فقال ورقة: (هذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علَى مُوسَى، يا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ فَقالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا). ثمَّ توفي ورقة، وانقطع الوحي عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- فترةً من الزمن، وقيل إنّها استمرت لأيامٍ فقط، والغاية من ذلك طمأنة الرسول وتشويقه للوحي مرةً أخرى، إلّا أنّ النبي -عليه السلام- لم

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٣).

ينقطع عن الخلوة بنفسه في غار حراء، بل استمرّ على ذلك، وفي إحدى الأيام سمع صوتًا من السماء وكان جبريل -عليه السلام-، ونزل بقول **الله تعالى**: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧} (١).

وبذلك أمر الله -تعالى- نبيّه بالدعوة إلى توحيده وعبادته وحده.

قال الإمام القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، من الكريم إلى الحبيب

"وربك فكبر" عظيم ربك، وخصه بالتمجيد والتقديس وأفرده بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله. "وثيابك فطهر" قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: في كلام العرب نقي الثياب. وقال ابن زيد كان المشركون لا يتطهرون فأمر الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير.

"والرجز فاهجر" قال ابن زيد: الرجز – الأهلة التي كانوا يعبدونها – فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها. " ولا تمنن تستكثر" قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وطاووس وأبو الأحوص، وإبراهيم والضحاك، وقتادة والسدى وغيرهم. "ولربك فاصبر" اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله قاله مجاهد (٢).

وبذلك اليوم بدأت الدعوة.

قال الله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ

---

(١) سورة المدثر (٢٩ / ١: ٧).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٦٦).

لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ }(١).

ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفضيل، ولكن جعلنا هذا القرآن نذيرًا وضياء تهدى به عبادنا المتقين بأمر الله، "الذي له ما في السماوات وما في الأرض"؛ أي ربهما وملكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ترجع الأمور إليه فيفصلها، ويحكم فيها سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: { وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ } (٢).

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين؛ ذلك ليطمئن الآخرون من قومه، فهو يأمرهم بأمر ليس ينجوه عنه، فأول ما ألزم به ألزم نفسه بين عشيرته وهذا أدعى للطاعة وللقبول.

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه فكان يقول لقرابته: يا عباس يا عم رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا، ثمَّ خفض الجناح لباقي المؤمنين به رحيمًا بهم، حنونًا عليهم باللطف واللين في المعاملة.

يقول الحق سبحانه: فمن اتبعك مؤمنًا فتواضع له، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم معلنها للجميع. ثمَّ فوض جميع أمورك إلى الله العزيز الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته.

---

(٣) سورة الشورى (٢٤/ ٥٣).

(١) سورة الشعراء (١٩ /٢١٤ :٢٢٠).

بداية الدعوة:

بدأ يعرض الإسلام بأهله السيدة خديجة فدخلت في الدين مباشرة، جاءه جبريل عليه السلام قال بشّر خديجة بأنَّ الله يقرِئك السلام ويبشرك بالجنة، وقالت هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام. فعن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، فقال: (هذه خديجة تأتيك بإناء فيه طعام – أو إناء فيه شراب، فأقرئها من ربها السلام وبشّرها ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب) (١).

وكل أولاد الرسول من خديجة إلا إبراهيم من مارية القبطية.

كان يعيش معه على أبن أبي طالب رباه في صغره، وكان أول ما دخل الإسلام مع رسول الله ﷺ.

١- السيدة خديجة.

٢- علي بن أبي طالب.

٣- زيد بن الحارثة –كان في بيته.

٤- أبو بكر الصديق.

٥- عثمان بن عفان (ذو النورين).

٦- الزبير بن العوام.

٧- عبد الرحمن بن عوف.

٨- طلحة بن عبيد.

٩- سعد بن أبي وقاص.

١٠- زيد بن عمر، وهو الذي قال عنه الرسول أنه من العشرة المبشرين بالجنة.

وهم العشرة المبشرين بالجنة.

ثمَّ انتشر الإسلام في مكة شيئًا فشيئاً إلى أن جهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من الإسرار بها.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٩٧٢).

عام الحزن:

توفيّت السيدة خديجة التي كانت بمثابة السند لرسول الله ـ ﷺ ـ قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنواتٍ، وفي ذات العام مرض أبو طالب الذي كان يحمي الرسول ـ ﷺ ـ من أذى قريش مرضًا شديدًا، واستغلّت قريش موقف مرضه وبدأت بالتعرّض للرسول ـ ﷺ ـ بالأذى الشديد، وذهبت مجموعة من أشراف قريش إلى أبي طالب حين اشتدّ مرضه وطلبت منه أن يكفّ الرسول ـ ﷺ ـ عن دعوته، فحدّثه أبو طالب بما يريدون، ولم يلتفت لذلك، وقبل وفاة أبي طالب حاول معه الرسول ـ ﷺ ـ بنطق الشهادتين إلّا أنّه لم يستجب، وتوفي على حاله، وبوفاته ووفاة خديجة -رضي الله عنها- حزن الرسول ـ ﷺ ـ حزنًا شديدًا؛ إذ كانا بمثابة السند والدعم والحماية له، وسمّي ذلك العام بعام الحزن.

رحلة الإسراء والمعراج:

هي إحدى معجزاته -ﷺ- وتسلية عما لقيه من الإيذاء؛ حيث أذاه قومه وكذبوه وتجمهروا له وألجؤوه إلى الطائف فكان أهلها أشد قسوة من إخوانهم في مكة فعاد منكرًا داميًا وكان من دعائه: (دعاء النبي ﷺ) {اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أتنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك، فالله سميع لقول نبيه محمد ﷺ، وبصير لفعله. فقد كان الرسول ـ ﷺ ـ في أشد الظروف حريصًا على دعوته.

قال الله تعالى: { سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١}(١).

يمجد الله نفسه ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه لا إله غيره، ولا رب سواه سبحانه وتعالى منزه في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو الذي أسرى بعبده محمد ﷺ زمنًا من الليل بجسده وروحه، يقظة لا منامًا من المسجد الحرام بـ"مكة" إلى المسجد الأقصى بـ"بيت المقدس" الذي بارك الله حوله من أرض خصبة عليها الحدائق والبساتين التي تحوى مختلف الثمار.

المسجد الأقصى مهد الرسالات ومهبط الأنبياء، تعطرت أرضه بأقدام إبراهيم وإسحاق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى، وفيه هبط الوحي ونزلت الملائكة.

قال الله تعالى: { هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨ }(٢).

الله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله خصوصية أن يريه من آيات الغيب ليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدنيته، وحفاوة السماء له ويريه مكانته عند ربه، الذي قال له:

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾(٣)

---

(١) سورة الإسراء (١٥ /١).

(٢) سورة الفتح (٢٥ /٢٨).

(٣) سورة النحل (١٤ /١٢٧).

لأنك في سعة من عطاء الله. فأنت الذي أرسله ربه بالبيان الواضح ودين الإسلام، ليعليه على الملل كلها، وحسبك أيها الرسول ـ ﷺ ـ، بالله شاهد على أنه ناصرك ومظهر دينك على كل دين.

ولقد اختلفت الروايات التي حدّدت تاريخ رحلة الإسراء والمعراج؛ فقيل إنّها كانت في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب من السنة العاشرة من النبوة، ومنهم من قال بأنّها كانت بعد البعثة بخمس سنواتٍ، وكانت الرحلة بحيث أُسري برسول الله من البيت الحرام في مكة المكرمة إلى بيت المقدس(١) على دابةٍ تسمّى البراق برفقة جبريل -عليه السلام-.ثمَّ عُرج به إلى السماء الدنيا حيث التقى بآدم -عليه السلام-، ثمَّ إلى السماء الثانية والتقى بيحيى بن زكريا وعيسى بن مريم -عليهما السلام-، ثمَّ إلى السماء الثالثة التي رأى فيها يوسف -عليه السلام-، ثمَّ التقى بإدريس -عليه السلام- في السماء الرابعة، وهارون بن عمران -عليه السلام- في السماء الخامسة، وموسى بن عمران في السماء السادسة، وإبراهيم -عليه السلام- في السماء السابعة، وتمَّ السلام بينهم وإقرارهم بنبوّة محمّدٍ -عليه السلام-، ثمَّ رُفع بمحمدٍ إلى سدرة المنتهى، وفرض الله عليه خمسين صلاة، ثمَّ خفّفها إلى خمسٍ.

الصلاة ومكانتها في الإسلام:

جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت المقدس، قال: فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثمَّ دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثمَّ خرجت، فجاء جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، قال

(١) ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء في المسجد الأقصى ، وكانت الصلاة في ذلك الوقت قد فرضت ركعتين أول النهار وركعتين آخره ، فصلى بهم هذه الصلاة قبل أن تفرض بكيفيتها المفروضة علينا في المعراج. يقول فضيلة الشيخ عطية صقر – رحمه الله تعالى – : ثبَت في صحيح مسلم عن أنس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلَّى ليلة الإسراء ببيت المقدس ركعتين، كما ثبت أنه صلى بالأنبياء إمامًا، أي بعد صلاة الركعتين، وأنكر حذيفة بن اليمان صلاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ببيت المقدس، محتجًّا بأنه لو صلَّى فيه لكَتب عليكم الصلاة فيه كما كَتب عليكم الصلاة في البيت العتيق. لذا فقد وجب علينا التسليم والوقوف عن الصحيح الوارد إلينا، أما عن كيفية صلاته بالأنبياء فلم يرد عنه شيء في القرآن وصحيح السنة.

جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثمَّ عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل عليه السلام – قيل: من أنت؟ قال جبريل: أقبل ومن معك ! قال: محمد ﷺ – قيل: وبعث إليه؟ قال: لقد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم – ﷺ – فرحب بي، ودعا لي بالخير ثمَّ عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل – عليه السلام – فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابن الخال عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، فرحبا بي، ودعوا لي بخير ثمَّ عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ ففتح لنا فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أعطى شطر الحسن، قال: فرحب بي، ودعا لي بالخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا بإدريس، فرحب بي، ودعا لي بخير، قال الله – عز وجل – (ورفعناه مكانًا عليًّا) ثمَّ عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون –عليه السلام– فرحب بي، ودعا لي بالخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب بي، ودعا لي بخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، فقيل وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم، سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثمَّ ذهب إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنَّ أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وقبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال:

فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى –عليه السلام– حتى قال الله: يا محمد إنها خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها، لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى –عليه السلام– فأخبرته، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه" (١).

ونظرًا لمكانة الصلاة في الإسلام فقد حضَّ نبي الإسلام –ﷺ – عليها وحث على المحافظة على أدائها كاملة في أوقاتها.

عن أبي قتادة– رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ – ***قال الله تعالى***: (إني فرضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندي عهدًا أنه من جاء يحافظ عليهنَّ، لوقتهنَّ، أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهنَّ فلا عهد له عندي).

عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي – رضي الله عنه– خادم رسول الله ﷺ ومن أهل الصُّفَّة قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ – فسآتيه بوضوئه وحاجته فقال لي: "سلني" فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: "أو غير ذلك"، قلت هو ذاك، قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود".

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) سورة النجم (٢٦ / ١٣ :١٨).

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج معجزة بكل المقاييس، وكذلك تخفيفًا ودعمًا لدعوته ﷺ – فلقد رأى محمد ﷺ – جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند سدرة المنتهى – شجرة نبق – وهي في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض، وينتهي إليها، ما يهبط به من فوقها عندها جنة المأوى التي وعد بها المتقون، إذ يغشى السدرة من أمر الله شيء عظيم، لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل، وكان النبي ﷺ – على صفة عظيمة من الثبات والطاعة، فما مال بصره يمينًا ولا شمالًا ولا جاوز ما أمر برؤيته، لقد رأى محمد ﷺ – ليلة المعراج من آيات ربه الكبرى الدالة على قدرة الله وعظمته من الجنة والنار وغير ذلك.

قال الله تعالى: { فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ } (١)

فاجهر بدعوة الحق التي أمرك أللّه بها ولا تبال بالمشركين، فقد برّأك الله ممَّا يقولون، فافزع إلى ربك عند ضيق صدرك، وسبح بحمده شاكرًا له مثنيًا عليه، وكن من المصلين لله العابدين له تعش في كنف رحمته سبحانه.

قال الله تعالى:

{ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ } (٢).

---

(١) سورة الحجر (١٤ /٩٣: ٩٨).

(٢) سورة يوسف (١٣/١٠٨).

قل لهم أيها الرسول هذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي، وأنزه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء ولست من المشركين مع الله غيره.

الدعوة خارج مكة:

توجه رسول الله – ﷺ –إلى الطائف في سبيل دعوة قبيلة ثقيف إلى توحيد الله بعد وفاة عمه وزوجته، وتعرض للأذى من قريش، طالبًا من ثقيف نصرته وحمايته، والإيمان بما جاء به، إلا أنهم لم يستجيبوا وقابلوه بالسخرية والاستهزاء.

الهجرة إلى الحبشة(١):

حثّ رسول الله أصحابه على الهجرة إلى أرض الحبشة؛ نظرًا لما تعرّضوا له من التعذيب والأذى، مخبرًا إيّاهم بأنَّ فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، فخرجوا مهاجرين، وكانت تلك أوّل هجرةٍ في الإسلام، وقد بلغ عددهم ثلاثًا وثمانين رجلًا، وحين علمت قريش بأمر الهجرة أرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بالهدايا والعطايا إلى النجاشي ملك الحبشة وطلبوا منه ردّ المسلمين المهاجرين؛ احتجاجًا بأنّهم فارقوا دينهم الذي كانوا عليه، إلّا أنّ النجاشي لم يستجب لهم.

طلب النجاشي من المسلمين بيان موقفهم، فتكلّم عنهم جعفر بن أبي طالب، وحدّث النجاشي بأنَّ الرسول ـ ﷺ ـ أرشدهم إلى طريق الصلاح والحق بعيدًا عن طريق الفواحش والرذائل فآمنوا به، وتعرّضوا للأذى والسوء بسبب ذلك، وقرأ عليه جعفر بداية سورة مريم فبكى النجاشي بكاءً شديدًا، وأخبر رسل قريش بأنّه لن يسلّم أحدًا منهم، وردّ هداياهم إليهم، إلّا أنّهما عادا إلى النجاشي في اليوم التالي يخبرانه بأنَّ المسلمين يتأوّلون القول على عيسى بن مريم، وسمع من المسلمين رأيهم بعيسى فأخبروه بأنّه عبد الله ورسوله، وبذلك صدّق النجاشي المسلمين وردّ عبد الله وعمرو.

---

(١) ينظر: تهذيب سيرة ابن هشام صـ٧٢.

بيعة العقبة الأولى والثانية (١):

أتى وفدٌ من الأنصار يبلغ عددهم اثنا عشر رجلًا إلى الرسول ـ ﷺ ـ ليبايعوه على توحيد الله – سبحانه– وعدم السرقة وعدم الوقوع في الزنا أو المعاصي أو القول الزور، وتمّت تلك البيعة في مكانٍ يسمّى العقبة؛ ولذلك سمّيت ببيعة العقبة الأولى، وأرسل معهم الرسول ـ ﷺ ـ مصعب بن عمير يعلّمهم القرآن ويبيّن لهم أمور الدين، وفي العام التالي في موسم الحج قدم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث وسبعون رجلًا وامرأتين؛ ليبايعوه، وتمّت بذلك بيعة العقبة الثانية.

الهجرة النبوية (٢):

هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة؛ حفاظًا على دينهم وأنفسهم، ولإقامة وطنٍ آمنٍ يعيشون فيه وفق أصول الدعوة، وكان أبو سلمة وعائلته أول من هاجر، وتبعه صهيب بعد أن تنازل عن كلّ ما يملك من مالٍ لقريش في سبيل توحيد الله والهجرة في سبيله، وهكذا تبع المسلمون بعضهم البعض في الهجرة حتى كادت مكّة أن تصبح خاليةً من المسلمين؛ ممَّا أدّى بقريش إلى الخوف على نفسها من عواقب هجرة المسلمين، فاجتمع نفرٌ منها في دار الندوة بحثًا عن طريقةٍ للتخلّص بها من الرسول –عليه الصلاة والسلام–، وانتهى بهم الأمر إلى أن يأخذوا من كل قبيلةٍ شابًا ويضربون الرسول ضربة رجلٍ واحدٍ؛ ليتفرّق دمه بين القبائل ولا يستطيع بنو هاشم على الثأر منهم.

وفي ذات الليلة أذِن الله لرسوله بالهجرة فاتّخذ أبا بكرٍ رفيقًا له، وجعل عليًّا في فراشه وأوصاه بردّ الأمانات التي كانت عنده إلى أصحابها، واستأجر الرسول عبد الله بن أريقط ليدلّه على الطريق إلى المدينة، فخرج الرسول مع أبي بكرٍ قاصدَين غار ثور، وحين علمت قريش بفشل خطّتها وهجرة الرسول بدأوا بالبحث عنه، إلى أن وصل أحدهم إلى الغار فأصاب أبو بكر الخوف الشديد على الرسول، إلّا أنّ الرسول طمأنه، وبقيا في الغار ثلاثة أيامٍ إلى أن استقرّت الأحوال وتوقّف البحث

---

(١) ينظر: تهذيب سيرة ابن هشام صـ١٠٢.

(٢) ينظر: فقه السيرة صـ١٦٥.

عنهما، ثمَّ استأنفا مسيرهما إلى المدينة ووصلا إليها في السنة الثالثة عشر من البعثة، في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وأقام أربع عشرة ليلة في بني عمرو بن عوف، أسّس خلالها مسجد قباء أول مسجدٍ بُني في الإسلام، وبدأ بعدها بإقامة أسس الدولة الإسلامية.

العهد المدني بناء المسجد:

أمر رسول الله ـ ﷺ ـ ببناء المسجد على أرضٍ اشتراها من غلامين يتيمين، وبدأ الرسول مع أصحابه بالبناء، وجُعلت قبلته إلى بيت المقدس، وكانت للمسجد أهميةٌ عظيمةٌ؛ إذ كان مكان لقاء المسلمين للصلاة وغيرها من الأمور، بالإضافة إلى تعلّم العلوم الشرعية، وتعميق الصلات والعلاقات بين المسلمين.

قال الله تعالى:

{ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}(١).

ويروي ابن كثير في البداية والنهاية (٢) الروايات المتعددة لتحويل القبلة، إذ اختلف حول تحديد موعد تحويلها،

فقيل في رجب في السنة الثانية من الهجرة.

وقيل إنها حدثت في شعبان.

وقيل إنها حدثت في النصف من شعبان بعد ثمانية عشر شهرًا من الهجرة.

وروى البخاري حديثًا عن البراء ـ رضي الله عنه ـــ يوضح قصة تحويل القبلة، فيروي البراء أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأنه صلى، أو صلاها، صلاة

---

(١) سورة البقرة (١٤٣/٢).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٢٥٢/٣).

العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: "وما كان الله ليضيع إيمانكم إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم".

أول صلاة للمسلمين بعد تحويل القبلة:

كان النبي ﷺ يصلي في مكة متجهًا إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما هاجر إلى المدينة لم يستطع أن يجمع بين الاثنين، فصلى في بداية الأمر إلى بيت المقدس، وعقب ذلك بحوالي ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، استقبل الكعبة، وكان ﷺ يحب أن تكون قبلته إلى الكعبة قبلة إبراهيم، فكان يكثر الدعاء والتضرع إلى الله لذلك؛ ولذا أنزل الله سبحانه وتعالى: قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام.

يروي ابن كثير أنه بمجرد نزول الآيات خطب رسول الله ﷺ في المسلمين وأخبرهم بتحويل القبلة، وكان ذلك: في وقت صلاة الظهر.

وقال بعضهم إنَّ تحويلها حدث بين الصلاتين.

وثبت في صحيح البخاري ومسلم أن أول صلاة صلاها الرسول ﷺ متجهًا إلى الكعبة كانت العصر، لكن لم يصل الخبر للمسلمين في قباء إلا في صلاة الصبح من اليوم التالي.

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: "بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة"(١).

الكعبة قبلة موسى والأنبياء قبله:

يروي ابن كثير في البداية والنهاية: أن "الكعبة" كانت قبلة الأنبياء قبل رسول الله ﷺ، فكان يصلي به موسى ومن قبله من المرسلين، قائلًا إنَّ اختيار أفضل الجهات في الصلاة هو اختيار لله أيضًا للأمة المسلمة أن تكون "خيار الأمم

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦).

وخلاصة العالم وأشرف الطوائف"، مستندًا إلى قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا".

تحويل القبلة اختبار كاشف: "من يتبع الرسول ومن ينقلب على عقبيه"

لم يكن حدث تحويل القبلة هينًا، بل كان اختبارًا وامتحانًا للناس، فبينما تقبل البعض الأمر بسرعة وسلاسة، فتن البعض الآخر، وبينما رضخ بعض المسلمين دون مخاوف، قلق آخرون حول صلواتهم السابقة ومن مات قبل تحويل القبلة، هل حبطت أعمالهم؟

فيروي ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نقل الترمذي عنه، أن النبي ﷺ حين وجه إلى الكعبة قالوا: "يا رسولَ اللهِ ﷺ كيف بإخوانِنا الذين ماتوا وهم يُصلون إلى بيتِ المقدسِ؟ فأنزل اللهُ تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)".

ويروي ابن كثير أن الله سبحانه وتعالى أوضح حكمته من هذا الأمر ردًّا على من شكك وارتاب بهذه الواقعة فيقول ابن كثير: "فقال –سبحانه وتعالى-: "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول".

قال ابن عباس: إلا لنرى من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة؛ أي وإن كانت هذه الكائنة العظيمة الموقع كبيرة المحل شديدة الأمر إلا على الذين هدى الله أي فهم مؤمنون بها مصدقون لها، لا يشكون ولا يرتابون بل يرضون، ويسلمون، ويؤمنون، ويعملون؛ لأنهم عبيد للحاكم العظيم القادر المقتدر الحليم الخبير اللطيف العليم ([1]).

المؤاخاة:

آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار من المسلمين وفق أسس العدل والمساواة، فالدولة لا يُمكن أن تُقام إلّا بتوحّد أفرادها، وإقامة العلاقة بينهم على أساس حبّ الله ورسوله ﷺ والبذل في سبيل الدعوة، وبذلك جعل رسول الله مؤاخاتهم مرتبطةً بعقيدتهم، ومنحت المؤاخاة للأفراد تحمّل مسؤولية بعضهم البعض.

([1]) ينظر: تفسير ابن كثير (١/٤٥٨).

وثيقة المدينة:

كانت المدينة المنورة بحاجةٍ إلى أمرٍ ينظمّها ويضمن حقوق أفرادها، فكتب الرسول ﷺ وثيقةً كانت بمثابة دستورٍ بين المهاجرين والأنصار واليهود، وكانت لتلك الوثيقة أهميّةٌ عظيمةٌ؛ إذ كانت بمثابة الدستور الذي ينظّم أمور الدولة في الداخل والخارج، وأقام الرسول البنود بحسب أحكام الشريعة الإسلامية، كما كانت عادلةً من حيث المعاملة مع اليهود، وقد دلّت بنودها على أربعةٍ من الأحكام الخاصة بالشريعة الإسلامية، وهي:

- إنَّ دين الإسلام هو الذي يعمل على وحدة المسلمين وتماسكهم.
- إنَّ المجتمع الإسلامي لا يقوم إلّا بتكافل وتضامن جميع الأفراد، وتحمّل كلٍّ منهم المسؤولية الخاصة به.
- إنَّ العدالة ظاهرةٌ بشكلٍ مفصّلٍ ودقيقٍ.
- إنَّ مردَّ المسلمين دائمًا إلى حكم الله -تعالى- المبيّن في شريعته.

الغزوات والسرايا:

خاض النبي ﷺ عددًا من الغزوات والمعارك بهدف إقامة الحق ودعوة الناس إلى توحيد الله -تعالى- بإزالة العوائق التي تُحيل دون نشر الدعوة، وتجدر الإشارة إلى أنّ الغزوات التي خاضها الرسول ﷺ كانت نموذجًا عمليًّا في بيان صورة المُحارب الفاضل واحترام الإنسانية.

وذلك بعد أن بدأت العلاقات تشتدّ بين رسول الله ﷺ في المدينة والقبائل من خارجها؛ ممَّا أدّى إلى وقوع عددٍ من المواجهات القتالية بين الأطراف المختلفة، وسمّي القتال الذي شهده الرسول ﷺ بالغزوة والذي لم يشهده بالسرية.

غزوة بدر الكبرى: وقعت في السنة الثانية من الهجرة، في السابع عشر من شهر رمضان، وسببها اعتراض المسلمين لقافلة قريش المتّجهة إلى مكة بقيادة أبي سفيان، فهبّت قريش لحماية قافلتها وحصل القتال بين المسلمين، وبلغ عدد المشركين ألف مقاتلٍ، فيما كان عدد المسلمين ثلاثمئةٍ وثلاثة

عشر رجلًا، وانتهت بانتصار المسلمين وقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين آخرين وتمَّ عتقهم بالمال.

غزوة أحد:

وقعت في السنة الثالثة من الهجرة، يوم السبت الموافق الخامس عشر من شوال، وسببها رغبة قريش في الثأر من المسلمين لما أصابها يوم بدر، حيث بلغ عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، فيما كان عدد المسلمين نحو سبعمائة رجل جُعل منهم خمسين على ظهر الجبل، وعندما ظنّ المسلمون أنّهم انتصروا بدأوا بجمع الغنائم، فانتهز خالد بن الوليد وكان حينها على الشرك الفرصة، والتفّ على المسلمين من وراء الجبل وقاتلهم؛ ممَّا أدّى إلى انتصار المشركين على المسلمين.

غزوة بني النّضير:

بنو النضير قومٌ من أقوام اليهود نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، فأمر الرسول ﷺ بإبعادهم عن المدينة، وأخبرهم قائد المنافقين عبد الله بن أبيّ بالبقاء في أماكنهم مقابل دعمهم بالمقاتلين، وانتهت الغزوة بإجلاء القوم من المدينة ومغادرتهم لها.

غزوة الأحزاب:

وقعت في السنة الخامسة من الهجرة، وكان سببها توجّه رؤساء بني النضير إلى قريش لتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ، وقد أشار سلمان الفارسي على الرسول ﷺ بحفر خندق؛ لذلك تسمّى هذه الغزوة أيضًا بغزوة الخندق، وانتهت بانتصار المسلمين.

غزوة بني قريظة:

هي الغزوة التالية لغزوة الأحزاب، وقد وقعت في السنة الخامسة للهجرة، وسببها نقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ، وتشكيلهم للأحزاب مع قريش، ورغبتهم في الغدر من المسلمين، فخرج رسول الله ﷺ إليهم مع ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، وحاصروهم خمسًا وعشرين ليلة، فضاقت عليهم الحال، وخضعوا لأمر رسول الله ﷺ.

غزوة الحديبية:

وقعت في السنة السادسة للهجرة من شهر ذي القعدة، ذلك بعد أن رأى رسول الله ﷺ في منامه أنّه ذاهبٌ ومن معه إلى البيت الحرام وهم آمنين محلّقين رؤوسهم، فأمر المسلمين بالتّجهز لأداء العمرة، وأحرموا من ذي الحليفة، ولم يأخذوا معهم إلّا سلاح المسافر؛ لتعلم قريش أنّهم لا يبتغون القتال، ووصلوا إلى الحديبية إلّا أن قريشا منعتهم من الدخول، فأرسل إليهم الرسول عثمان بن عفان يخبرهم بحقيقة مجيئهم، وأُشيع أنّه قتل، فرأى رسول الله ﷺ بأن يُعد العدّة ويقاتلهم، فأرسلوا سهيل بن عمرو للاتفاق معهم على الصلح، وتمَّ الصلح بمنع الحرب مدة عشر سنواتٍ، وأن يردّ المسلمون من يأتيهم من قريش وألّا تردّ قريش من يأتيها من المسلمين، وتحلّل المسلمون من إحرامهم، وعادوا إلى مكّة.

غزوة خيبر:

وقعت في السنة السابعة للهجرة في آخر شهر محرّم، ذلك بعد أن رأى رسول الله ﷺ التخلّص من تجمّعات اليهود؛ حيث إنّها تشكّل خطرًا على المسلمين، وخرج الرسول ﷺ بالفعل لتحقيق مقصده وانتهى الأمر لصالح المسلمين. غزوة مؤتة وقعت في السنة الثامنة للهجرة في جمادى الأولى، وسببها غضب الرسول ﷺ من مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وقد أمّر الرسول على المسلمين زيد بن حارثة وأوصى بإمارة جعفر إن أُصيب زيد، ثمَّ بإمارة عبد الله بن رواحة بعد جعفر، وطلب منهم دعوة الناس للإسلام قبل البدء بالقتال، وانتهى القتال بانتصار المسلمين.

غزوة الفتح:

وقعت في السنة الثامنة للهجرة من شهر رمضان، وهي ذاتها فتح مكة، وتمثّل سبب الفتح في اعتداء بني بكر على بني خزاعة وقتل عددٍ منهم، وقد تجهزّ رسول الله ومن معه للسير إلى مكة، وأسلم حينها أبو سفيان، ومنح رسول الله ﷺ الأمان لمن يدخل بيته؛ تقديرًا لمكانته، ودخل الرسول ﷺ مكّة مكبّرًا شاكرًا الله على الفتح المبين، وطاف بالكعبة المشرّفة وحطّم الأصنام وصلّى ركعتين عند الكعبة، وعفى عن قريش.

غزوة حُنين:

وقعت في السنة الثامنة للهجرة في اليوم العاشر من شهر شوال، وسببها يكمُن في اعتقاد أشراف قبيلتي هوازن وثقيف بقتال الرسول ﷺ لهم بعد فتح مكة فقرّروا مبادرته بالقتال وتوجّهوا لذلك، وخرج إليهم رسول الله ﷺ وكلّ من أسلم معه إلى أن وصلوا وادي حُنين، وكان النصر في بداية القتال لهوازن وثقيف، ثمَّ تحوّل للمسلمين بعد ثبات رسول الله ومن معه.

غزوة تبوك:

وقعت في السنة التاسعة للهجرة من شهر رجب بسبب رغبة الروم بالقضاء على الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وخرج المسلمون إلى القتال وأقاموا في منطقة تبوك ما يقارب عشرين ليلة، ورجعوا دون قتالٍ.

مكاتبة الملوك والأمراء:

أرسل رسول الله ﷺ عددًا من أصحابه رسلًا لدعوة الملوك والأمراء إلى توحيد الله -سبحانه-، فمن الملوك من أسلم ومنهم بقي على دينه، ويُذكر من تلك الدعوات:

-عمرو بن أميّة الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر.

- عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس.

-دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم.

العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين.

- سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن على صاحب اليمامة.

- شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق. -عمرو بن العاص إلى ملك عُمان جيفر وأخيه.

الوفود:

قدم أكثر من سبعين وفدًا من القبائل بعد فتح مكة إلى رسول الله يعلنون إسلامهم، يُذكر منهم:

-وفد عبد القيس، وقد توافدوا مرتين؛ الأولى في السنة الخامسة من الهجرة، والثانية في عام الوفود.

-وفد دوس، إذ توافدوا في مطلع السنة السابعة للهجرة حين كان رسول الله ـ ﷺ ـ في خيبر.

-وفد فروة بن عمرو الجذامي في السنة الثامنة للهجرة.

-وفد صداء في السنة الثامنة للهجرة. كعب بن زهير بن أبي سلمى.

-وفد عذرة في شهر صفر من السنة التاسعة للهجرة.

-وفد ثقيف في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة.

كما أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب في نجران يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيامٍ، ودخل عددٌ منهم الإسلام، وشرع خالد في تعليمهم أمور الدين وتعاليم الإسلام، وقد أرسل رسول الله أبو موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجّة الوداع.

حجّة الوداع: أبدى رسول الله رغبته بالحجّ، وأظهر نيّته في ذلك، وترك المدينة مؤمّرًا عليها أبا دجانة، وسار نحو البيت العتيق، وألقى خطبةً عُرفت فيما بعد بخطبة الوداع، ومن مضامينها: التحذير من الربا، وضرورة التمسك بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وفاة الرسول (١):

قبل وفاة الرسول ﷺ كانت حجة الوداع ونزل **قول الله عز وجل:** { ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا }(٢).

---

(١) ينظر: تهذيب سيرة ابن هشام صـ٣٥٠ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة (٣/٦).

فبكى ابو بكر الصديق عند سماعه هذه الآية... فقالوا له: ما يبكيك يا أبو بكر.. إنها آية مثل كل آية نزلت على الرسول.. فقال: هذا نعي رسول الله ﷺ. وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة. وقبل الوفاة بتسعة أيام **نزلت آخر آية من القرآن:** { وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ}(١).

وبدأ الوجع يظهر على الرسول ﷺ فقال: (أريد أن أزور شهداء أُحد فذهب إلى شهداء أحد ووقف على قبور الشهداء فقال: (السلام عليكم يا شهداء أحد، أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وأنى إن شاء الله بكم لاحق).

وأثناء رجوعه من الزيارة بكى رسول الله ﷺ قالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: (اشتقت إلى إخواني) فقالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ فقال: (لا أنتم أصحابي؛ أما إخواني فهم قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني) – اللهم إنا نسألك أن نكون منهم– وعاد الرسول ﷺ. وقبل الوفاة بثلاثة أيام بدأ الوجع يشتد عليه وكان في بيت أم المؤمنين ميمونة،

فقال: (اجمعوا زوجاتي)، فجمعت الزوجات، فقال النبي: (أتأذنون لي أن أمرض في بيت عائشة؟) فقلن: أذن لك يا رسول الله، فأراد أن يقوم فما استطاع. فجاء علي بن أبي طالب والفضل بن العباس فحملا النبي ﷺ وخرجوا من حجرة أم المؤمنين ميمونة إلى حجرة أم المؤمنين عائشة فرآه الصحابة على هذا الحال لأول مرة فبدأ الصحابة في السؤال بهلع.

ماذا أحل برسول الله... ماذا أحل برسول الله... فتجمع الناس في المسجد وامتلأ وتزاحم الناس عليه فبدأ العرق يتصبب من النبي ﷺ بغزارة، فقالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): لم أر في حياتي أحدًا يتصبب عرقًا بهذا الشكل. فتقول: (كنت آخذ بيد النبي ﷺ وأمسح بها وجهه؛ لأن يد النبي أكرم وأطيب من يدي.

---

(١) سورة البقرة: (٢٨١/٣).

وتقول: فأسمعه يقول: (لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات). فتقول أم المؤمنين عائشة (فكثر اللفظ (أي الحديث) في المسجد إشفاقًا على الرسول (ﷺ) فقال النبي ﷺ (ما هذا؟) فقالوا يا رسول الله، يخافون عليك، فقال: (احملوني إليهم). فأراد أن يقوم فما استطاع، فصبوا عليه سبع قرب من الماء حتى يفيق. فحمل النبي (ﷺ) وصعد إلى المنبر...

آخر خطبة لرسول الله (ﷺ) وآخر كلماته. فقال النبي ﷺ: أيها الناس أكأنكم تخافون عليَّ) فقالوا: نعم يا رسول الله. فقال: أيها الناس موعدكم معي ليس الدنيا، موعدكم معي عند الحوض... والله لكأني أنظر إليه من مقامي هذا، أيها الناس، والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها كما تنافسها الذين من قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم) ثمَّ قال: (أيها الناس، الله الله في الصلاة، الله الله في الصلاة).

بمعنى أستحلفكم بالله العظيم أن تحافظوا على الصلاة، وظل يرددها، ثمَّ قال: أيها الناس، اتقوا الله في النساء، اتقوا الله في النساء، أوصيكم. ثمَّ قال: أيها الناس إنَّ عبدًا خيره الله بين الدنيا و(بالنساء خيرًا بين ما عند الله) فلم يفهم أحد قصده من هذه الجملة، فانفجر أبو بكر بالبكاء وعلى نحيبه، ووقف وقاطع النبي (ﷺ) وقال: فديناك بآبائنا، فديناك بأمهاتنا، فديناك بأولادنا، وفديناك بأزواجنا. فديناك بأموالنا. وظل يرددها، فنظر الناس إلى أبو بكر كيف يقاطع النبي ﷺ فأخذ النبي ﷺ يدافع عن أبو بكر قائلًا: أيها الناس دعوا أبا بكر فما منكم إلا كافأناه به، إلا أبا بكر لم أستطع مكافأته، فتركت مكافأته إلى الله عز وجل، كل الأبواب إلى المسجد تسد إلا باب أبي بكر لا يسد أبدًا؛ وأخيرًا قبل نزوله من المنبر بدأ الرسول ﷺ بالدعاء للمسلمين قبل الوفاة كآخر دعوات لهم فقال: أواكم الله، حفظكم الله، نصركم الله، ثبتكم الله، وأيدكم، آخر كلمة قالها كآخر كلمة موجهة للأمة من على منبره قبل نزوله (الله) فقال: أيها الناس اقرأوا مني السلام كل من قدمني من أمتى إليَّ. (يوم القيامة).

وحمل مرة أخرى إلى بيته. وهو هناك دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، وظل النبي ينظر إلى السواك ولكنه لم يستطع أن يطلبه من شدة مرضه، ففهمت السيدة عائشة من نظرة النبي (ﷺ)، فأخذت السواك من عبد الرحمن ووضعته في فم النبي (ﷺ) فلم يستطع أن يستاك به، فأخذته

من النبي وجعلت تلينه بفمها وردته للنبي ﷺ مرة أخرى حتى يكون طريًا عليه فقالت: كان آخر شيء دخل جوف النبي هي ريقي، فكأنه من فضل الله عليَّ أن جمع بين ريقي وريق النبي قبل أن يموت. تقول أم المؤمنين عائشة: ثمَّ دخلت فاطمة بنت النبي، فلما دخلت بكت؛ لأنَّ النبي لم يستطع القيام، لأنه كان يقبلها بين عينيها كلما جاءت إليه.. فحدثها النبي في أذنها، فبكت أكثر، فلما بكت قال النبي ﷺ (ادنو مني يا فاطمة)، فحدثها مرة أخرى في أذنها، فضحكت....

بعد وفاة الرسول سئلت، ماذا قال لك النبي؟ فقالت: قال لي في المرة الأولى (يا فاطمة إني ميت الليلة) فبكيت، فلما وجدتني أبكي قال (يا فاطمة إنك أول أهلي لحاقًا بي) فضحكت. وتقول السيدة عائشة: ثمَّ قال النبي: (أخرجوا من عندي في البيت) وقال: ادنو مني يا عائشة، ونام النبي (ﷺ) على صدر زوجته ويرفع يده للسماء ويقول: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى... تقول أم المؤمنين عائشة فعرفت أنه بخير.

دخل سيدنا جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ملك الموت بالباب يستأذن أن يدخل عليك وما استأذن على أحد قبلك، فقال النبي ﷺ (إإذن له يا جبريل) فدخل ملك الموت على النبي وقال: السلام عليك يا رسول الله.. أرسلني الله لأخيرك بين البقاء في الدنيا وبين أن تلحق بالله فقال النبي (ﷺ) بل الرفيق الأعلى. ووقف ملك الموت عند رأس النبي (ﷺ)

وقال: أيتها الروح الطيبة، روح محمد بن عبد الله، أخرجي إلى رضى من الله ورضوان ورب راضٍ غير غضبان.

تقول أم المؤمنين عائشة: فسقطت يد النبي ﷺ وثقلت رأسه في صدري، فعرفت أنه قد مات، فلم أدرِ ما أفعل، فما كان مني غير أن خرجت من حجرتي وفتحت بابي الذي يطل على الرجال في المسجد فأقول: مات رسول الله.. مات رسول الله ﷺ، تقول: فانفجر المسجد بالبكاء. فهذا علي بن أبي طالب قعد، وهذا عثمان بن عفان كالصبي يؤخذ بيده يمنى ويسرى، وهذا عمر بن الخطاب يرفع سيفه ويقول من قال إنه قد مات قطعت رأسه، إنه ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى للقاء ربه وسيعود ويقتل. من قال إنه قد مات.

أما أثبت الناس فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه دخل على النبي واحتضنه وقال: واااا خليلاه... واااااا صفياه... واااا حبيباه... واااا نبياه...، وقبل النبي وقال: طبت حيًّا وطبت ميتًا يا رسول الله. ثمَّ خرج يقول: من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت... ويسقط السيف من يد عمر بن الخطاب فيقول: فعرفت أنه قد مات.

ويقول: فخرجت أجري أبحث عن مكان أجلس فيه وحدي لأبكي وحدي. ودفن النبي والسيدة فاطمة تقول: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على وجه النبي... ووقفت تنعى النبي وتقول: يا أبتاه، أجاب ربًا ومات.

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، ودفن يوم الأربعاء في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وكان عمره عليه الصلاة والسلام عند وفاته ثلاثًا وستين سنة.

البيت النبوي:

كان الرسول ﷺ مثالًا يُحتذى به في أخلاقه النبيلة والكريمة وتعاملاته السامية مع زوجاته وأبنائه وأصحابه، وبذلك استطاع ﷺ غرس المبادئ والقيم في النفوس، وقد سنّ الله في الكون التزاوج بين الذكر والأنثى، وجعل العلاقة بينهما قائمةً على المودة والرحمة والسكينة، **قال الله تعالى**: { وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(١)وطبّق الرسول ﷺ المعاني الواردة في الآية السابقة، وأوصى أصحابه بالنساء وحثّ غيره على رعاية حقوقهنّ ومعاملاتهن معاملةً حسنةً، فكان -عليه الصلاة والسلام- يواسي زوجاته ويخفّف من أحزانهنّ ويقدّر مشاعرهنّ ولا يستهزئ منهنّ

(١) سورة الروم (٢٠/ ٢١).

ويمدحهنّ ويُثني عليهنّ، كما كان يساعدهنّ في أعمال المنزل، ويأكل معهنّ من إناءٍ واحدٍ، ويخرج معهنّ للتنزه لزيادة أواصر المحبة والمودة، وكان النبي ﷺ قد تزوّج من إحدى عشر زوجةً، وهنّ:

- **خديجة بنت خويلد:** وهي أول زوجةٍ للنبي ﷺ ولم يجمع معها غيرها من الزوجات، وأنجب منها كلّ أبنائه وبناته إلّا ابنه إبراهيم الذي وُلد من مارية القبطية التي كانت ملك يمينٍ عند الرسول -عليه السلام-، وكان القاسم أول مولودٍ للرسول ﷺ وكُنيّ به، ثمَّ رُزق بزينب فأمّ كلثوم ففاطمة وأخيرًا بعبد الله الذي لُقّب بالطيب الطاهر.

- **سودة بنت زمعة:** وهي ثاني زوجاته، ومَن وهبت يومها لعائشة حبًّا بالنبي ﷺ، وتمنّت عائشة أن تكون مثلها وعلى هديها، وتوفيت سودة في زمن عمر بن الخطاب.

- **عائشة بنت أبي بكر الصديق:** كانت أحبّ أزواج النبي إلى قلبه بعد خديجة، وكان الصحابة يعدّونها مرجعاً؛ حيث كانت من أفقه الناس في علوم الشريعة، ومن أفضالها أنّ الوحي نزل على رسول الله ﷺ وهو في حِجْرها.

- **حفصة بنت عمر بن الخطاب:** تزوّجها رسول الله ﷺ في السنة الثالثة للهجرة، وقد احتفظت بالمصحف حين جُمع.

- **زينب بنت خزيمة:** لقّبت بأمّ المساكين؛ لشدّة حرصها على إطعامهم وقضاء حوائجهم.

-**أم سلمة هند بنت أبي أمية:** تزوّجها رسول الله ﷺ بعد وفاة زوجها أبي سلمة، وقد دعا لها وأخبر أنّها من أهل الجنة.

-**زينب بنت جحش:** تزوجها الرسول ﷺ بأمرٍ من الله، وهي أوّل زوجةٍ كانت وفاتها بعد وفاة رسول الله ﷺ.

- **جويرية بنت الحارث:** تزوّجها رسول الله ﷺ بعد وقوعها أسيرةً في غزوة بني المصطلق، وكان اسمها بُرّة فسمّاها الرسول ﷺ جويرية، وتوفيت في السنة الخمسين للهجرة.

- **صفية بنت حيي بن أخطب:** تزوّجها رسول الله ﷺ بمهر عتقها بعد غزوة خيبر.

- **أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان:** هي الزوجة الأقرب لرسول الله ﷺ نسبًا بجدّهما عبد مناف.

-**ميمونة بنت الحارث:** وهي آخر زوجات النبي ﷺ.

صفات النبي صفاته الخَلقية: اجتمعت برسول الله -ﷺ- مجموعةً من الصفات الخَلقية، يُذكر منها:

- مربوعًا؛ أي ليس بالطويل ولا بالقصير.
-الصحل في الصوت؛ أي الخشونة.
- أزهر اللون؛ أي أبيض فيه حُمرةٌ.
- وسيمٌ قسيمٌ؛ أي حسنٌ جميلٌ.
- أزج الحاجب؛ أي رقيقًا في طوله.
-أكحل العينين.

صفاته الخُلقية: بعث الله -تعالى- رسوله ﷺ؛ ليبين للنّاس مكارم الأخلاق ويؤكّد الصالح منها ويُصلح ما فسد، وقد كان أعظم الناس أخلاقًا وأكملهم، ومن صفاته الخُلقية التي تحلّى بها: -صدقه في أعماله وأقواله ونيّاته مع المسلمين وغيرهم، ودليل ذلك تلقيبه بالصادق الأمين، فعدم الصدق من صفات النفاق. سماحته وعفوه عن الناس وصفحه عنهم بقدر الاستطاعة، ومن القصص الواردة في ذلك عفوه عن رجلٍ أراد قتله وهو نائمٌ، قال ﷺ: (إنَّ هذا اخْتَرَطَ على سَيْفِي، وأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فَقالَ: مَن يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلتُ: اللَّهُ، -ثَلَاثًا- ولَمْ يُعَاقِبْهُ وجَلَسَ) (١).

كرمه وجوده وعطاؤه، فعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: (كانَ النبيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بالخَيْرِ، وكانَ أَجْوَدُ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ عليه السَّلَامُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ، حتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عليه النبيُّ ﷺ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عليه السَّلَامُ، كانَ أَجْوَدَ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ) (٢).

تواضعه وعدم تعاليه وتكبّره على الناس أو الانتقاص من قيمتهم، ذلك كما أمره الله -سبحانه- فالتواضع من الأسباب التي ملك القلوب وتأليفها، وكان يجلس بين الصحابة دون أن يميّز نفسه بأي شيءٍ، ولا يترفّع على أي أحدٍ منهم، إذ كان يخرج في الجنائز، ويزور المرضى، ويجيب الدعوة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٩١٠).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٩٠٢).

حفظه للسانه وعدم نطقه بالسيء والقبيح من الأقوال، رُوي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه-: (لَمْ يَكُنْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا، ولَا لَعَّانًا، ولَا سَبَّابًا، كانَ يقولُ عِنْدَ المَعْتَبَةِ: ما له تَرِبَ جَبِينُهُ) (١).

احترامه للكبير وعطفه على الصغير، فكان -عليه الصلاة والسلام- يقبّل الأطفال ويحنو عليهم. حياؤه من ارتكاب الشرور من الأعمال، وبذلك لا يقع العبد بأي عملٍ لا تُحمد عواقبه.

كما أوصانا النبي- صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله- في أكثر من حديث شريف بحسن الجوار والعشرة الطيبة، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»، فربط النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين إكرام الجار يدل على أنه من لوازم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكرم جاره، وأن يوده وأن يتفقد أحواله ويمد له يد العون، ويواسيه في مصائبه ويهنئه في أفراحه، فالذي لا يكرم جاره يكون في إيمانه نقص وخلل، في الحديث الشريف الذي رواه ابن ماجة: «أحسن إلى جارك تكن مسلماً».

ومن حرص النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- على حقوق الجيرة، فقد شدد على ضرورة تفقد أحوال الجيران ومد يد العون إليهم، فقال: «ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم».

وهكذا لقد بعث الله عزَّ وجلَّ نبيه محمدًا (ﷺ) مبشرًا ونذيرًا، ومعلمًا وميسرًا، ومربيًا ومزكيًا،

قال الله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا } (٢)، وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إنَّ الله لم يبعثني معنِّتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ومُيسرًا" (٣).

بعثه الله تعالى في أمة سيطر عليها الجهل والضلالة، واستولت عليها البدع والخرافة، فصنع بإذن الله منها أمةً حاملةً لرسالة العلم والتعليم.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٠٤٦).

(٢) سورة الأحزاب (٢٢/ ٤٥ :٤٦).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (١٤٨٧).

ومن الأمور المعلومة من سيرته ﷺ اهتمامه بما فيه الصلاح لكل زمان ومكان فقد أُوتِيَ ﷺ جوامع الكلم، وأُعْطِيَ حكمة وعلمًا لا يدانيه فيه أحد من الناس،

قال الله تعالى: { وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } (١).

ولقد قضى ﷺ ما عليه، وبلَّغ ما عُهد إليه، وما مات ﷺ حتى علَّم الناسَ كُلَ شيءٍ، عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: " لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائرٌ جناحيه في السماء إلا ذكر لنا عنه علمًا ".

فعن مسروقٍ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " من حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا من الوحي فقد كذب " أخرجه مسلم، ويقول العباس: "والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجًا واضحًا، وأحلَّ الحلال، وحرم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم " رواه الدارمي، وقال بأبي هو وأمي ﷺ: " تركتكم على بيضاءَ نقيةٍ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ".

نعم عباد الله: لقد أفنى رسول الله ﷺ عُمرَهُ كُلَّه في سبيل تبليغ رسالة ربه وعلَّم أمته كلَّ شيءٍ حتى أن بعض المشركين قال لسلمان الفارسي: إنا نرى صاحبكم يعلمكم كُلَ شيءٍ حتى الخَراءَة، قال سلمان: نعم، لقد نهانا أنْ نستقبلَ القبلةَ بغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجي برجيعٍ دابةٍ أو عظمٍ ".

فقد كان – صلوات ربي وسلامُه عليه – يعلِّم الناس على جميع أحواله، في مسجدِه، وفي بيته، وفي حله وترحاله، يقول عبدُ الله ابنُ مسعود رضي الله عنه: إني لأتخوَّلكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافةَ السآمةِ علينا.

كان بيتُهُ ﷺ مدرسة، ولهذا كان الصحابةُ إذا اختلفوا في أمرٍ، ذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون زوجاتِهِ عن هديه وعَملِه في بيته.

كان النبي ﷺ يعلِّم الناس وهو واقفٌ على ناقته أو على دابته، يقول عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص: لقد رأيتُ النبي ﷺ وهو واقفٌ على ناقته في حَجَةِ الوداع بمني للناس يسألونه، فما سُئل عن شيءٍ قُدِّم ولا آخر إلا قال: "افعل ولا حرج".

---

(١) سورة النساء (٥/١١١).

فكان لا يدعُ فرصةً للتعليم إلا اغتنمها، يقول عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كنتُ يومًا خلفَ النبي ﷺ على الدابةِ، فقال: "يا غلام، إني أعلّمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك..

ولئن كان الرسول (ﷺ) يُعلِّمُ الناس بأقواله وأفعاله فلقد كان يُعَلِّمهم بأخلاقه وحسن تعليمه وطيب معشره، ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن، وقيل في وصف نبينا ﷺ: من رآه بداهة هابه ومن خالطه عشرة أحبه.

فأعظم ما يؤثر في النفوس ويصل إلى سويداء القلوب ويلامس شغافها، هو حسنُ الخلق، والتحلي بالآداب الفاضلة، فإفشاء السلام، ومحبة الأنام، والرفق ولين الجانب، وطلاقة الوجه، والحلم والأناة، والهندام الحسن، آدابٌ عالية وأساليبُ رائعة، لها آثارٌ عجيبة في كسب الناس، وإقبالهم على المعلم وتَقبلِهم منه.

وحريّ بالمسلمين في كل زمان ومكان أن يقتفوا أثره ويهتدوا بهديه عليه الصلاة والسلام ففيه الخير كل الخير.

الخلفاء الراشدون

بعد وفاة الرسول ﷺ الذي أحدث ضَجَّة كبيرة، وصدمة عظيمة لكثير من المسلمين، خاصَّة عند عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي قام وقال: إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوُفِّيَ، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثمَّ رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعَنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ قد مات.

بينما أقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد -حين بلغه الخبر- وعمر يُكَلِّم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة -رضي الله عنها- ورسول الله ﷺ مسجَّى في ناحية البيت، عليه بردة حَبِرَة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثمَّ أقبل عليه فقبَّله، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثمَّ لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.

ثمَّ ردَّ البردة على وجه رسول الله ﷺ، وخرج وعمر- يُكَلِّم الناس، فقال: على رسْلك يا عمر، أنصت. فأبى إلا أن يتكلَّم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت، أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيها الناس، إنه مَن كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت.

ثمَّ تلا قول الله تعالى: { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ }(١).

فقال أبو هريرة: فوالله لكأنَّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها (٢).

---

(١) سورة ال عمران (٤ /١٤٤).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٢ /٦٥٥).

وعقب وفاة النبي ﷺ اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فذهب إليهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجرَّاح، فذهب عمر يتكلَّم، فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيَّأت كلامًا قد أعجبني، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثمَّ تكلَّم أبو بكر، فتكلَّم أبلغَ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا، ولكنَّا الأمراء، وأنتم الوزراء، وهم أوسط العرب دارًا، وأعربهم أحسابًا، فبايعوا عمر، أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، وأنت سيِّدنا وخيرنا، وأحبُّنا إلى رسول الله. ثمَّ قال للأنصار: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤمَّ الناس، فأيُّكم تطيب نفسه أن يتقدَّم أبا بكر؟!! فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدَّم أبا بكر! ثمَّ بادر عمر (رضي الله عنه) وقال لأبي بكر: ابسط يدك. فبسط يده فبايعه، وبايعه المهاجرون، ثمَّ الأنصار ([1]).

مبايعة أبي بكر للخلافة:

بايع الناس أبا بكر في المسجد -بعد بيعة قادة المهاجرين والأنصار له في سقيفة بني ساعدة- فقام أبو بكر خطيبًا في الناس ليُعْلِن عن منهجه، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإنَّ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ونجح المسلمون -الأنصار والمهاجرون- في أوَّل امتحان لهم بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد احترموا مبدأ الشورى، وتمسَّكوا بالمبادئ الإسلاميَّة، فقادوا سفينتهم إلى شاطئ الأمان.

وكان الإسلام في عهد النبي ﷺ قد بدأ ينتشر بعد السنة السادسة للهجرة، وبعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود تَرِد إلى الرسول معلنة إسلامها، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وقلَّ عدد المشركين الذين يعبدون الأصنام، لكنَّ بعض الذين

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٦٧)

دخلوا في الإسلام كان منهم ضعاف الإيمان، ولم يكن الإيمان قد استقرَّ في قلوبهم، فلم يدخلوا في الإسلام إلا انبهارًا بسيطرة المسلمين على الجزيرة العربيَّة، ومنهم مَن جاء رغبة في المال والغنائم، والارتباط بالقوَّة الأُولَى الجديدة في الجزيرة، ومنهم مَن جاء خوفًا من قوَّة المسلمين، ومنهم مَن جاء لا رغبة ولا خوفًا، ولكن اتِّباعًا لزعمائهم وقادتهم، فَسَاقهم زعماؤهم كالقطيع، فدخلوا في دين لا يعرفون حدوده، ولا فروضه، ولا تكاليفه، ولم يفقهوا حقيقة الرسول ﷺ وحقيقة الرسالة، ولم يعيشوا مع القرآن ولا مع السُّنَّة.

أحوال المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ:

كانت وفاة الرسول ﷺ فرصة لهؤلاء لكي يُظْهِروا ما أخفَوْه خلال الفترة الماضيَّة، ولكي يُعْلِنوا ردَّتهم عن الدين الحنيف، وكان ارتداد الجزيرة العربيَّة على درجات؛ فمِن العرب مَن منع الزكاة، ومنهم مَن ترك الإسلام كلَّه وعاد إلى ما كان يعبد من أصنام، ومنهم مَن لم يَكْتَفِ بالردَّة، بل انقلبوا على المسلمين الذين لم يرتدُّوا، فقتلوهم، وذبحوهم، وفعلوا بهم أشنع المنكرات، فكان على أبي بكر رضي الله عنه أن يُواجه هؤلاء جميعًا، وليس هذا فقط بل كان عليه أن يُؤَمِّن حدود الدولة الإسلاميَّة ضدَّ الأعداء الخارجيين وفي مقدِّمتهم دولة الروم، وكان الرسول قد أعدَّ لذلك جيشًا بقيادة أسامة بن زيد؛ لإرساله إلى مشارف بلاد الشام؛ بهدف الثأر من الروم لقتلى معركة مؤتة، وتأديب الغساسنة، وأوصى بإنفاذه قبل وفاته ﷺ، ولكنه مات قبل أن يَبْرَح الجيش المدينة، وظلَّ أسامة بجيشه على حدود المدينة ينتظر الأوامر.

وراح الجميع يُفَكِّرون في مواجهة أعداء الأمة الإسلاميَّة الوليدة فرأى بعض المسلمين أن تُوَجَّه كلُّ الجهود إلى محاربة المرتدِّين، وأن يُؤجّل إنفاذ جيش أسامة لمحاربة الروم إلى ما بعد القضاء على المرتدِّين، وأن يتفرَّغ أبو بكر لذلك، ولكنَّ أبا بكر وقف شامخًا راسخًا، يُؤكِّد العزم على قتالهم جميعًا في كل الجبهات قائلاً: "والله لأقاتلَنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإنَّ الزكاة حقُّ المال، واللهِ لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه".

ولقد أصرَّ أن يتمّ بعث أسامة قائلًا: "والله لا أحُلُّ عقدةً عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تَخْطَفُنَا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جَرَت بأرجل أُمَّهات المؤمنين لأجهزنَّ جيش أسامة". فيعرض عليه بعض الصحابة تغيير أمير

الجيش، فيأتي له عمر بن الخطاب، ويقول: "لو اتَّخذت أميرًا غير أسامة". وكان سِنُّهُ يومئذٍ ١٧ أو ١٨ عامًا، فالأمر صعب ويحتاج إلى الحكمة، فيُمسكه أبو بكر من لحيته، ويهُزُّه ويقول له: "ثكلتك أمُّك يا بن الخطاب! أؤمِّر غير أمير رسول الله ﷺ؟!.

وكان لخروج الجيش إلى أطراف الشام فائدة كبيرة للمسلمين حيث فرَّت أمامه الجيوش الروميَّة في هذه المنطقة، فلم يَلْقَ قتالًا، فوجد بعض القبائل في هذه المنطقة ارتدَّتْ، فقاتلهم، وشتَّتَ شملهم، وهزمهم، وعاد بسرعة إلى أبي بكر الصِّدِّيق في المدينة، فأحدث بكل القبائل العربيَّة الموجودة في هذه المنطقة رهبة من المسلمين ممَّا جعلهم يظنُّون أن للمسلمين قوَّة في المدينة، وأن هذا جزء صغير من الجيوش الموجودة فيها، فقرَّرَوا عدم الهجوم على المدينة وإيثار للسلامة، مع أنه لم يكن هناك جيش بالمدينة، فكان إنفاذه لجيش أسامة حكمة ألهمها الله

لأبي بكر.

وبعدما علمت القبائل المرتدَّة بخروج جيش أسامة أرسلت عُيَيْنة بن حصن الفزاري، ومعه الأقرع بن حابس؛ ليُفاوضا المسلمين في المدينة في أن يَقْبَلَ أبو بكر منهم الصلاة، ويرفعَ عنهم الزكاة، في مقابل أن يرفع المرتدُّون أيديهم عن المدينة، فجاء الصحابة إلى أبي بكر رضي الله عنه يعرضون عليه قَبول طرح عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، بل إعطائهما بعض المال، وذلك لتحييدهما، وتخفيف ضغط الأزمة.

لكنَّ الصِّدِّيق رضي الله عنه كان له رأي آخر، وهو أن يُقاتلهم حتى يؤدُّوا حقَّ الله فيما عندهم من أموال؛ لعلمه رضي الله عنه بأنَّ الزكاة ركن من أركان الإسلام، لا فرق بينه وبين الصلاة والحجِّ والصوم.

فعارضه عمر بن الخطاب وبعض الصحابة، ولكنَّ أبا بكر يردُّ عليهم بكلمات خالدة، قائلًا: "أُقاتلهم وحدي حتى تنفرد سالفتي".

ودخلت كلمات أبي بكر في قلوب الصحابة فلم تترك شكًّا، ولا تَحَيُّرًا إلا أزالته، فعزموا على قتال كلِّ مَن ارتدَّ عن الإسلام.

فقام الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أولًا بحراسة المدينة المنوَّرة حراسة مستمرَّة، فوضع الفِرَق العسكريَّة في كل مداخل المدينة، ثمَّ قام بمراسلة كل القبائل التي بقيت على الإسلام لتوافيه في المدينة المنوَّرة، وأقام مُعَسْكَرًا للجيوش الإسلاميَّة

في شمال المدينة، وأرسل رسائل شديدة اللهجة إلى كل قبائل المرتدِّين يدعوهم فيها إلى العودة إلى ما خرجوا منه، وإلاَّ حاربهم أشدَّ المحاربة، وهدَّدهم وتوعَّدهم؛ وذلك ليُلْقِيَ الرهبة في قلوبهم، كنوع من الحرب النفسيَّة على المرتدِّين.

حروب الردة ([1]).

بدأ الصِّدِّيق رضي الله عنه في تجهيز مجموعة من الجيوش الإسلاميَّة التي ستخرج لحرب المرتدِّين في وقت متزامن، فجهز أحدَ عشرَ جيشًا كاملًا، لا يتعدَّى قِوَامه ألفين أو ثلاثة أو على الأكثر خمسة آلاف، ولكنها كانت جيوشًا مُنَظَّمة، راغبةً في الجهاد في سبيل الله، فاهمةً لقضيَّتها، معتمدة على ربِّها، وحدَّد الصِّدِّيق رضي الله عنه اتِّجاه كلِّ جيش من هذه الجيوش الأحد عشر، فوُزِّعت هذه الجيوش على الجزيرة توزيعًا دقيقًا، بحيث لا تبقى قبيلة أو منطقة إلا ويمرُّ بها جيش المسلمين.

واختار الصِّدِّيق رضي الله عنه أحدَ عشرَ قائدًا فذًّا من قوَّاد الإسلام على رأس هذه الجيوش؛ فقاد خالد بن الوليد الجيش الأول المتَّجه إلى طيء أولًا، ثمَّ بني أسد؛ تلك القبيلة الخطيرة التي يقودها طليحة بن خويلد الأسدي، ثمَّ بني تميم، وفيهم مالك بن نُوَيْرَة، فإذا انتهى مِن كلِّ هذا بنجاح فإنَّ عليه أن يتوجَّه إلى بني حنيفة، لمقابلة أخطر جيوش المرتدِّين، وعلى رأسها مُسيلمة الكذَّاب؛ وذلك لمساعدة الجيشيْن الثاني والثالث.

وكان عكرمة بن أبي جهل على رأس الجيش الثاني، وشُرَحْبِيل بن حَسَنَة على رأس الثالث، وأَمَر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه عكرمةَ ألا يُقاتل حتى يأتيه جيش شُرَحْبِيل، وكان جيشه حوالي ثلاثة آلاف، بينما يتعدَّى جيش مسيلمة مائة ألف رجل، فتعجَّل عكرمة بن أبي جهل في قتال مسيلمة قبل أن يأتيه شُرَحْبِيل بن حَسَنَة، فاجتاح جيشُ مسيلمة جيشَ عكرمة بن أبي جهل، ففرَّ جيش عكرمة، وتفرَّقوا في المنطقة، ووصلت الأنباء إلى الصِّدِّيق بالمدينة، فحزن حزنًا شديدًا، وعلم أن الجيش الإسلامي في طريقه إلى المدينة، فأرسل رسالة إلى عكرمة بن أبي جهل عَنَّفه بشدَّة على تسرُّعه في محاربة مسيلمة الكذاب، وقال له: لا ترجع

([1]) ينظر: البداية والنهاية (٦ / ٣٤٤).

بجيشك إلى المدينة، واتَّجه بجيشك إلى حذيفة بن محصن، وعَرْفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ في اليمن، فقاتِل معهما.

وعندما وصل جيش شُرَحْبِيل بن حَسَنَة قرب بني حنيفة عسكر منتظرًا مدد أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، ثمَّ تعجَّل فهاجم بجيشه الصغير -ثلاثة آلاف مجاهد- جيش مسيلمة، فحَدَث مع جيشه نفس الذي حدث مع عكرمة بن أبي جهل، فحَزِنَ الصِّدِّيق حزنًا شديدًا، وأرسل له أنِ امْكُث في مكانك، ولا ترجع إلى المدينة.

ثمَّ كلَّف الصِّدِّيق خالد بن الوليد بقتال بني حنيفة، فهزمهم في معركة اليمامة بعد قتال عنيف، ظهرت فيه بطولات المهاجرين والأنصار، وقُتِلَ مسيلمة الكذَّاب على يَدِ بطلين؛ هما وحشيّ بن حرب بحربته، وأبي دُجَانَةَ بسيفه، وبلغ عدد قتلى المرتدِّين في معركة اليمامة ٢١٠٠٠ قتيل، واستُشْهِد من جيش المسلمين ١٢٠٠ شهيد، منهم ٥٠٠ من حفظة القرآن، ثمَّ صالح خالد رضي الله عنه بني حنيفة؛ فعادوا للإسلام، وذهبوا إلى أبي بكر الصِّدِّيق، وبايعوه.

كان الجيش الخامس مُتَّجهًا إلى الشمال وعلى رأسه خالد بن سعيد رضي الله عنه، وكان متَّجهًا لقبيلة قُضَاعَة. أما الجيش السادس فكان مُتَّجهًا إلى مشارف الشام، وعلى رأسه عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولم يُلاقِ هذان الجيشان قتالًا يُذكر، وما إن وَصَلا إلى الشام حتى فرَّت منهم القبائل، فعادوا إلى المدينة.

أما الجيش السابع فاتَّجه إلى قبائل عبد القيس الموجودة في البحرين، وكان على رأسه العلاء بن الحضرمي، وكانت كلُّ القبائل في تلك المناطق قد ارتدَّت عن الإسلام وعلى رأسها قبيلة عبد القيس، وما ثبت على الإسلام إلا قرية صغيرة تسمى جُوَاثَى التي حاصرها المرتدُّون، فأرسل رسائل إلى القبائل المرتدَّة لعلَّها تعود للإسلام، ولكنهم رفضوا، وأصرُّوا على موقفهم، فدارت المعارك بين الجيش المسلم والمرتدِّين استمرَّت شهرًا كاملاً، وفي ذات يومٍ سمع العلاء بن الحضرمي ضَجَّة في معسكر المرتدِّين، فعلم أنهم سُكارى، فجهَّز جيشه في الليل، وباغتهم فهزمهم هزيمة ساحقة، وفرَّ بعضهم إلى جزيرة دارين، ولم يكن مع العلاء بن الحضرمي في ذلك الوقت سفن، فرَكِب الجيش البحر، ووصلوا إلى دارين دون أن يفقد المسلمون مقاتلًا واحدًا، ورأى الفارُّون المرتدُّون جموعَ المسلمين تخرج من البحر، فسُقِطَ في أيديهم، وأَعْمَل المسلمون فيهم السيف، وقتلوا منهم أعدادًا كثيرة، ثمَّ عاد المسلمون منتصرين في سفن المرتدِّين.

أما الجيشان الثامن والتاسع فاتَّجها إلى عُمَان فكان الجيش الأول بقيادة حذيفة بن محصن رضي الله عنه، والجيش الآخر كان بقيادة عَرْفَجَة بن هرثمة، وقد أَمَر أبو بكر رضي الله عنه الجيشين بأن يتَّحدا بقيادة حذيفة بن محصن، ولحق بهما عكرمة بن أبي جهل بعد أن هُزِم أمام مسيلمة وأرسل حذيفة رسالة إلى جَيْفَر وعبَّاد فرجعا بمن معهما من المسلمين إلى جيش حذيفة بن محصن، وعسكروا مع المسلمين، بينما جهَّز لُقَيْط -الذي ادَّعى النبوَّة بعد وفاة النبي ﷺ- جيشه، وتقابل مع المسلمين في موقعة شرسة، وكانت القوَّة متكافئة، وظلَّ الفريقان في صراع إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بمدد من جيش العلاء بن الحضرمي، فرَجَحَت كِفَّة المسلمين، وكتب الله النصر للمسلمين، وقُتل لُقَيْط بن مالك، وقُتل معه عشرة آلاف مرتدٍّ.

ثمَّ انطلقت جيوش المسلمين الثلاثة بعد ذلك إلى مَهَرَة لقتال المرتدِّين هناك، ولما وصل الجيش إلى مَهَرَة بعث أبو بكر برسالة يُؤَمِّرُ فيها عكرمة بن أبي جهل على الجيوش الثلاثة، وكان بهذه المنطقة كثير من القبائل المرتدَّة، وكان على رأس هذه القبائل اثنان يُدعى أحدهما شخريط والآخر مَصْبَح، وبعد ارتدادهما اختلفا وتقاتلا، فكلٌّ منهما يريد إمارة المرتدِّين، ووصل عكرمة، وعلم بأمرهما فراسل شخريطًا، وهدَّده بقوَّة المسلمين، ورغَّبه في الإسلام، فأسلم شخريط لمَّا تيقَّن من قوَّة المسلمين، وأنهم سيحاربون معه ضدَّ مَصْبَح، وتسلَّل بجيشه وانضمَّ إلى جيش عكرمة بن أبي جهل، وقاتل المسلمون في هذه المعركة قتالًا شديدًا، وصبروا حتى كتب الله لهم النصر.

وبعد انتصار المسلمين في مَهَرَة جمع عكرمة الجيش ليذهب به إلى اليمن، وكان المتَّجِه إلى اليمن جيشان؛ الجيش العاشر بقيادة المهاجر بن أميَّة حيث اتَّجه إلى صنعاء، والجيش الحادي عشر بقيادة سُوَيْد بن مُقَرِّن توجه إلى تهامة، وكان الأسود العنسي قد ادَّعى النبوَّة قبل وفاة النبي ﷺ، ولكنه قُتل على يَدِ فيروز الدَّيْلَمي، وقيس بن مكشوح الذي كان على رأس المرتدِّين بعدما عَلِمَ بوفاة الرسول ﷺ، ولكنه هُزِمَ هزيمة ساحقة على يَدِ الجيوش الإسلاميَّة فاستسلم، واستسلم معه عمرو بن معد يكرب، وأرسلوا إلى الصِّدِّيق مع أحد الرسل، وفي الطريق أسلما قبل أن يصلا إلى المدينة، وقَبِل منهما الصِّدِّيق الإسلام.

جمع القرآن:

انتهت حروب الردَّة، وتمَّ القضاء على كلِّ مَن ادَّعى النبوَّة وبدأت أنظار المسلمين تتَّجه إلى أمرين؛ أوَّلهما: التفكير في جمع القرآن وحفظه؛ فقد كان القرَّاء والعلماء أسرع الناس إلى العمل والجهاد؛ لرفع شأن الإسلام والمسلمين، فخرج عدد كبير منهم لجهاد المرتدِّين، فكان استشهادهم في معركة اليمامة بمنزلة إنذار للمسلمين حتى يحفظوا قُرْآنهم من الضياع، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصِّدِّيق رضي الله عنه بجمع القرآن، فيقول أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن الكريم، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقُرَّاء في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلتُ لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟! فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزلْ عمر يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

فأَمَر الصِّدِّيق زيدَ بن ثابت رضي الله عنه بجمعه قائلًا له: إنك رجل شاب عاقل، لا نتَّهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآنَ فاجمَعْه. فقال زيد: فوالله لو كلَّفني نقلَ جبل من الجبال ما كان بأثقل على ممَّا كلفني به من جمع القرآن. وثاني الأمرين هو تأمين حدود دولتهم، فالفرس يقفون في وجه الدعوة الإسلاميَّة، ويساندون أعداءها، كما يحارب الروم الدعوة وينصرون خصومها.

الخروج للفرس والروم:

بدأت عداوة الفرس للمسلمين في عهد الرسول ﷺ، عندما أمر ملك الفرس عامله على اليمن أن يرسل من عنده رجلًا ليقتل رسول الله أو يأسره، بعدما أرسل له النبي مَن يدعوه إلى الإسلام، ولكن الله أَهْلَكَ ملك الفرس عندما ثار عليه قومه، وحفظ رسوله حتى مات.

وعندما ارتدَّت العرب ظنَّ الفرس أن العرب المرتدِّين سيقضون على الإسلام في مهده، ولكن الله خَيَّبَ ظنَّهم، فعادوا يكيدون للإسلام، فما كان من أبي بكر الصِّدِّيق إلا أن بعث إليهم خالد بن الوليد، وتحرَّك الجيش بقيادته نحو العراق، ونزل الحيرة فدعا أهلها إلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب فقَبِل أهل الحيرة أن

يدفعوا للمسلمين الجزية ويعيشوا في أمان وسلام، وكانت هذه أوَّل جزية تُؤخذ من الفرس في الإسلام.

وسار خالد بجيشه إلى الأنبار، فهزم أهلها حتى نزلوا على شروطه، وقبلوا دفع الجزية أيضًا. ثمَّ اتجه إلى "عين التمر"، ومنها إلى "دُومَة الجَنْدَل"، وفتحهما عَنوةً وقهرًا بعد أن رفض أهلها الإسلام والجزية وأعلنوا الحرب! فانتصر البطل الفاتح عليهم وأَمَّنَ بذلك حدود الدولة الإسلاميَّة الناشئة من ناحية الفرس.

حرب الروم:

لكن خطر الروم ما زال يهدد الدولة الإسلاميَّة!! فهذا هرقل إمبراطور الروم قد جمع قوَّاته على حدود فلسطين؛ وحرَّض العرب المجاورين له على معاداة المسلمين ليُوقِفَ المدَّ الإسلامي، ولكن كلمة الله لا بدَّ أن تكون هي العليا، ولا بُدَّ أن يُزيل أبو بكر رضي الله عنه كلَّ العوائق التي تقف في طريق الدعوة الإسلاميَّة، وتتربَّص بها، تريد القضاء عليها!

فدعا أبو بكر المجاهدين لحرب الروم في الشام، وأعلن التعبئة العامَّة ليُلَقِّن كلَّ الذين يُفَكِّرون في العدوان على الإسلام والمسلمين درسًا لا يُنْسَى، وتحرَّكت الجيوش من "المدينة المنورة" وبتشكيل أربع فرق، يقودها قوَّاد عباقرة عظام؛ فكان على رأس الأُولى "عمرو بن العاص" ووِجْهَتُه فلسطين، وكان على رأس الثانية "يزيد بن أبي سفيان" ووجهته دمشق، وكان على رأس الثالثة "الوليد بن عقبة" ووجهته وادي الأُرْدُنِّ، أما الرابعة فكان على رأسها "أبو عُبَيْدَة بن الجرَّاح" ووجهته حمص.

وكان الصِّدِّيق قد بَعث خالد بن سعيد بن العاص يُرابط بقوَّاته قرب مناطق يسيطر عليها الروم والقبائل العربيَّة التي تعتنق النصرانيَّة وتحالف الروم، ثمَّ أرسل قوَّاده الأربعة إلى بلاد الشام بعد ذلك، وقد أدرك الروم ما يرمى إليه خليفة المسلمين، فاستعدُّوا لحرب آتية لا بُدَّ منها مع المسلمين، فنقل هرقل مقرَّ القيادة إلى حمص ليكون أقرب من مَيْدَان القتال، ولما رأى المسلمون ذلك طلبوا من أبي بكر أن يرسل إليهم بالمدد، فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يتحرَّك بمن معه في نجدة إلى الشام، ولا سيَّما أن الفرس في حالة من الضعف، ورحل خالد بمن معه إلى الشام، حيث جَرَت معركة اليرموك بين المسلمين والروم، واحتشدت القوَّات للمواجهة، وقبل البدء في القتال كان أبو بكر قد تُوُفِّيَ يوم

الإثنين (٢٢ جمادى الآخرة عام ٢٣هـ/ ٦٣٤م) إثر إصابته بالحمَّى، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودُفِنَ في بيت عائشة بجانب قبر النبي ﷺ (١).

وفاة أبي بكر وخلافة عمر واستكمال المسيرة(٢):

كان أبو بكر حينما اشتد المرض عليه، وشعر بدنوِّ أجله رأى أن يحسم أمر اختيار خلفٍ له؛ خشية انقسام المسلمين بعده، فاختار عمر بن الخطاب خليفة له (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م)، بعد أن استشار كبار الصحابة، ثمَّ بايعه عامَّة المسلمين بعد ذلك.

فأعاد تنظيم الجيوش، ووُلِّيَ أبو عبيدة بن الجراح القيادة العامَّة لجيوش الشام بدلًا من خالد بن الوليد، فقادا الاثنين معًا معركة اليرموك التي انتهت بانتصار المسلمين.

واصل عمر استكمال الفتوح الإسلاميَّة التي بدأت في عهد الصِّدِّيق فقرَّر توجيه الإمدادات إلى العراق بعدما ضعفت هذه الجبهة برحيل خالد بن الوليد ضي الله عنه؛ إذ لم يتمكَّن المثنَّى بن حارثة من الاحتفاظ بما حقَّقه المسلمون من انتصارات، فارتدَّ إلى الحيرة وتحصَّن بها، وكتب بذلك إلى الخليفة، فأرسل عمر رضي الله عنه أبا عبيد بن مسعود الثقفي في خمسة آلاف مقاتل، وأمره بالسير إلى العراق لقتال الفرس، وكتب في الوقت نفسه إلى المثنى يأمره بالانضمام إليه بمن معه من العَسْكَر.

وبعد عدَّة اصطدامات جانبيَّة مع الفرس في أماكن متفرِّقة، وصل أبو عبيدة إلى قُسِّ النَّاطف -وهو موضع قريب من الحِيرَة على الضِّفَّة الشرقيَّة لنهر الفرات- حيث انضمَّ إليه المثنَّى مع قوَّاته، ودفع الفرس بجيش من أربعة آلاف مقاتل بقيادة جاذويه، وعسكر على الجانب الآخر من النهر.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٦/٣٨٥).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/٣٥).

قتال الفرس:

عبر أبو عبيدة واصطدم بالجيش الفارسي في رَحَى معركة عنيفة قُتل خلالها أبو عبيدة، وتراجع المسلمون عَبْر الجسر تحت ضغط المعركة، لكنَّ أحد المسلمين هدم الجسر؛ ليَحُولَ دون انسحابهم، ممَّا أضعف رُوح المسلمين المعنويَّة، وجعلهم عُرضة للقتل بعدما اختلَّ نظام صفِّهم، في هذه الأثناء نفَّذ المثنى خُطَّة تراجع منظَّمة؛ عَبَر النهر، وانحدر مسرعًا إلى الحيرة، ومنها إلى "أُلَيْس"، قرية من قرى الأنبار.

أضاعت معركة الجسر مكاسب المسلمين السابقة، وجعلت الحرب سجالًا، وأضحى موقف المثنَّى دقيقًا، واستمرار الفتح مستحيلًا، من دون دخول إمدادات جديدة إلى ميدان المعركة، فكتب إلى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يمدَّه بالمسلمين، تحرَّك الخليفة على وجه السرعة وجهَّز جيشًا بقيادة جرير بن عبد الملك الْبَجَلِي، وأمره بالتوجُّه إلى العراق، حيث انضمَّ إليه المثنى، وقذف الفرس -في هذه الأثناء- بجيش تعداده اثني عشر ألف مقاتل بقيادة مهران بن باذان الهمذاني للتصدِّي للمسلمين، واشتبك الجيشان في رحى معركة قاسية في البويب في شهر رمضان، أسفرت عن انتصار واضح للمسلمين.

تأثَّر الفرس بما حلَّ بهم من هزائم متكرِّرة أمام المسلمين، فثاروا على ملكتهم بوران بنت كسرى أبرويز، ونصَّبوا عليهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى، فعمل على توحيد الجبهة الفارسيَّة، وولَّى على قيادة جيوشه رستم بن هرمز.

ولما بلغت عمر هذه الأنباء جهَّز جيشًا جديدًا بلغ تعداده نحو عشرين ألف مقاتل، أمَّر عليه سعد بن أبي وقاص، وأرسله إلى العراق لمواجهة الموقف المتجدِّد، فالتحم الجيشان في رحى معركة (القادسية) في (شهر شعبان ١٥هـ)، استمرَّت عدَّة أيام، وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

وتُعد معركة القادسيَّة نصرًا حاسمًا للمسلمين في صراعهم مع الفرس، وضربة مميتة للحكم الفارسي في العراق، وتَمَكَّن المسلمون من تحطيم القوَّة الميدانيَّة للجيش الفارسي بشكل لن تقوم له قائمة بعدها، وأدَّى مقتل رستم إلى زيادة اليأس والاضطراب في صفوف الفرس، ومن بين نتائج المعركة عودة القبائل العربيَّة الضاربة في الشمال إلى طاعة المسلمين، كما اعتنق بعضها الإسلام.

فتح المدائن:

تابع المسلمون تقدمهم بعد المعركة باتجاه المدائن عاصمة يزدجرد، ولما رأى الملك الفارسي أن المسلمين أصبحوا على أبواب عاصمته عرض عليهم الصلح مقترحًا أن يجلو عن المدائن الدنيا على ضفة دجلة الغربيَّة تاركًا المنطقة للمسلمين، شرط أن يعترفوا بالنهر حدًّا فاصلًا بينهم وبينه، فرفض سعد هذا العرض، وواصل حصاره لبَهُرَسِير حتى دخلها، واندفع المسلمون، فعبروا نهر دجلة إلى المدائن ودخلوها.

لم ييأس يزدجرد بعد سقوط عاصمته، وأرسل جيشًا إلى جلولاء التي تقع على مفترق الطرق إلى أَذْرَبِيجَان والباب والجبال وفارس، فأرسل سعدَ هاشم بن عتبة على رأس قوَّة عسكريَّة، اصطدمت بالجيش الفارسي وأَجْلَتْهُ عن المدينة، ولما بلغت يزدجردَ أنباءُ هذه الهزيمة، وكان في حلوان، انسحب منها إلى الرِّيِّ في شمال فارس، وأتمَّ سعد فتح باقي مدن العراق مثل: تَكْرِيت، والمَوْصِل، وماسَبَذَان، وقَرْقيسِيَاء، وهِيت، ودَسْت مِيسَان.

ثمَّ رأى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن يقف بالفتوح عند حدود العراق، غير أن الأحداث عدَّلت من سياسته، فالفرس لم يعترفوا بالهزيمة، فجمعوا قوَّاتهم في الأهواز في الجنوب الشرقي من العراق، واتَّخذوها قاعدة انطلاق لشنِّ هجمات خاطفة على المسلمين، فاضطر المسلمون إلى فتح الأهواز ورامَهُرْمُز والسوس وتُسْتَر؛ لوقف الهجمات الفارسيَّة على صفوفهم وقواعدهم.

نهاوند فتح الفتوح ([1]):

جهز يزدجرد جيشًا جديدًا أمَّر عليه الفيرزان، واصطدم بالمسلمين بقيادة النعمان بن مقرِّن المُزَنِيِّ في نَهَاوَنْد من بلاد الجبل جنوبي هَمَذَان، وأسفر الصدام عن انتصار المسلمين رغم استشهاد قائدهم، كما قُتِلَ القائد الفارسي، وتراجعت فلول المنهزمين إلى حصن نهاوَنْد، وامتنعوا فيه، فحاصرهم المسلمون بقيادة حُذيفة بن اليمان الذي خلف النعمان، حتى استسلموا، وصالح أهل الحصن المسلمين على الأمان في (شهر محرم عام ١٩هـ).

([1]) ينظر: البداية والنهاية (٧ /١٢٣)، تاريخ الطبري (٣/٣١٢).

وتُعد معركة نهاوَنْد من المعارك الكبرى في تاريخ الفتوح الإسلاميَّة في فارس، وسمَّاها المسلمون "فتح الفتوح"؛ لأنها فتحت الطريق أمامهم للقضاء على الدولة الفارسيَّة نهائيًّا.

فتوح الشام (١):

أما الجبهة الشاميَّة فقد شَهِدت تطوُّرًا كبيرًا في أحداثها وخاصَّة بعد انهزام الروم في معركة اليرموك، فقد غادر هرقل بيت المقدس لمَّا عَلِم بانتصار المسلمين في اليرموك، واتَّجه إلى حمص؛ ليجعلها مقرًّا لأعماله الحربيَّة.

بينما اتجه المنهزمون إلى فِحْل، فوجَّه إليها أبو عبيدة بن الجراح قوَّة صغيرة، واتجه هو بجيشه إلى دمشق بناءً على مشورة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- الذي قال فيها لأبي عبيدة: ابدأوا بدمشق فانهدوا لها؛ فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهلَ فِحْل بِخَيلٍ تكون بإزائهم وأهلَ فلسطين وأهلَ حمص.

ولما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس، ونزل شُرَحْبِيل بن حَسَنَة بباب ثُومَاء، وقيس بن هبيرة بباب الفرج، وأبو عبيدة بباب الجابية، وبقي خالد بن الوليد بالباب الشرقي، وشدَّد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يومًا، ولم تُجْدِ منعةُ حصونهم وما عليها من مجانيق وغيرها من آلات الدفاع نفعًا، فمنع المسلمون المدد من أن يصل إليهم، ونفدت المؤن من عندهم، ونفد صبرهم، وانكسرت حميتهم، وتمَّ للمسلمين فتح هذه المدينة.

وبعد فتح دمشق (١٥ من رجب ١٤هـ) سار الجيش إلى فِحْل، فأعاد أبو عبيدة تنظيم الجيش مرَّة أخرى، وكان الروم قد جعلوا بينهم وبين المسلمين خطًّا مانعًا من الوَحْل؛ حتى يُعيق المسلمين عن التقدُّم، ولكن انتهت المعركة بهزيمة ساحقة جعلت من هذا الوَحْل وبالًا عليهم، فبعد مقتل أميرهم لم يستطيعوا الفِرَار من أرض المعركة المليئة بهذا الوَحْل، ولم يفلت منهم إلا الشريد، وانصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، فاستوليا عليها ثمَّ على حَمَاة، وقِنِّسْرِينَ واللاذقيَّة وحَلَب.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٣١/٧)، تاريخ الطبري (٢ / ٦٢٣).

أما شُرَحْبِيل وعمرو بن العاص فقد قصدوا بَيْسَان، فحاصروا أهلها أيَّامًا وأرغموهم على طلب الصلح والأمان، ولمَّا عَلِمَ أهل طبرية بما حلَّ بأهل فِحْل وبَيْسَان طالبوا بعقد صلح مع المسلمين، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر رضي الله عنه بالفتح.

أمَّا فلسطين في ذلك الوقت فكان عليها والٍ روماني يُدعى (أرطبون)، وكان من أدهى القوَّاد الرومان، وقد أقام جندًا كثيرًا ببيت المقدس -إيلياء- والرملة باعتبارهما أهمّ المدن الفلسطينيَّة، على حين عسكر بجنده الكثيف بأَجْنَادَيْنِ.

ولما رأى عمرو أن القوَّة التي مع الروم أقوى ممَّا كان يظنُّ، كتب إلى عمر بن الخطاب، فقال عمر: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عمَّا تنفرج. وكتب إلى القوَّاد أن يسيروا إلى قيسارية والرملة وبيت المقدس؛ ليشغلوا الروم عن عمرو.

سار عمرو إلى أَجْنَادَيْنِ (١٥هـ)، واقتتل المسلمون والروم قتالًا شديدًا -لا يقلُّ عن قتال اليرموك- فانهزم أرطبون بعد منازلته لعمرو بن العاص، فارتدَّ بالفارّين إلى بيت المقدس.

وكان من أثر انتصار عمرو على أرطبون أن أَذْعَن للمسلمين كل مَن كان بـيافا، ونابلس، وعسقلان، وغزة، والرملة، وعكا، وبيروت، ولُدّ، والجبلة، وفُتِحَت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس.

ثمَّ قصد عمرو بن العاص بعد ذلك بيت المقدس، وضرب حولها حصارًا شديدًا، وأخذ يُراسل الأرطبون مراسلة ودِّيَّة، ويطلب إليه تسليم المدينة، والأرطبون يأبى ذلك، واستمرَّ هذا الحصار أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال، والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر، إلى أن يئِس الروم من مقاومة حصار المسلمين لمدينتهم، فقرَّر بِطْرِيقهم (صفرونيوس) القيام بمحاولة أخيرة، وكتب إلى عمرو بن العاص -قائد جيش المسلمين- رسالة يُغريه فيها بفكِّ الحصار؛ نظرًا لاستحالة احتلال المدينة.

أمير المؤمنين يصلي بالمسجد الأقصى:

أراد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الصلاة بالمسجد الأقصى، فسأل كعبًا: أين ترى أن أُصَلِّيَ؟ فقال: إن أخذت عنِّي، صليت خلف الصخرة؛ فكانت القدس كلُّها بين يديك. فقال عمر: ضاهيت اليهوديَّة، لا، ولكن أُصَلِّي حيث صلَّى رسول الله ﷺ. فتقدَّم إلى القبلة فصلَّى، ثمَّ جاء فبسط ردائه، فكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس.

تأمين الفتوحات الشامية:

ظلّ عمرو بن العاص مع جيشه في فلسطين؛ للقضاء على القوَّة التي كانت لا تزال مع قسطنطين بن هرقل، فسار إلى قيسارية (قيصرية)؛ حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف، وقد تغلَّب على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبريَّة وهروب أبيه من أنطاكية، وتوهَّم أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة، فانسلَّ من قصره هو وأسرته خِفْيَة، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه مِن قبلُ، فلمَّا علموا بهروب أميرهم سلَّموا لعمرو.

عام الطاعون:

شهدت خلافة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-انتشار وباء الطاعون بصورة بشعة في بلاد الشام عام (١٨هـ)، وعُرف هذا الطاعون بطاعون عَمْواس، نسبة إلى قرية من قرى فلسطين، وقد تسبَّب هذا الطاعون في وفاة خمسة وعشرين ألف شخص، من بينهم بعض كبار الصحابة كأبي عُبَيْدَة، ومُعَاذ بن جبل، وشُرَحْبِيل بن حَسَنَة، وسُهَيْل بن عمرو، ويزيد بن أبي سفيان، وعامر بن غيلان الثقفي، وغيرهم.

فتح مصر:

عندما انتهى المسلمون من فتح بلاد الشام طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السير إلى مصر لفتحها، وقد استطاع عمرو إقناع عمر بن الخطاب بفتح مصر، حتى لا تكون أرض الشام معرَّضة لخطر مهاجمتها من الروم شمالًا، وجنوبًا من مصر عن طريق سيناء البريّ، وغربًا من بحر الروم، وبخاصة أن (أرطبون) -قائد الروم في فلسطين- قد فرَّ من فِلَسْطِينَ ولحق بمصر، وحشد جنود

الروم في مصر لقتال المسلمين لاستعادة بيت المقدس، فرأى عمرو بن العاص أن على المسلمين ألاَّ يُضَيِّعوا الوقت سُدًى دون مسوّغ، وأن يُوقِعوا بالأرطبون وقوَّات الروم قبل إنَّ يستفحل أمرهم، وقد أيَّده الفاروق عمر بن الخطاب، المعروف بتفكيره الحصيف المتميّز، ثمَّ أمدَّه بالزُبَيْر بن العوَّام، ومعه بُسر بن أبي أرطاة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجُمَحِي، فاتجه عمرو إلى حصن بابليون، وضيَّق عليه الخناق بضعة أشهر، وعندما طال وقت القتال، أرسل المقوقس برسالة إلى عمرو يتهدَّده فيها ويتوعَّده؛ إذ الروم مؤيّدُون للمقوقس، وهم قوَّة معه على قوَّته في مواجهة عمرو ومَن معه، لكنَّ عمرو بن العاص أرسل للمقوقس قائلاً: "ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إمَّا أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال، حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين" (١).

وبعد أن تبيَّن للمقوقس عَجْزَ البيزنطيين عن الوقوف ضدَّ المسلمين، وافق على عقد الصلح بشرط موافقة الإمبراطور عليه، ومع رفض الإمبراطور البيزنطي للصلح مع المسلمين، وحثِّه المقوقس على محاربتهم، هاجم المسلمون الحصن بالمجانيق، واستطاع الزبير بن العوام رضي الله عنه أن يدخل الحصن ببسالة فائقة منه، وتبعه المسلمون عام (٢٠هـ/ ٦٤١م)، فاضطر المقوقس إلى عقد معاهدة مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، وبمقتضى هذه المعاهدة دخل كثير من المصريين في الإسلام، ومَن بقي منهم على دينه كان يدفع الجزية التي أقرَّها الصلح، ولأن الشعب المصري عانى كثيرًا من ظلم الرومان فقد رحَّب بالمسلمين؛ لما يحملونه من قيم العدل والمساواة.

ثمَّ أرسل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه - قوَّةً إلى الصعيد بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح بِنَاءً على أوامر الخليفة ففتحها، وكان الوالي عليها، كما أرسل خارجة بن حُذافة إلى الفَيُّوم، ففتحها وصالح أهلها، وأرسل عُمَيْرَ بن وهب الجُمَحِيَّ إلى دِمْيَاط وتِنِّيس وما حولهما؛ فصالح أهل تلك الجهات، ثمَّ سار عمرو بن العاص إلى الغرب، ففتح بَرْقَةَ وصالح أهلها، وأرسل عقبة بن نافع ففتح زَوِيلَةَ، واتجه نحو بلاد النوبة ففتحها فتمَّ بذلك فتح مصر.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ / ١٠٦، ١٠٧).

إرساء مؤسسات الخلافة:

وفي عهد عمر -رضي الله عنه -اتَّسعت رقعة الدولة الإسلاميَّة اتِّساعًا كبيرًا، فكان لا بُدَّ لهذه الدولة من تنظيم حتى تستمرَّ، فحدَّد عمر نظام القضاء وأصوله في العهد الذي ولّى بموجبه أبا موسى الأشعري، وقد استلزمت الفتوح الإسلاميَّة التوسُّع في نظام القضاء، فكان يُرسل إلى كل مصرٍ من الأمصار قاضيًا، يختاره ليتولى الحكم في المسائل الدينيَّة أو الدنيويَّة بين أهل المصر، وليُشرف على الفيء والغنائم، ثمَّ خصَّص رجلًا آخر يقوم بتقسيم الغنائم، ويُعد عمر أوَّل مَن فصل السلطة القضائيَّة عن سلطة الحُكَّام، فكان القضاة يُعَيَّنُون منه مباشرة، ويتَّصلون به فيما يرَوْن من شئون المسلمين، ودون تدخُّل من وُلاة الأقاليم، وأوجد عمر إلى جانب القضاء ما يشبه ديوان المحاسبة، فكان لا يُصدر قرارًا بمعاقبة أحد من وُلاته أو عمَّاله إلا بعد تحقيق دقيق.

إنشاء الدواوين:

كان إنشاء الدواوين ضرورة لا بُدَّ منها؛ نظرًا لتدفُّق الأموال بكثرة على المدينة، بفعل اتِّساع رقعة الفتوحات؛ ممَّا دفع عمر إلى التفكير في وضع نظام لإحصائها وتوزيعها، فأقام عمر بن الخطاب تنظيم الديوان في عام (٢٠هـ) على ثلاثة أسس هي: درجة القرابة والنسب من الرسول ﷺ والسابقون الأوَّلون في الإسلام، ودرجة الجهاد والبلاء والشجاعة والإقدام في سبيل نشر الإسلام.

كما أنشأ عمر "بيت المال" لحفظ الأموال الفائضة عن أعطيات الجند، والإنفاق الضروري منها على مصالح المسلمين، وكانت موارده متعدِّدة الجوانب أساسها الزكاة والصدقات والجزية والعُشور والفائض من الخراج.

استشهاد الفاروق وخلافة عثمان:

ظلَّت الدولة الإسلاميَّة في عهده في قمَّة ازدهارها وتألُّقها، حتى جاء اليوم الموعود (٤ من ذي الحجة عام ٢٣هـ) الذي خرج عمر ليؤُمَّ الناس لصلاة الفجر، حتى إذا انتظم جمع المصلِّينَ، دخل في تلك اللحظة رجل ظهر فجأة بجانبه، وطعنه عدَّة طعنات

بخنجر مسموم، كان هذا الرجل أبا لؤلؤة فيروز، غلام المغيرة بن شعبة، وهو مِن سَبْي فارس، وتُوُفِّيَ عمر -رضي الله عنه -بعد ثلاثة أيام، ودُفِنَ بجوار قبر النبي ﷺ وأبي بكر الصِّدِّيق (١).

انتخاب الخليفة:

استمرَّ اهتمام الفاروق بالأُمَّة ووَحدتها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، فابتكر طريقة جديدة لانتخاب الخليفة؛ بأن جعل الشورى في عدد محصور من خيرة الصحابة، كلهم شهدوا بدرًا، ويصلحون لتولِّي أمر المسلمين، فعيَّنَ الفاروق رضي الله عنه ستَّة رجال من أفضل صحابة رسول الله ﷺ مكانة، حتى يتشاور المسلمون في اختيار أحدهم خليفة، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهم ، وأمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا، وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيرًا فقط، وليس له من الأمر شيء.

كما أمر صهيبًا الرومي أن يُصَلِّيَ بالناس أثناء التشاور، حتى لا يُوَلِّيَ إمامةَ الصلاة أحدًا من الستة؛ فيصبح هذا ترشيحًا من عمر له بالخلافة، وأمر المقداد ابن الأسود وأبا طلحة الأنصاري أن يراقبا سير الانتخابات.

وحدَّد الفاروق رضي الله عنه ثلاثة أيام لاختيار الخليفة الجديد -وهي مدَّة كافية- ولا يَزيدون عليها؛ حتى لا يحدث شقاق وخلاف بين المسلمين، ولذلك قال عمر رضي الله عنه- لهم: لا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير (٢).

مبايعة عثمان:

استقرَّ الأمر على مبايعة عثمان رضي الله عنه خليفة للمسلمين، وأُخِذَت البيعة في المسجد النبوي في شهر ذي الحجة (٢٣هـ)، إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف -وقد اعتمَّ بالعِمَامة التي عمَّمه بها رسول الله- بعدما أرسل إلى من كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، ومنهم: معاوية أمير الشام،

(١) ينظر البداية والنهاية (٧ /١٥٤)، تاريخ الطبري (٣ / ٢٦٤).

(٢) ينظر: الخلافة والخلفاء الراشدون صـ٢١٣ .

وعمير بن سعد أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، فاجتمع رجال الشورى عند المنبر فبايعه عبد الرحمن أولًا، ثمَّ بايعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون، ويُرْوَى أن علي بن أبي طالب أوَّل من بايع بعد عبد الرحمن بن عوف.

وقد شهدت خلافته- رضي الله عنه _وخاصَّة في العشر سنوات الأولى العديد من الفتوحات التي أرست دعائم الدولة الإسلاميَّة، وخاصَّة بعدما انتشر خبر وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان ذلك الخبر بمنزلة نقطة فاصلة في حياة الفرس والروم وبعض البلاد التي تمَّ فتحها في عهده، حيث بدأوا التفكير في نقض العهود التي أبرموها مع المسلمين، وفكَّروا في استرداد مُلْكِهم. حيث بدأت جيوش الروم في الإسكندريَّة التحرُّك بمعاونة القوَّة البَحْرِيَّة المرابطة لهم في الإسكندريَّة، فنقضت الإسكندريَّة عهدها عام (٢٥هـ)، فسار إليها عمرو بن العاص، وقاتل أهلَها، وأجبرهم على الخضوع، والعودة إلى عهدهم.

الفتوحات في خلافة عثمان بن عفان (١):

فتح إفريقية:

كان عمر بن الخطاب قد منع عمرو بن العاص من الانسياح في إفريقيَّة بعدما فتح طرابلس، إلا أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد سمح بذلك، وأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس قوَّة، فاجتاز طَرَابُلُس، واستولى على سفن للروم كانت راسية هناك على الشاطئ، ثمَّ واصل سيره في إفريقيَّة، والتقى بجيوش للبيزنطيين عام (٢٧هـ) في (سُبَيْطِلَة) في جنوب غربي القيروان التي لم تكن قد أُسِّسَت بعدُ، وحقَّق المسلمون فيها انتصارًا ساحقًا، إلا أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد اضطر إلى عقد معاهدة للصلح مع البيزنطيين مقابل جزية سنويَّة يدفعونها على أن يخلي إفريقيَّة، حيث اضطر للعودة إلى مصر لمواجهة النوبة، الذين هدَّدوا مصر من ناحية الجنوب.

إنشاء الأسطول الإسلامي:

ظلّ معاوية رضي الله عنه يُقنع عثمان رضي الله عنه بضرورة إنشاء أسطول قويٍّ، قادر على غزو البحر؛ لمواجهة التهديدات الروميَّة، فأَذِنَ له قائلاً: لا

(١) ينظر البداية والنهاية (٧ /١١٤ :١٧٠)، تاريخ الطبري (٣ / ٤٣١).

تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأَعِنْهُ. ففعل ذلك، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بن فزارة.

ثمَّ غزا معاوية قُبْرُص، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدُّونها إلى المسلمين كل سنة وذلك عام (٢٨هـ)، بينما غزا حبيب بن مسلمة بعض الحصون في الشام، والتي كانت لا تزال بيد الروم وذلك عام (٢٨هـ).

وفي عام (٣١هـ) جَرَت معركة بحْرِيَّة حاسمة بين المسلمين والروم تُعْرَف بـ (ذات الصواري)، وكان قائد المسلمين أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقائد الروم الإمبراطور قسطنطين الثاني، الذي كان يقود أكثر من خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد فرَّ من المعركة، وهُزِم الروم شرَّ هزيمة.

وفي عام (٣٣هـ) غزا معاوية بن أبي سفيان "حصن المرأة" من أرض الروم قرب ثغر ملاطية (١).

زيادة رقعة الخلافة الإسلامية:

عندما نقضت إفريقيَّة العهد عام (٣٣هـ) سار إليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح (أمير مصر) ففتحها ثانية، وأَجْبَر أهلها على الخضوع والعودة إلى دفع الجزيرة بعدما منعوها[٧٠].

أما الجبهة الغربيَّة فكانت غزوات أهل الكوفة جهة الرِّيِّ وأَذْرَبِيجَان، فقد صار إلى الثغرَيْنِ عَشَرَة آلاف مقاتل من أهل الكوفة، ستَّة آلاف تَكُونُ بأَذْرَبِيجَان، وأربعة آلاف بالرِّيِّ، وكان بالكوفة في ذلك الوقت أربعون ألف مقاتل، وكان يذهب لهذين الثغرين منهم عشَرة آلاف مقاتل كلَّ سنة، فكان الرجل يُصِيبه في كل أربعة سنين غزوة، وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامي في تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو، وإعادة مَن شقَّ العصا إلى الطاعة.

ففي عهد إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة (٢٥ - ٢٩هـ)، انتقضت أَذْرَبِيجَان العهد، ومنعت ما كانت صالحت عليه، فغزاها الوليد حتى رضيت بأنَّ تؤدِّيَ ما كانت صُولحت عليه، وسَيَّر سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أَرْمِينِيَة، فشتَّت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة.

---

(١) ينظر البداية والنهاية (٧ /١٧٧) ، تاريخ الطبري (٣ / ٣٦١).

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص فُتِحَت طَبَرِستان[٧٣] حيث سار إليها بجند كثيف، فيه الحسن والحسين رضي الله عنهما ابنا على رضي الله عنه، والعبادلة: أبناء العباس، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، والزبير، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم، فقاتل أهلَ طبرستان حتى طلبوا الصلح.

كما أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي سنة (٣٢هـ) في بلاد الخَزَر -وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بـ"الدربند"- حتى وصل بَلَنْجَر، وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب، ولكنَّ الترك تجمَّعوا بكثرة بالغة، فأُصيب عبد الرحمن بن ربيعة، وانهزم المسلمون، فتفرَّقوا فرقتين: فرقة عادت فقاتلت مع سلمان بن ربيعة، الذي كان قد أُرسل مددًا لأخيه فنَجَتْ، وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان، وجَعَل على ثغر الباب عبدُ الرحمن أخاه سلمان.

أما البصرة فكانت غزواتها في بلاد فارس وخراسان وثغر السند:

ففي عهد إمارة عبد الله بن عامر: انتقض أهل فارس العهد، وقتلوا أميرهم عبيد الله بن مَعْمَر، فسار إليهم ابن عامر، وأوقع بهم وقعة شديدة.

وفي عهد إمارة ابن عامر على البصرة قُتِلَ يزدجرد آخر ملوك الفرس سنة (٣١هـ)، وبموته انتهت الدولة الساسانية.

وفي سنة (٣١هـ) نقضت أهل خراسان عهدها فخرج إليهم ابن عامر في جيش كثيف، فلما وصل الطَّبَسَيْنِ، وهما بابا خراسان، تلقَّاه أهلها بالصلح، ثمَّ سار إلى قُوهِسْتَان، فقاتل أهلَها حتى طلبوا الصلح فصالحهم، ثمَّ قصد نَيْسَابور فصالحهم، ثمَّ وجَّه الأحنف بن قيس إلى طَخَارستان -ولاية واسعة من نواحي خراسان- ثمَّ إلى مَرْوِ الرَّوْذِ، فلقيته جموع فهزمها، وكانت للأحنف فتوح كثيرة في تلك الجهات، ثمَّ صار إلى بَلْخ فصالحه أهلها، ثمَّ ذهب إلى خُوَارِزم، فاستعصت عليه فعاد عنها، ولما تمَّ لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة.

وهكذا فقد كانت الفتوحات أيام عثمان بن عفان واسعة؛ إذ أضافت بلادًا جديدة في إفريقيَّة وقُبْرُص وأرْمِينِيَة، وأَجْبَرَت مَن نَقَضَ العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب، وضمَّت هناك -إضافةً إلى ذلك- فتوحات جديدة في بلاد السند، وكَابُل، وفَرْغَانَة.

مصحف عثمان:

من أعظم أعمال عثمان رضي الله عنه أنه جمع المسلمين على مصحف واحد، فعن أنس بن مالك: أن حُذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أَرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجَان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسَخْهَا في المصاحف ثمَّ نردُّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزُبَيْر، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كلِّ أفق بمصحف ممَّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (١).

فكان السبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن للمرَّة الثانية -مع أنه كان مجموعًا مرتَّبًا في صحف أبي بكر الصِّدِّيق- إنما هو اختلاف قرَّاء المسلمين في القراءة اختلافًا أَوْشَك أن يؤدِّيَ بهم إلى أخطر فتنة في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة ودِعَامة الدين، وأساس بناء الأُمَّة الاجتماعي والسياسي والخُلُقي، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتي خير من قراءتك. فأفزع ذلك حذيفة، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين وإمامهم، وطلب إليه أن يُدرك الأُمَّة قبل إنَّ تختلف فيستشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيُمَسُّ نصُّ القرآن، وتُحَرَّف كلماتُه وآياته عن مواضعها، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كلِّ أُمَّة على نفسها في كتابها.

ولم يُقْدِم عثمان رضي الله عنه على هذه الخطوة إلا بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيان الأُمَّة وأعلام الأئمة وعلماء الصحابة، وفي طليعتهم على بن أبي طالب ضي الله عنه، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأُمَّة وقادتها الهادِينَ المهدِيِّين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عَرَف رأيهم وعَرَفوا رأيه، فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للرَّيْب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يُعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عُرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الذي يخفى على آحاد الأُمَّة فضلًا عن علمائها وأئمتها البارزين.

وبعث ـ رضي الله عنه - مع كل مصحف مَن يُرشد الناس إلى قراءته، بما يحتمله رسمه من القراءات ممَّا صحَّ وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكِّي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يُقرئ الناس بالمدينة.

الفتنة:

بدأت بوادر الفتنة في الظهور في أواخر عهده (رضي الله عنه) على يَدِ يهودي يُسَمَّى "عبد الله بن سبأ"، وكان أوَّلُ ظهوره في اليمن عام (٣٠هـ)، حيث أظهر الإسلام، ولكنَّه طعن فيه بما تَلَقَّاهُ من تعاليم المجوسية، فأخذ يتنقَّل بين بلاد المسلمين ناشرًا أفكاره وآراءه، فذهب إلى الحجاز، ومنها إلى العراق، فالبصرة فتبعه الأشتر النَّخَعِيُّ، وحُكَيْم بن جَبَلَة، ثمَّ انتقل ابنُ سبأ إلى مصر، ووجد في مصر مناخًا مناسبًا لأفكاره؛ لأنَّ معظم المجاهدين خرجوا إلى الفتوحات في ليبيا، وآخرين في السودان، ومَن كان موجودًا إنما هم قِلَّة من المسلمين، فاستطاع ابن سبأ أن يجمع حوله قِلَّةً من الناس، واستقرَّ في مصر، وكان لدى ابن سبأ عدد من الأفكار والعقائد الأساسيَّة التي كان يبثُّها في أتباعه، ويدعو إليها وينشرها، فمن ذلك: (عقيدة الرجعة) المأخوذة عن المجوسية، والتي يدَّعي فيها عودة محمد ﷺ بعد موته، وكذلك (عقيدة الوصاية)، ويزعم فيها أنَّ أمر النبوَّة منذ آدم - عليه السلام- وحتى محمد ﷺ بالوصاية، ويدَّعي فيها أيضًا أن النبي ﷺ قد أوصى بالأمر لعليٍّ ضي الله عنه، وأَخَذ يُرسل بذلك إلى أهل الأمصار المختلفة.

فتبعه المنافقون والطامعون في الإمارة والمتآمرون، الذين أقام الخليفة الحدَّ على أحدهم، فقاموا ضدَّه، وتبعه كذلك الجهلة من المسلمين، فبدأ هؤلاء الطعن في الأمراء، ثمَّ وصل إلى الطعن في الخليفة نفسه، وأعدَّ ابن سبأ قائمة بالطعون في عثمان رضي الله عنه، وأرسلها إلى الأمصار والبُلدان، ووصل الأمر إلى أمراء المسلمين، وإلى الخليفة رضي الله عنه، فأرسل مجموعة من الصحابة يفقِّهون الناس، ويعلِّمونهم، ويدفعون عنهم هذه الشبهات، فأرسل محمد بن مَسْلَمَة إلى

الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمَّار بن ياسر إلى مصر، وعبد الله بن عمر إلى الشام.

وكان أهل الشام أقلَّ الناس تأثُّرًا بهذه الفتنة؛ لأن معاوية رضي الله عنه كان يَسُوس الناس بحكمة وحلم، فأحبَّه الناس حبًّا شديدًا، وظهرت الفتنة لأوَّل مرَّة بصورة علنية في الكوفة سنة (٣٣ هـ)، فقد جمع الأشتر النَّخَعي حوله مجموعة من الرجال تسعة أو عشَرة، وبدأ يتحدَّث جهارًا نهارًا عن مطاعن يأخذها على عثمان رضي الله عنه، كلها مطاعن زورٍ وبهتان.

فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى وُلاته كي يستشيرهم في أمر هذه الفتنة، فأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام، وإلى عبد الله بن عامر واليه على البصرة، وسعيد بن العاص واليه على الكوفة، وعبد الله بن أبي سرح واليه على مصر، وجاءوا جميعًا إلى عثمان رضي الله عنه بالمدينة، وبعد أن عرض عليهم الموقف فأشار عبد الله بن عامر أن يشغل الناس بالجهاد حتى لا يتفرَّغوا لهذه الأمور، وأشار سعيد بن العاص باستئصال شأفة المفسدين وقطع دابرهم، وأشار معاوية رضي الله عنه بأن يُرَدَّ كلُّ والٍ إلى مصره فيكفيك أمره، أما عبد الله بن أبي سرح فكان رأيه أن يتألَّفهم بالمال، وقد جمع عثمان رضي الله عنه في معالجة هذا الأمر بين كل هذه الآراء، فأخرج بعض الجيوش للغزو، وأعطى المال لبعض الناس، وكلَّف كلَّ والٍ بمسئوليَّته عن مصره، ولكنه لم يستأصل شأفتهم([1]).

اشتعال الفتنة:

أراد رءوس الفتنة أن يُشعِلوا الأمر أكثر وأكثر، حتى يجتثُّوا الدولة الإسلاميَّة من جذورها، فبدأوا يُكثرون الطعن على عثمان، ويكتبون هذه المطاعن المكذوبة والمفتراة، ويُرسلونها إلى الأقطار مُوَقَّعَةً بأسماء الصحابة افتراء على الصحابة، فيُوَقِّعُون الرسائل باسم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والسيدة عائشة (رضي الله عنهم).

وكان الثوَّار قد جمعوا أنفسهم من البصرة، والكوفة، ومصر، وبدأوا في التوجُّه ناحية المدينة المنوَّرة، واتَّفقوا على عزل عثمان رضي الله عنه، واختلفوا فيمن يتولَّى الخلافة بعده، فأرادها أهل مصر لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، في

([1]) ينظر البداية والنهاية (٧ /١٨٧) ، تاريخ الطبري (٣ / ٣٨٠).

حين أرادها أهل الكوفة للزبير بن العوام رضي الله عنه، وأرادها أهل البصرة لطلحة بن عبيد الله، فلمَّا وصلوا المدينة -وعلم المسلمون بقدومهم لهذا الأمر- أرسل عثمان (رضي الله عنه) لكلِّ فرقة منهم مَن أرادوه خليفة، فذهب علي لفرقة أهل مصر فزجرهم وعنَّفهم، وقال لهم: لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صبَّحكم الله.

وفعل مثله صاحباه طلحة والزبير رضي الله عنهما، فطلب الثوَّار من الثلاثة مقابلة الخليفة لعرض شكواهم عليه، فدخلوا المدينة، والْتَقَوْا بأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وأخذوا يُناقشونه فيما أخذوه عليه، ثمَّ أخذوا يَعُدُّونَ عليه المآخذ، وهو يردُّ عليهم ويفنِّد مزاعمهم.

وبعد أن انتهَوْا من حوارهم قال لهم عثمان رضي الله عنه: ماذا تريدون؟ قالوا: المنفيُّ يعود، والمحروم يُعطَى، وتَسْتَعْمِلُ ذوي الأمانة والقوَّة، وأن تَعْدل في القسمة. فوافقهم رضي الله عنه على ما قالوا، وكتب ذلك في كتابٍ، وشرط عليهم عثمان رضي الله عنه ألاّ يشقُّوا له عصًا، ولا يُفَرِّقوا جماعة المسلمين، وأعطَوْه عهدًا بذلك، وخرجوا من المدينة راضِين، وظنَّ المسلمون في المدينة أن الفتنة قد خمدت، وبات المسلمون ليلة سعيدة بعد خِضَمِّ أحداث عظيمة استمرَّت شهورًا (١).

حصار عثمان:

ولكن الفتنة لم تُخْمَد بتحقيق المطالب؛ ذلك لأن قادة الفتنة لم يكونوا في الحقيقة طالبين للحقِّ، وإنما متآمرين للفتنة، وللتفريق بين المسلمين، من هنا ما إن بدأت الفِرَقُ في العودة حتى انتشرت بعض الرسائل الملفَّقة، منها رسالة مع الفرقة القادمة من مصر، بأنَّ عثمان رضي الله عنه أَمَر بقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وأَمَر والِيَه على مصر بقتل رءوس الفتنة، فعاد رءوس الفتنة إلى المدينة من جديد، وحاصروا عثمان رضي الله عنه في بيته، وعندما وجد عثمان رضي الله عنه -أن الأمر قد وصل إلى هذا الحدِّ، وأن اللين لن يُجدي مع هؤلاء؛ كتب رضي الله عنه رسائل إلى ولاته في الأمصار أن يرسلوا إليه بالجيوش لحلِّ هذه الأزمة، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، وإلى أبي موسى

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ /١٩٤).

الأشعري رضي الله عنه بالكوفة، وإلى والي البصرة، ولكن فكرة قتل الخليفة لم تكن قد ظهرت بعدُ، بل ما يطلبونه هو عزله، ولم يُصرِّحوا بكلمة القتل مطلقًا.

ولكنَّهم اقتحموا داره رضي الله عنه، فدخل عليه كنانة بن بشر -الملعون- وحمل السيف وضربه به، فمات شهيدًا رضي الله عنه - يوم ١٨ من ذي الحجة ٣٥هـ (١).

خلافة علي بن أبي طالب:

ظنَّ المتآمرون أنهم قضَوْا على الدولة الإسلاميَّة العملاقة، ولكن خاب ظنُّهم بعدما تمّت بيعة على رضي الله عنه بالخلافة عقب استشهاد عثمان بن عفان، وبعد إلحاح شديد من الصحابة؛ حتى يَقْبَل قيادة الأُمَّة في مثل هذا الوقت العصيب، فذهب بعض الصحابة إليه، فقالوا: إن هذا الرجل قد قُتل، ولا بُدَّ للناس من إمام، ولا نجد أحدًا أحقَّ بها منك؛ أقدم مشاهد، ولا أقرب من رسول الله ﷺ. فقال علي: لا تفعلوا فإني وزير خير من أمير. فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال: ففي المسجد فإنه ينبغي بيعتي ألَّا تكون خَفِيًّا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين.

فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد كراهية أن يُشْغَبَ عليه، وأبى هو إلَّا المسجد، فلما دخل المسجد جاء المهاجرون والأنصار فبايعوا وبايع الناس.

ولولا إسراع بيعته رضي الله عنه لأدَّى ذلك إلى فتنٍ واختلافات في جميع الأمصار، فكان من مصلحة المسلمين أن يَقْبَل علي البيعة مهما كانت الظروف المحيطة بها.

لقد كان مقتل عثمان- رضي الله عنه -سببًا مباشرًا في خَلْقِ أزمةِ فتنةٍ كبرى، تضاربت فيها الآراء وتباينت فيها وجهات النظر، واختلفت الاجتهادات في الوسيلة للانتقام من الخوارج الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه.

فقد رأت طائفة من الصحابة أن أوَّل واجب على الأُمَّة هو الثأر لخليفتها الشهيد والقِصاص من القتلة الآثمين، ورأى آخرون أن أول ما ينبغي هو اجتماع الكلمة، واسْتِتْبَاب الأمن، والصبر حتى تهدأ الأحوال وتنكشف ذيول المؤامرة، ثمَّ يكون استئصال شأفتها وقطع دابر دواعيها.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ /١٩٤).

ورأت طائفة ثالثة أن يُؤثروا العافية، وألَّا يكونوا طرفًا في أي نزاع، فبدأ الخلاف بين علي -رضي الله عنه- وطلحة والزبير والسيدة عائشة -رضي الله عنهم جميعًا؛ بسبب التعجيل بالقِصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خروجهم إلى البصرة إلا لهذا الغرض.

ثمَّ تحرَّك معهم سبعمائة رجل من أهل مكة والمدينة، انضمَّ إليهم بعض المؤيِّدين حتى وصل عددهم ثلاثة آلاف، بحثًا عن مكان مناسب وأكثر بُعدًا عن نفوذ الخلافة، فاتَّجهت أنظارهم إلى البصرة، فحثُّوا أهلها على مساعدتهم في معاقبة قتلة عثمان رضي الله عنه.

وانقسم مجتمع البصرة إلى قسمين؛ قسم قاتل مع علي وساند والِيَه عثمان بن حُنَيْف، وقسم آخر تعاطف مع طلحة والزبير وعائشة -رضي الله عنهم، ونتيجة لذلك انهزم عثمان بن حُنَيْف والِيَ البصرة، وتمَّ الاستيلاء على البصرة وقُبض على واليها، وزُجَّ في السجن، ولكن عائشة -رضي الله عنها- تدخَّلت وأطلقت سراحه (١).

الثأر لمقتل عثمان:

بدأ طلحة والزبير وعائشة -رضي الله عنهم- إرسال الرسل إلى أهل الشام وأهل اليمامة وأهل المدينة لحثهم على إقامة حدِّ الله على قاتل عثمان، وعندها قرَّر علي -رضي الله عنه- مغادرة المدينة والاتِّجاه نحو الكوفة لتكون مقرًّا له؛ لكونها في نظره مُسْتَقَرَّ أعلام ورجال المسلمين العظام؛ ففيها أبو موسى الأشعري، وابن مسعود، وغيرهم، فأرسل علي -رضي الله عنه- إلى واليها أبي موسى الأشعري لتجهيز الرجال للقضاء على الفتنة، ولكنَّه تحفَّظ علي طلب علي رضي الله عنه؛ لأنه كان يرى أن تجهيز الرجال سيُوقِع المسلمين في فتنة (صمَّاء عمياء) كما كان يسمِّيها، فطلب أبو موسى الأشعري من الكوفيين أن يغمدوا سيوفهم ويقبعوا في بيوتهم؛ حتى تزول الفتنة، ولكن عليًّا رضي الله عنه تجاور أبا موسى الأشعري، فأرسل ابنه الحسن فعزله عن الكوفة، وكوَّن جيشًا منها بلغ تعداده عشرين ألفًا.

ثمَّ اتَّجه صوب البصرة، وبدأ التفاوض مع الزبير وطلحة وعائشة رضي الله عنهم، فأرسل إليهم طالبًا منهم لمَّ شمل الأمة بعودة الأمور إلى نصابها وإعادة

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٦٠)، تاريخ الطبري (٣ /٥٨٥).

بناء وَحدة المسلمين، ولكن الزبير وطلحة وعائشة - رضي الله عنهم- كانوا يرَوْن أن الإصلاح لن يتمّ إلا بالثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه.

وقد أبدى طلحة والزبير مرونة كبيرة إزاء مهمَّة القعقاع خشية وقوع أوَّل مواجهة عسكريَّة بين الإخْوَة، ثمَّ عاد القعقاع إلى على وقد نجح في مهمَّته، وأخبر عليًّا بما جرى معه، فأُعجب بذلك، وأوشك القوم على الصلح، كرهه من كرهه، ورضيه من رضيه.

علم المتآمرون أتباع ابن سبأ ومَن أعانهم على قَتْل عثمان ببوادر الصلح فقرَّروا إفساده، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثمَّ اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فرقتين، ويبدأوا بالحرب، فيغير الفريق الذي في معسكر علي على طلحة والزبير ومن معهما، ثمَّ يقوم الفريق الذي في معسكر طلحة والزبير بإثارة الحمية في نفوسهم؛ حتى تشتد الحرب بين الفريقين فتقع الفتنة كما يريدون ([1]).

معركتا الجمل وصفين:

جَرَتْ فتنة معركة الجمل سنة (٣٦هـ) على غير اختيار من على ولا من طلحة، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

وانتهت المعركة بهزيمة جيش طلحة والزبير وعائشة، حيث أُصيب الأول بسهم في ركبته، فانسحب من المعركة ليموت في البصرة، بينما قُتل الزبير، ودارت معركة أمام الجمل الذي يحمل عائشة رضي الله عنها، فتنبه علي إلى ذلك، فأمر بعقر الجمل، فتوقَّف القتال، وأُعطي البصريون الأمان، ثمَّ أمر علي رضي الله عنه بحراسة عائشة رضي الله عنها حتى تعود إلى المدينة، وقد مات من جيش البصرة عشرة آلاف ومن جيش على خمسة آلاف.

واستقرَّ على رضي الله عنه بالبصرة شهرًا، ثمَّ انتقل منها إلى الكوفة، ولما استقرَّ على رضي الله عنه أرسل الصحابي جرير بن عبد الله البَجَلِيَّ إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وكتب معه كتابًا إلى معاوية يُعْلِمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في معركة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس.

([1]) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٦٠: ٢٦٦)، تاريخ الطبري (٣ /٥١٨).

ولم يكن من سياسة معاوية رضي الله عنه - العجلة، فتأنَّى في هذه المسألة وجمع رءوس أهل الشام يستشيرهم، ثمَّ دعا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) ليشهد تلك المشورة، فأبوا أن يُبايعوا حتى يُقتل قتلة عثمان، أو أن يُسلَّم إليهم قتلته.

معركة صفين:

أعلم معاويةُ جَرِيرًا برأي أهل الشام، فعاد إلى علي -رضي الله عنه- وأخبره بما قالوا، فاستعدَّ علي- رضي الله عنه- لغزو الشام؛ لإدخالها في طاعته، فجهَّز جيشًا قوامه خمسين ألفًا، ونزل بهم صِفِّينَ، وسار معاوية بجيش قِوَامه سِتُّون ألف مقاتل، ثمَّ دار القتال بين الجيشين، ولكنَّه دار في حدود ضيِّقة على هيئة كتائب صغيرة تُرْسَل فتقاتل اليومَ ثمَّ تعود، وقد تجنَّب الجيشان القتال بكامل الجيش؛ خشية الهلاك والاستئصال، وأملًا في وقوع صلح بين الطرفين تُصان فيه الأرواح والدماء.

وما إن دخل شهر محرم حتى بادر الفريقان إلى الهدنة، فأرسل علي -رضي الله عنه- إلى معاوية -رضي الله عنه-يدعوه إلى الدخول في الجماعة والمبايعة مرَّة أخرى، ولكن معاوية ردَّ عليه بنفس الردِّ السابق، فعادت الحرب على ما كانت عليه من قتال الكتائب الفرق خشية الالتحام الكُلِّيّ.

اشتبك الجيشان في معركة فاصلة كثر فيها القتل، وقُتل فيها عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي جاوز التسعين عامًا، ورغم سنِّه كان يستنهض الهمم للحرب، ولكنَّه كان بعيدًا كلَّ البُعد عن الغلوّ، فقد سمع رجلًا بجواره يقول: كفر أهل الشام. فنهاه عمار عن ذلك، وقال: إنما بَغَوْا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيتهم؛ فإلهنا واحد، ونبيُّنا واحد، وقبلتنا واحدة.

وكان أشدُّ أيام القتال هي الأيام التسعة الأخيرة من هذه المعركة، وأشدُّها آخر ثلاثة أيام، لا سيَّما بعد مقتل عمار بن ياسر- رضي الله عنه، وفي الليلة التي سُمِّيت بليلة الهرير.

وقد قُتل من جيش علي بن أبي طالب -رضي الله عنه -خمسة وعشرون ألفًا، وقُتل من جيش معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه-خمسة وأربعين ألفًا، أي نصف الجيش، فكان مجموع القتلى والشهداء سبعين ألفًا من كلا الطرفين، ولم يجتمع للمسلمين قطُّ منذ بدء الدعوة ونزول الرسالة حتى هذه اللحظة جيش قوامه سبعون ألفًا، وهو عدد القتلى والشهداء في هذه الموقعة، وكانت خسارة فادحة

للمسلمين، لم يتوقَّعها أحد على الإطلاق ممن شارك في القتال، سواءٌ من طرف علي -رضي الله عنه- أو معاوية رضي الله عنه (١).

قصة التحكيم وظهور الخوارج:

استمرَّ القتال على أشُدِّه طَوَال الليل، وبدأت الكفَّة ترجح بشدَّة لصالح علي- رضي الله عنه، وبدأت الهزيمة تدبُّ في جيش معاوية، وكان النصر وشيكًا، عندئذٍ فكَّر "عمرو بن العاص" رضي الله عنه في حيلة تُخرج جيشه من هذه المشكلة، فأشار على "معاوية" أن يرفع المصاحف، في إشارة إلى تحكيم كتاب الله - عز وجل - فيما حدث، وذلك حتى لا يزيد القتل بين المسلمين، ففعل معاوية ذلك، ورضي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأكثر جيشه بأمر التحكيم، وأخرج كلا الجيشين رجلًا منهم للتحكيم، فخرج "عمرو" من جيش معاوية، و"أبو موسى الأشعري" من جيش علي، والتقى أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص - رضي الله عنهما- في مكان (صِفِّين)،وبدآ يفكِّران في كيفية إيجاد حلٍّ لهذه المعضلة التي ألمَّت بالمسلمين، فاتَّفقا ابتداءً على كتابة كتابٍ مبدئي يضع أُسُس التحكيم، ولن يكون هو الكتاب النهائي. فكتبوا: "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، أننا نزلنا عند حكم الله وكتابه، ونُحْيِي ما أحيا الله، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله عَمِلا به، وما لم يَجِدَا في كتاب الله، فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المتفرّقة".

ثمَّ ذهب كلٌّ من الحكمَيْنِ إلى كل فريق على حِدَةٍ، وأَخذا منهما العهود والمواثيق أنهما -أي الحكمين- آمنان على أنفسهما وأهليهما، وأن الأُمَّة كلها عونٌ لهما على ما يريان، وأن على الجميع أن يُطيع ما في هذه الصحيفة. فأعطاهم القوم العهود والمواثيق على ذلك، فجلسا معًا، واتَّفقا على أنهما يجلسان للحُكْم في رمضان من نفس العام، وكان حينئذٍ في شهر صفر سنة (٣٧هـ)؛ وذلك حتى تهدأ نفوس الفريقين، ويستطيع كلُّ فريق أن يتقبَّل الحكم أيًّا كان، وشهد هذا الاجتماع عشرة من كل فريق، وممن شهد هذا الاجتماع عبد الله بن عباس، وأبو الأعور السُّلَمِيُّ، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وخرج الأشعث بن قيس، والأحنف بن قيس رضي الله عنهما، وهما من فريق علي بن أبي طالب رضي

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ / ٣٠٤).

الله عنه، وقرأ الأشعث بن قيس الكتاب على الفريقين، فوافق الجميع على هذا الأمر، وبدأوا في دفن الشهداء والقتلى، يقول الزهريُّ: كان يُدفن في كل قبر خمسون نفسًا؛ لكثرة عدد القتلى والشهداء.

كادت الفتنة -بهذا الرأي الأخير حول التحكيم وتهدئة الأوضاع الثائرة- أن تنتهي، إلا أن فرقة من جيش علي رضي الله عنه، لما رجعت إلى الكوفة أخذت تُردِّد مقولة: "أتحكِّمون الرجال في دين الله؟" وأعلنوا غضبهم من أمر التحكيم قائلين: لا حكم إلا لله (١).

ظهور الخوارج:

لما عاد علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- إلى الكوفة، سمع رجلًا يقول: ذهب على ورجع في غير شيء!! وفي هذا لوم له -رضي الله عنه- على أمر التحكيم. فقال علي رضي الله عنه: لَلَّذِين فارقناهم خيرٌ من هؤلاء، وبلغ عددُ مَن يردِّد كلمة: "لا نحكِّم الرجال في دين الله، ولا حكم إلا لله"، اثني عشر ألف رجلًا، وكان أكثرهم من حفظة القرآن الكريم، وسُمُّوا بالخوارج؛ لأنهم خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تنبَّأ بهذه الطائفة الرسول العظيم ﷺ، وهذا من دلائل نبوَّته ﷺ القائل: "تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ(٢)".

فلم يكن من علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- إلا أن ذهب إليهم ليحاورهم، ويردَّهم بالتي هي أحسن، وناقشهم فيما أخذوه عليه، ثمَّ أرسل إليهم حَبر الأُمَّة "عبد الله بن عباس" ضي الله عنه، فلما دار هذا الحوار بين عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- وبينهم على مدار ثلاثة أيَّام، رجع منهم أربعة آلاف وتابوا على يديه، وعادوا معه إلى الكوفة، فكانوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أما الباقون الذين عاندوا ولم يرجعوا عمَّا هم عليه فقد ظلُّوا يتردَّدون على الكوفة، ويتردَّد عليهم رسلُ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- لإقناعهم، ولكن دون جدوى.

ومع مرور الوقت، وقرب عقد المجلس الذي سيتمُّ فيه التحكيم، بدأ هؤلاء يتعرَّضون لعليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- بما لا يليق، وخرجوا عن دائرة

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ /٣٠٧).

(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم (٢٥٠٧)

النقاش المهذَّب، وبدأوا بالسباب والشتائم، وعلى -رضي الله عنه- يصبر عليهم، ويردُّ عليهم بالتي هي أحسن تجنُّبًا للفتن، واستمرَّ الوضع هكذا يزداد يومًا بعد يوم، حتى قام له رجل منهم، وهو يخطب، فقال له: يا علي، أَشْرَكْتَ الرجالَ في دين الله، ولا حكم إلا لله. وتنادَوْا من كل جانب: لا حكم إلا لله. فقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه: هذه كلمة حقٍّ أُريد بها باطل. ثمَّ قال: إنَّ لكم علينا ألاّ نمنعكم فيئًا ما دامت أيديكم معنا، وألا نمنعكم مساجد الله، وألا نبدأكم بقتال حتى تبدأونا. ثمَّ بدأوا يُعرِّضون بتكفير علي بن أبي طالب -رضي الله عنه، فقابله رجلٌ منهم يومًا، وقال له: يا علي، لئن أشركت ليحبطَنَّ عملك، ولتكونَنَّ من الخاسرين. فقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه **قول الله تعالى:** { فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}(١).

ثمَّ اعتزل هؤلاء القوم الكوفة بالكلية، ولجئوا إلى مكان يُسمَّى النهروان، ومكثوا فيه، ولم يدخلوا الكوفة بعد ذلك، فلما رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن أمرهم بدأ يزيد، ويُشكِّل خطورة على المسلمين، بعث إليهم يقول لهم: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أُمَّة محمد ﷺ، وبيننا وبينكم ألاّ تسفكوا دمًا حرامًا، أو تقطعوا سبيلًا أو تظلموا ذميًّا - يهوديًّا أو نصرانيًّا- فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء،

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ }.(٢)

ومكث الخوارج في النهروان بعيدًا عن الكوفة، وفي هذا التوقيت كان جيش الشام مستقرًّا دون خلاف مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٣).

---

(١) سورة الروم (٢١ /٦٠).

(٢) سورة الأنفال (١٠ /٥٨)

(٣) ينظر: البداية والنهاية (٧ / ٣١٢) .

اجتماع المحكّمين في دومة الجندل:

جاء شهر رمضان سنة (٣٧هـ)، فأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى دومة الجندل ٤٠٠ فارس، معهم أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وأمَّر عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ على الصلاة. وأرسل معاوية رضي الله عنه٤٠٠ فارس إلى أرض دُومَة الجندل، معهم عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان معهم من رءوس الناس عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وكان معهم أيضًا عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، ولم يكن مع معاوية في القتال، ولكنه كان ممن اعتزل الفتنة، وإن كان يرى أن عليًّا -رضي الله عنه على الحقّ، وإنما كان حينئذٍ في الشام، فجاء مع الوفد الذي أرسله معاوية رضي الله عنه للتحكيم. ---وقد تمَّ اختيار دُومَة الجندل للتحكيم؛ لأنها تقع في مسافة متوسِّطة بين الكوفة، والشام فهي على بُعْد تسع مراحل من كلٍّ منهما.

وتجمَّع المسلمون على اتِّفاق خلاصته أنهم سيلتقون تارة أخرى في العام المقبل بدُومَة الجندل، وحتى هذا العام يظلُّ لكل من علي ومعاوية -رضي الله عنهما - ما تحت أيديهم من بلاد المسلمين، إلا أن الخوارج -عليهم من الله ما يستحقُّونه- لم يَرُقْهم هذا الأمر، ولم يرضَوْا بالتحكيم، بل اشتدَّ أمرهم وخطرهم أكثر، وبلغ بهم الأمر لدرجة تكفير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستباحة دمه، هو وكل مَن رضي بالتحكيم.

جمَّع الخوارج قواهم في مكان يُسمَّى النهروان، وقرَّروا الخروج إلى المدائن في شمال شرق الكوفة، لكنهم غيَّروا وجهتهم لقوَّة المدائن ومَنْعَتِها واتَّجهوا إلى مكان آخر قريب من الكوفة، وبدأوا يعيثون في الأرض فسادًا فيقطعون الطرق، ويقتلون المسلمين بحجة أن من رضي بالتحكيم فهو كافر مرتدٌّ يجب قتله، وقتلوا عبد الله بن خباب بن الأرتِّ، وقتلوا زوجته مع أنها كانت حاملًا (١).

موقعة النهروان:

فلما زاد فُحشهم وكثرت جرائمهم قرَّر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن يقاتلهم، فخرج لهم بجيش كبير، ولكنه قبل أن يدخل معهم في قتال أراد -رضي الله عنه-أن يجنِّب المسلمين شرَّ القتال بعد ما حدث في موقعتي الجمل وصفِّين،

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧ / ٣١٢).

التي قُتِلَ فيهما أعداد كبيرة من المسلمين، فأرسل إليهم مَن يدعوهم للعودة إلى طاعة أميرهم، يحكم بينهم فيَقْتُل مَنْ قَتَل أحدًا من المسلمين، ويعفو عن مَنْ لم يقتل، ولكنهم لم يرتدعوا، ولم يتراجعوا، بل أصرُّوا على موقفهم، وكان عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل، وبدأ القتال بين الفريقين، وثبتوا ثباتًا عجيبًا حتى قُتل منهم ستمائة، وجُرح أربعمائة، وبعد انتهاء المعركة سريعًا، سلَّم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- الأربعمائة إلى ذويهم ليداووهم، وردَّ أسلابهم، وأعطاهم فرصة أخرى للتوبة، وسُمِّيت هذه المعركة معركة النهروان (٣٨هـ).

أما في الشام فكان الوضع مختلفًا؛ فجيش معاوية -رضي الله عنه -يطيعه تمامًا، ولم يكن هناك أي حالة خروج عليه -رضي الله عنه، كأن هذا ابتلاء من الله تعالى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

استشهاد على ومبايعة الحسن بن علي:

لم يكفَّ الخوارج الخروج على علي وقتاله، بل تآمروا على قتله أيضًا!! فاجتمع ثلاثة منهم على مؤامرة قتل الثلاثة الذين قاموا بالتحكيم، وهم (علي، وعمرو، ومعاوية)، وكان هؤلاء الثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم الكندي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، وتواعد ثلاثتهم على يوم واحد هو يوم السابع عشر من شهر رمضان لتنفيذ مخطَّطهم، وانتظر عبد الرحمن بن ملجم فجر اليوم الموعود (١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ) حتى خرج علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- من بيته لصلاة الفجر، وأخذ يمرّ على الناس يوقظهم للصلاة، وكان لا يصطحب معه حُرَّاسًا، حتى اقترب من المسجد فضربه شبيب بن نجدة ضربة وقع منها على الأرض، لكنه لم يمُتْ منها، فأمسك به ابن ملجم، وضربه بالسيف المسموم على رأسه، فسالت الدماء على لحيته، ومات شهيدًا- رضي الله عنه، في حين فشل الآخرون في قتل معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الحسن خليفة للمسلمين:

لما استُشهد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- اجتمع أهل العراق، وبايعوا الحسن بن علي رضي الله عنهما؛ ليكون خليفةً للمسلمين، فكان- رضي الله عنه- ورعًا تقيًّا عالمًا مجاهدًا، حيث جاء قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه-وكان تحت إمرته على أَذْرَبِيجَان أربعون ألف مقاتل كلهم قد بايع عليًّا -رضي الله عنه-

على الموت قبل استشهاده- فجاء -رضي الله عنه- يقول للحسن رضي الله عنه: امددْ يدك نُبَايِعْك. فلم يردَّ عليه الحسن، ولم يرضَ بهذا الأمر، ولم يكن يريده؛ لأنه يعلم أن وراءه الدماء الكثيرة، ولكن مع إصرار قيس بن سعد بن عبادة قَبِل رضي الله عنه البيعة (١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ)، وهو يوم وفاة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

أمَّا أهل الشام فبعد استشهاد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- لم يجدوا بديلًا لخلافة المسلمين غير معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فبويع -رضي الله عنه-بالخلافة من قِبَل أهل الشام، وأصبح للمسلمين -ولأول مرَّة- خليفتان؛ أحدهما في الشام، والآخر في العراق، وهذا لا يستقيم شرعًا، ولا يصحُّ في الإسلام، بل ينبغي أن يكون للمسلمين خليفة واحد، يسمع له الجميع ويطيع.

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة:

التحرك نحو الشام:

كان الحسن بن علي -رضي الله عنه- لا يحبُّ القتال، فلما تولَّى- رضي الله عنه- الخلافة رغِب في الكفِّ عن القتال، وحقن الدماء، وعدم الدخول في معارك بين المسلمين، لكنَّ أهل العراق أصرُّوا على قتال أهل الشام وعلى رَدِّ الإمارة إلى العراق، وثاروا كعادتهم عليه -رضي الله عنه، واجتمعت الألوف المؤلَّفة على أمر قتال أهل الشام، والقتال وإن كان له تأويل شرعي، إلا أنَّ فيه مخالفة للإمام، وقد خَشِيَ الحسن -رضي الله عنه- من فتنة مخالفة كل هذه الجموع، فخرج -رضي الله عنه- على رأس جيش لقتال أهل الشام وهو كارهٌ لهذا الأمر، وعَلِمَ معاوية -رضي الله عنه-بخروجه فخرج له بجيشه.

وعند اقتراب الجيشيْن كان الصراع شديدًا في داخل نفس الحسن بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما، فهو غير راغب في القتال، ويريد أن يحقن دماء المسلمين، فأرسل رسائل إلى معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- يطلب منه أن يرجع عن رأيه، ويدخل في جماعة المسلمين ويبايعه على الخلافة، لكن معاوية- رضي الله عنه- كان يرى أنَّ هذه فرصته التي ربما لا تتكرَّر لأخذ الثأر من قتلة عثمان- رضي الله عنه- بعد أن يكون أميرًا على جميع المسلمين، وكان جيش العراق القادم مع الحسن بن علي -رضي الله عنهما- جيشًا ضخمًا كبيرًا، وخاصَّة بعد أن قُتل النصف من جيش معاوية -رضي الله عنه- في موقعة صفِّين، وكانوا راغبين في القتال، وقد بايعوا الحسن -رضي الله عنه- على الموت.

وعندما رأى معاوية -رضي الله عنه- ضخامة جيش الحسن -رضي الله عنه، قرَّر أن يرسل رسولَيْن للمحاورة والمشاورة، فأرسل إليه عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر، فذهبا إليه وجلسا معه.

فقال الحسن رضي الله عنه: إنَّ هذه الأمة قد عاثت في دمائها.

فقال له الرسولان: إنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويُسالمك.

فقال الحسن رضي الله عنه: فمن لي بهذا؟

فقالا له: نحن لك بهذا. فسُرَّ بذاك الحسن، وكان يرغب في هذا الأمر.

تنازل الحسن عن الخلافة:

قرَّر الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- أن يقوم بخطوة من أخطر الخطوات في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة، وهي خطوة جريئة لا يُقْدِم عليها إلاَّ رجل ذو نفس طاهرة طيِّبَة كالحسن -رضي الله عنه، فقرَّر رضي الله عنه- أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وهو راضٍ تمامًا، وهو في غاية القوَّة، فقد كان جيشه يَفُوقُ جيش الشام بكثير، وكان باستطاعته أن يُبِيد جيش الشام عن آخره، ولكنَّه أراد أن يحقن الدماء بتنازله -رضي الله عنه- عن الخلافة لمعاوية -رضي الله عنه.

فأرسل الحسن -رضي الله عنه - رسالة إلى معاوية- رضي الله عنه -بتنازله عن الخلافة على أن تُحقن دماء المسلمين، وعلى أن ترجع الجيوش دون قتال ودون حرب، وبهذا أصبح معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- أمير المؤمنين الشرعي بعد الحسن بن علي (رضي الله عنهما)، الذي ظلّ أميرًا شرعيًّا للمسلمين مدَّة ستَّة أشهر (١).

وصدق فيه حديث أبي بَكْرَةَ الذي قال فيه: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ علي إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(٢) وبهذا التنازل انتهى عهد الخلفاء الراشدين، وبدأ عهد جديد في تاريخ الدولة الإسلامية وهو عهد الدولة الأموية.

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٨/ ١٨).

(٢) حديث صحيح اخرجه البخاري (٢٥٥٧).

القرآن الكريم

معجزة الإسلام الكبرى ومصدر تشريعه

إنَّ أعظم معجزة جاء بها الأنبياء هي المعجزة الخالدة التي جاء بها سيد الأولين والآخرين وخاتم رسل الله أجمعين محمد -ﷺ- وهي القرآن الكريم، فالقرآن الكريم معجز في فصاحته وبلاغته، معجز في علومه ومعارفه، وفي قصصه وأخباره، وفي أحكامه وتشريعاته، ولذلك فإنه بهر كل من تأمل فيه من العلماء على اختلاف تخصصاتهم. لأنه كلام رب العالمين الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا }(١).

الميثاق: هو العهد يؤخذ بين اثنين، كالعهد الذي أخذه الله تعالى أولًا على الخلق جميعًا، وهم في مرحلة الذّر.

قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ }(٢).

فما العهد الذي أخذه الله تعالى على النبيين؟

---

(١) سورة الأحزاب (٢٢ /٧).

(٢) سورة الأعراف (٩ /١٧٢).

العهد هنا هو: الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أن يكون رسولًا وسفيرًا بين الله تعالى والخلق ليبلغ شرع الله. الله سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته، فإذا اختار الله رسولًا فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده ألله من العهد وجعله الله تعالى أهلًا للاصطفاء للرسالة متوكلان بأمر الله.

والميثاق الغليظ أي المؤكد، فقد وسعه وأكده فيما أخبر أنبياء ورسله أنهم سيضطهدون وسيحاربون من أممهم؛ لأنَّ من الصعب على الإنسان أن يكون له دين، ثمَّ يأتي رسول جديد ليزحزحه عن دينه؛ وهنا تكون المشقة التي يعانيها الرسل.

وقد قدم رسول الله محمد ﷺ لأنه المخاطب بهذا الكلام، ومن إكرامه الله لرسوله أن يبدأ به في مثل هذا المقام، خاتم الأنبياء والرسل.

وهذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الرسل المذكورين المبشرين المنذرين.

في **قوله تعالى:** { وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ}(١).

والشيء الذي شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء.

ومن تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذ جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ لتصدقنه ولتنصرنه، ثمَّ أقررهم على ذلك وأشهدهم عليه فشهدوا؛ لأنَّ هذه القاعدة فيها الوقاية لهم.

أخذ العهد أولًا على آدم عليه السلام ثمَّ باقي الرسل المرسلين.

---

(١) سورة ال عمران (٣/٨١).

من الله تعالى لتبليغ المنهج الديني على البشرية حتى يكون حماية لهم من أنفسهم لا يطغى بعضهم على بعض ويكون العدل قائمًا بينهم بشرع الله.

قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ }(١).

أعطينا موسى التوراة وأتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل لبنى إسرائيل؛ لأن مخالفتهم للمنهج كانت كثيرة، ولكن الآية الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هي اليهودية والنصرانية وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم فكأنه في كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية فيرسل الله تعالى رسولًا يعدل ميزان حركة حياتهم.

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون وداود وسليمان وشعيب وأرميا وحزقيل وإلياس واليشع ويونس وزكريا ويحيى فنرى موكبًا طويلًا جاء بعد موسى عليه السلام ليذكروا وينبهوا ليقطع الله سبحانه وتعالى عليهم الحجة يوم القيامة.

---

(١) سورة البقرة (١/ ٨٧).

قال الله تعالى: { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}(١).

إذا هناك رسل وأنبياء أرسلوا إلى بنى إسرائيل لم نعرفهم؛ لأنَّ الله لم يقصص علينا نبأهم.

وحتى نفرق بين النبي والرسول نقول كلاهما مرسل من الله ولكن النبي لا يأتي بتشريع جديد إنما هو مرسل على منهج الرسول الذي سبقه، وبعث الله للرسل والأنبياء للدعوة إلى وحدانيته تعالى يكون الحساب حقًّا وعدلًا.

قال الله تعالى: { لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ } (٢).

فجاء القرآن مؤكدًا على أن أساس التوحيد الخضوع التام والإيمان به تعالى وحده دون سائر الآلهة؛ أي أنهم لا يستطيعون ألا يؤمنون إذا أردناهم مؤمنين قهرًا ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارًا.

وإيمان العبد هو الذي ينتفع به... فالله لا ينتفع بإيمان البشر... وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله... قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله... ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة... نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله.

وقوله تعالى: (بكفرهم) يعطينا قضية مهمة هي: أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك... لذلك يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه).

---

(١) سورة النساء (٦/١٠٤).

(٢) سورة الشعراء (١٩ /٣، ٤).

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية.. هي شهادة الذات للذات.. وذلك في **قوله تعالى:**

{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} (١).

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقًا يشهدون أنه لا إله إلا الله... شهد لنفسه بالألوهية شهادة الذات للذات والملائكة شهدوا بالمشاهدة... وأولوا العلم بالدليل..

ويقول الحق تبارك وتعالى: (فقليلًا ما يؤمنون) ... أي القلة هي التي تعود إلى الإيمان... فيبقى الله الباب مفتوحا لهؤلاء عندما يتوبوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم.

قال الله تعالى: { وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ } (٢).

ولقد جاء القرآن الكريم مصدقًا لما نزل في التوراة، وعرفه بنو إسرائيل أنفسهم وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة فلما بعث محمد –ﷺ – الذي عرفوه حق المعرفة بأوصافه ونعته كفروا برسالته وكان أهل الكتاب من توراة وإنجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي الرسالة الخاتمة وأنه لا بدَّ أن يؤمن به قوم كل نبي، فهذا العهد يوجب على كافة الأمم بالإيمان برسالة محمد ﷺ ونصرته إن أدركوه.

---

(١) سورة ال عمران (٣/ ١٨).

(٢) سورة البقرة (١/٨٩).

قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ }(١).

قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه وطرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم، واستبدلوا به شيئًا حقيرًا من حطام الدنيا فبئس تلك الصفقة الخاسرة.

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ }(٢).

واذكر أيها الرسول لقومك – حين قال عيسى بن مريم لقومه: إني رسول الله إليكم، مصدقًا لما جاء قبلي من التوراة وشاهدًا بصدق رسول يأتي من بعدى اسمه أحمد وهو محمد ﷺ، وداعيًا إلى تصديق به، فلما جاءهم محمد ﷺ بالآيات الواضحات، قالوا هذا الذي جئتنا به سحر بين. – ولا أحد

(١) سورة ال عمران (٤/ ١٨٧).

(٢) سورة الصف (٢٨ / ٦: ٩).

أشد ظلمًا وعدوانًا ممن اختلق على الله كذب، فيجعل له شركاء في عبادته أو هو يدعى إلى الدخول في الإسلام وإخلاص العبادة لله وحده. الله هو الذي أرسل رسوله محمدًا بالقرآن ودين الإسلام ليعليه على سائر الأديان المخالفة له.

والله سبحانه وتعالى حين يرسل الرسل ويؤيدهم بالمعجزات تأتي المعجزات من جنس ما تفوق فيه قوم الرسول ليكون التحدي معجزًا فعلًا.

والمعجزات تأتي خرقًا لنواميس الكون، فالنار مثلًا ناموسها الكوني الإحراق فلا يستطيع أحد أن يجلس وسط النار ولا يحترق، معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

والماء مثلًا ناموسه الاستطراق مثلًا لا يستطيع أحد أن يأتي ويشق البحر، معجزة سيدنا موسى عليه السلام.

وقوانين الأسباب أن الذي يموت لا يعود إلى الدنيا إلا عند قيام الساعة أو لا يستطيع أحد أن يحيي الموتى إلا أن يبعثهم الله، وهذه القوانين هي أكبر من قدرات الأنسان، فلا يستطيع أي إنسان مهما بلغ من العلم أن يخضعها لما يريد، فإذا تحداها الإنسان أهلكته. فهي روحانيات ربانيه يعطيها لمن يشاء من عباده بإذن الله، والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الناس إلى صدق بلاغ الرسول عن الله.

وهو شيء لا يقدر عليه إلا خالق هذه النواميس في الكون وقد خرقها لرسوله ولم يخرقها لأحد غيره.

وإعطاء المعجزات ليس للإيمان بالرسل المرسلة فحسب، ولكن للإيمان بما أنزل على الرسل الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته لنصل عن طريقهم إلى منهج الله.

قال الله تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ }(١)

(١) سورة الأنبياء (١٧ /٢٥).

لا إله إلا الله أنا فاعبدون فهي زبدة دعوة الرسل وخلاصة رسالتهم؛ أي لا معبود حق إلا الله روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: العهد شهادة أن لا الله إلا الله، تبرأ إلى الله جل وعلى من الحول والقوة وهي رأس كل تقوى.

إنَّ منهج الأديان في العقائد واحد لجميع الناس توحيد وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء.

أما بقية الإحكام الفعلية التي تحكم أفعال الإنسان، فالله سبحانه وتعالى جعلها مراحل؛ أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقًا بينًا واضحًا خاصًّا بتلك الأمة، فلا بدَّ أن يضع الحق سبحانه المنهج الذي صون طاقاتنا وفكرنا الصحيح بـ افعل ولا تفعل لتنظيم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء.

قال الله تعالى: { فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا }(١).

جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قوم أشقياء تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات وسوف يلقون كل شر وخسارة ودمار.

ولكن مع تطاول الزمن ومراحل الإنسان وبطبيعة الإنسان النسيان واتباع أهوائهم يرسل الحق سبحانه وتعالى رسلًا جددًا ليوضح هذا المنهج الرباني مع تعديل أخطاء ما سبق من قبل وعقاب المخطئين والسير مع المطعين لمنهج الله، إنَّ هذه الرسالات السابقة كلها كانت قد نقلت مشافهة من الآباء للأبناء، ومن الأجداد للأحفاد وحين جاء وقت تدوينها تمَّ ذلك بعد عدة قرون من موت أو رفع الرسل الذين تلقوها، فضاعت أصول تلك الرسالات السماوية وتمَّ تدوين كل منها بلغات غير لغة الوحي بها، وبأيدي أناس مجهولين ليسوا بالأنبياء ولا المرسلين وليس لأي منهم أدنى قدر من العصمة اللازمة في التبليغ عن الله تعالى؛ ومن هنا كانت الرسالة الخاتمة ناسخة لكل ما نزل قبلها من رسالات، ومهيمنة عليها هيمنة كاملة.

---

(١) سورة مريم (١٦ / ٥٧).

قال الله تعالى: {۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ }(١).

شرع الله تعالى لكم أيها الناس من الدين الذي اوحيناه إليك أيها الرسول – وهو الإسلام ما وصى به نوحًا أن يعمله ويبلغه وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى (هؤلاء الخمسة هما أولوا العزم من الرسل على المستور) أن أقيموا الدين بالتوحيد وطاعة الله وعبادته دون سواه، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتكم به أعظم على المشركين ما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العباد لله، يصطفى التوحيد من يشاء من خلقه ويوفق للعمل بطاعته من يرجع إليه.

وهكذا فإنَّ المتتبع لحياة الرسل ومنهجهم يجد أن أساس دعواتهم منذ خلق الخليقة وانتهاء بسيدنا محمد ﷺ دعوة إلى التوحيد وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة دون سواه، والقرآن الكريم لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا نص عليها؛ سواء من أحوال السابقين أو من خلال التشريعات والأحكام.

فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ورزقنا القرآن.

ولم تكن قصص الأنبياء وحدهم التي اشتمل عليها القرآن الكريم، بل هناك من الأقوام والأشخاص ما نص عليهم لعظم جرهم فيكون في ذكرهم عبرة وعظة لغيرهم ومن هؤلاء :

---

(١) سورة الشورى (٢٤ / ١٢).

قصة أصحاب السبت

وردت قصة أصحاب السبت في ثلاث سور كريمة من القرآن الكريم

(البقرة– النساء – الأعراف).

لقد قصَّ القرآنُ الكريم حكايةَ أصحابِ السبتِ؛ وهم يهودٌ من بني إسرائيلَ كانوا يقطنونَ قريةً تطلُّ على شاطئِ بحرِ قلزومِ، الواقعِ بينَ مدينَ والطورِ، وكان أهلُ هذه القرية يعملونَ بصيدِ الأسماكِ والحيتانِ، وكانوا قد طلبوا يوماً مقدساً يتفرغونَ فيه للعبادةِ، ويكونَ يومَ راحةٍ لهم من العملِ. وبالفعلِ جعلَ الله –عزَّ وجلَّ– يومَ راحتهم من العملِ هو يومُ السبتِ، وحرَّم عليهم العمل وصيدَ الأسماكِ والحيتانِ في هذا اليومِ، ثمَّ ابتلاهم بكثرةِ خروجِ الأسماكِ والحيتانِ إلى الشاطئِ وسهولةِ صيدها في هذا اليومِ، فما كان من كل فرقةٍ منهم إلَّا أن ابتكروا طريقةً ملتويةً يستطيعونَ الحصول على الحيتانِ فيها، من غيرِ أن يقوموا باصطيادها يومَ السبتِ (١) .

قال تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ } (٢).

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً } (٣).

---

(١) ينظر البداية والنهاية (٢ /١٢١ :١٢٣).

(٢) سورة البقرة (١/ ٦٥ ، ٦٦).

(٣) سورة النساء (٥/ ٤٧) .

وقد جاءت القصة تفصيلا في سورة الأعراف ، **قال تعالى** :{وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾}(١)

أصحاب هذه القرية هم جماعة من اليهود كانوا يسكنون في منطقة ساحلية لم يتطرق القرآن الكريم ذكر اسمها – بل نص عليها المؤرخون والمفسرون – وهي بكل كعادة القصص القرآني ذكرها للعظة والعبرة . فبنو إسرائيل كانوا إذا أرادوا أن يسألوا الله أمرا كانوا يسألون نبيهم موسى –عليه السلام – أن يسال –عز وجل، فسألوه أن يجعل لهم يوما يتفرغون فيه للعبادة فيكون يوم عبادة وراحة فكان يوم السبت. وجرت سنة الله عز وجل في خلقه وحان موعد الاختبار والابتلاء في هذه الجماعة، اختبار مدى صبرهم واتباعهم وامتثالهم لشرع الله، تتربى فيه نفوسهم على ترك الدنيا وما فيها من طمع وجشع، ومدى صمودهم أمام الشهوات والمغريات، والله أعلم بهم من أنفسهم فابتلاهم الله عز وجل بيوم السبت بأن جعل الحينان تأتى سواحل هذه القرية في هذا اليوم فقط من أيام الأسبوع، وراودتهم أنفسهم بأن يصطادوا السمك، ولكنهم تذكروا أن الله عز وجل قد حرم عليهم الصيد في هذا اليوم، فلجأوا إلى حيلة بأن ينصب شباكهم يوم الجمعة ليلا ويقوها في الماء طيلة يوم السبت

(١) سورة الأعراف (٩/ ١٦٣ :١٦٦).

ثم يستخرجونها صبيحة يوم الأحد بما حوت الشباك من حيتان، وهكذا وعلى حسب اعتقادهم أنهم يكونوا قد امتثلوا لأمر الله بأن جعلوا يوم السبت يوم

راحة وعبادة لهم ظانين بأن الله ظن السوء وقد عاب عن بالهم بأن الله قد أحاط بكل شيء علما – سبحانه وتعالى –لا يخفى عليه شيء في الأرض ولافي السماء .

وحجَّتهم في ذلك أنَّ الله –عزَّ وجلَّ– إنَّما نهاهم عن الصيدِ والعملِ يومَ السبتِ، وبالطبعِ ليس هناكَ بيئةٌ تخلوا من الصلاحِ، فقامت فرقةٌ أخرى بعدما رأت تحايلهم، بنصحهم وأمرهم بالمعروفِ ونهيهم عن المنكرِ. وبيان عاقبةَ صنعهم الوخيم؛ إلَّا أنَّ الفرقةَ الأولى لم تتعظ، وتمسكوا برأيهم وحجَّتهم، ولا سيما أنَّ هناك فرقةً ثالثةً لم تنه عن المنكرِ، بل قامت بلومِ الفرقةِ التي نهت عن ذاكَ المنكرِ، وبعد أن تمسَّكت الفرقةِ العاصيةِ بحيلتهم، واستمروا على فعلِ ما نُهوا عنه من الصيدِ يومَ السبتِ، ما كانَ من الله –عزَّ وجلَّ– إلَّا أن أراهم عاقبةَ صنيعهم هذا، فعاقبهم بالمسخِ؛ حيثُ إنَّه قلبهم ومسخهم إلى قردةٍ خاسئينَ.

يقول ابن كثير :" يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك، [وأنكرت] واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا} ؟ أي: لم تنهوا هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: {معذرة إلى ربكم} أي: نفعل ذلك {معذرة إلى ربكم} أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {ولعلهم يتقون} يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به} أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، {أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا} أي: ارتكبوا المعصية {بعذاب بئيس} فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا:

{لم تعظون قوما الله مهلكهم} والذين قالوا: {معذرة إلى ربكم} وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة "(١).

الدروس والعبر المستفادة من قصة أصحاب السبت:

لقد بيَّن الله -عزَّ وجلَّ- في قوله -تعالى-: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)، أنَّ الغاية من إنزالِ القرآنِ الكريمِ هو تدبر آياته، ومعلومٌ أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لم يذكر قصص الأمم السالفةِ من بابِ اللهوِ، إنَّما ذكرها ليتعظَ المسلمونَ منها، ومن هذا المنطلق فإنَّه سيتمُّ في هذه الفقرة استنباط عددٍ من الدروسِ والعبرِ من قصة أصحاب السبتِ، وفيما يأتي ذلك:

- الحذر من المسالك التي يسلكها اليهودُ، مهما كانت حجتهم في ذلك قوية؛ إذ إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد بيَّن خبث نواياهم وتحايلهم على الشرعِ الحنيفِ في هذه القصةِ.

الحذر من الوقوعِ في المعاصي والذنوبِ، والحذر من التحايل على الشرعِ الحنيفِ. ضرورة الاستسلامِ لأمرِ الله -عزَّ وجلَّ- وشرعه.

- ضرورة إدراكِ أنَّ الاستسلام لله ولكلِّ ما أمرَ وما نهى عنه سببٌ من أسبابِ الحصولِ على سعادة الدارين. إنَّ الإعراضَ عن أمرِ الله -عزَّ وجلَّ- سببٌ من أسباب هلاكِ الأممِ وخسرانهم الخسرانَ المبينِ.

- إنَّ الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ سبب من أسباب نجاةِ المسلمِ من الهلاكِ. إنَّ من باع دينه بالدنيا فقد خاب وخسر.

- إنَّ التحايل على الشرعِ الحنيف كبيرةً تُوجب مقتَ الله، وتسبب هلاكَ صاحبها.

- إنَّ جدالَ أهل الباطلِ وإسكاتهم عن طريق إحراجهم جائزٌ في الشرعِ الحنيفِ، والدليل سبب نزول الآيات.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤).

قصة أصحاب الأخدود

أصحاب الأخدود هم رعيَّةُ آخر ملوك حِميَر؛ وهو زِرعَةُ بن تبان أسعد الحِميَريّ المعروف بذي نواس، وقد كان هذا الملك يهوديًّا اعتنقَ عددٌ من رعيّته النصرانيّة، فسار إليهم بجيشٍ من حِميَر؛ حتى يُجبرهم على الرجوع عن دينهم الذي اعتنقوه، وخيّرهم بين القتل، أو الرجوع إلى دينه، فاختاروا القَتل والصَبر على هذا المحنة، فشُقَّت لهم الأَخاديد*، وتمّ رميهم فيها، ثمّ أُضرِمت بهم النيران إلى أن احترقوا وماتوا. وكام الملك وحاشيته ينظرون إليهم، أمّا في ما يتعلّق بعددهم، فقد قِيل إنّهم كانوا سبعينَ ألفاً، وقِيل عشرين ألفاً، وقِيل اثني عشر ألفاً، وذُكِر أنَّ أَصحاب الأُخدود لا يُقصَد بهم من وُضِعُوا في النار وأُحرِقوا فيها، وإنَّما من شقَّ الأَخاديد وحفرها؛ ولذلك يقول الله –تعالى– في كتابه العزيز: {قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ }(١)

أي لُعِن أصحاب الأخدود بسبب فِعلهم الشنيع، وهو حفر الأخاديد، وإشعال النيران بالمؤمنين. شاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين ،وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس(٢) .

---

(١) سورة البروج (٣٠ / ٤: ٩)

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦٦)

ثم قال: {الذي له ملك السماوات والأرض} من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، {والله على كل شيء شهيد} أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة، من هم. فعن علي، رضي الله عنه، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم.

وعنه أنهم كانوا قوما باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها.

وقال العوفي، عن ابن عباس: {قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود} قال: ناس من بني إسرائيل، خدوا أخدودا في الأرض، ثم أوقدوا فيه نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه.

حدّث النبيّ –عليه الصلاة والسلام– أصحابه عن قصّة ملكٍ من ملوك الزمن الغابر، وهو ملك كانَ لهُ ساحرٌ مُقرَّب، فلمّا تقدَّم العمر بهذا الساحر، طلب من الملك أن يبعَثَ إليه غُلاماً؛ حتى يُعلِّمه السحر، فأرسل إليه الملك غلاماً ليُعلِّمه، وكان هذا الغلام يذهب باستمرار إلى الساحر، وفي أحد الأيام صادف في طريقه إلى الساحر راهباً، فاستمع إلى كلامه، وأُعجِبَ به، إلّا أنّ الساحر كان يضربه؛ بسبب تَأَخُّره عنه. فشكى الغلام ذلك الأمر إلى الراهب الذي أرشده إلى أن يقول للساحر عندما يسأله: "إنّما حبسَني أهلي"، وإذا سأله أهله يقول: "إنّما حبسَني الساحر"، ويوماً ما رأى الغلام في طريقه دابَّة عظيمةً تقطع على الناس طريقهم، فقال في نفسه: "اليوم أعرف الساحر أفضل عند الله أم الراهب"، فقال: "اللهمّ إن كان شأن الراهب عندك أفضل من الساحر فاقتل هذه الدابّة بحجري". ثمّ أمسَك حجراً، ورمى به الدابّة، فقُتِلَت، فأدرك أنّ أمر الراهب أفضل عند الله من أمر الساحر، ثمّ ذهب إلى الراهب وحدَّثَهُ بما حصل له، فأخبره الراهب بأنّ شأنه سيكون عظيماً، وأنّه سوف يُبتَلى في حياته، وطلب منه أن لا يَدُلَّ عليه إذا تَعرّضَ للابتلاء.

بلغ أمر الغلام مَبلغاً عظيماً، حتى أنّه كان يشفي الناس من أسقامها، ويُبرىء الأكمه، والأبرص بإذن الله، ويُشار إلى أنّه اتَّبع هذا الأمر أسلوباً في الدعوة إلى دين الله –تعالى–؛ حيث كان يمرّ على أهل البلاء والأسقام، فيشترط عليهم الدخول في دينه، والإيمان بالله –تعالى–؛ حتى يدعوَ الله أن يشفيَهم من أسقامهم، فلم يبقَ في قريته أحد يعاني مرضاً إلّا أسلَم، واتّبع دينه، فسمعَ أحد جلساء الملك به وكان يشتكي مرضاً. فأتى إلى الغلام بهدايا كثيرة؛ كي يَشفيَه من مَرضه، فقال له الغلام: "إنّني لا أشفي وإنّما يشفي الله"، وطلب منه أن يؤمن بالله؛ حتى يدعوَ الله له بالشفاء، فآمنَ جليس الملك بالله، ثمّ دعا له الغلام فشُفِي من مَرضه، إلّا أنّ الملك لاحظَ شفاء جليسه من مَرضه، فسأله عن سبب شفائه، فقال له: "إنّما شفاني الله"، فغضب الملك من ردّه؛ لأنه كان يَدَّعي الربوبيَّة من دون الله، فقال له جليسه: "إنّ الله هو ربّي وربّك"، فأمَر به الملك فعُذِّب إلى أن دلّ على الغلام . وبعدما دلّ جليس الملك على الغلام أُتِي بالغلامِ حتّى وقف عند الملك، فأمر به فُعذِّب حتى دلّ على الراهب، فأُتِي بالراهب فأمر به فعُذّب حتى يرجع عن دينه إلّا أنّه أبى، فشُقَّ بالمنشار شِقّين حتى مات، ثمّ أُتِي بجليس الملك فعُذِّب حتى يرجع عن دينه فأبى، فأُتِي بالمنشار فشُقَّ به نصفَين حتى مات، ثمّ أُتِي بالغلام حتى يرجع عن دينه فأبى. فأمر الملك أتباعه أن يأخذوه إلى ذروة الجبل، ويُخيّروه بين أن يرجع عن دينه، أو أن يُرمى من الجبل، فدعا الغلام ربّه بقوله: "اللهمّ اكفنيهم بما شئت"، فكفاه الله شرّهم، إذ رجف بهم الجبل؛ فتردّوا إلى أسفله، ثمّ رجع إلى الملك فأدرك نجاته، فأمر أصحابه أن يحملوه في سفينة حتى إذا كانوا في عُرض البحر ألقَوه منها، فدعا الغلام ربّه وهو على السفينة أن يكفيَه شرَّهم. فاستجاب الله دعاءَه؛ إذ انكفأت السفينة بهم فغرقوا وماتوا جميعاً، وخَرَجَ الغُلام سالماً من بينهم، ثمّ أتى الغلام إلى الملك، وبيَّن لهُ استحالة قَتله إلّا بطريقةٍ واحدة، وهي أن يصلبه على جذعٍ، ثمّ يجمع الناس في صعيد واحد، ويأخذ سهماً من كنانة الغلام، فيقول: "باسم الله ربّ الغلام"، ثمّ يرمي السهمَ، ففعل الملك ما طلبه الغلام، ورمى الغلام بالسهم، فوقع في صِدغه*، ووضع يده على صِدغه فمات، فصاح الناس: "آمنَّا بربّ الغُلام".

وشاهد الذين جمعَهم الملك ما حصل للغلام فآمنوا جميعاً بالله –تعالى–، فاغتاظ الملك لذلك بعد وقوع ما كان يحذَر منه، فأمر بالأخاديد أن تُشَقّ في سِكَك المدينة، وأُلقِي فيها كلّ من آمنَ بربّ الغُلام، وأُضرِمت فيهم النيران؛ بسبب رفضهم الرجوع عن دينهم.

وقد تضمّنت قصّة أصحاب الأخدود موقف المرأةِ المرضِع التي كانت في زمرة المؤمنين الذين تعرّضوا للامتحان حينما شقّ لهم الملك الكافر الأخاديد، وساومهم على اقتحام النيران، أو الرجوع عن دينهم. وقد تحدّثت الروايات عن موقف تلك المرأة الصابرة حينما أرادت الرجوع عن موقفها بعد أن أشفقت على نَفسِها ورَضيعها، فإذا بالرضيع يُخاطبها بكلمات بثَّت في نفسها القوّة والصبر على ذلك البلاء، ومن تلك الكلمات قوله: "اصبري يا أمّاه فإنّك على الحقّ"، وفي رواية أخرى أنّه حَثّها على المضِيّ في أمرها، واقتحام النار، وعدم الجزع.(١)

الدروس المُستفادة من قصة أصحاب الأخدود

- أهمّية تنشئة الأبناء، وتربيتهم التربية الصالحة؛ فقد تضمّنت قصّة أصحاب الأخدود ذِكر شخصيّة الغلام الذي آمن بالله –تعالى–، ونَبَذَ الشِّركَ، وضَحَّى بنفسه كي يُؤمن الناس جميعاً بالله، وهذا يَدُلّ على أهمّية التربية؛ لأنّها تُخرِجُ للمُجتمع جيلاً قادراً على تجديد الدين، وتحقيق النصر للأُمّة على أعدائها.
- التأكيد على مسألة تعلُّق القلوب بالله –تعالى– وحده، فلا ينبغي أن يتعلّق قلب الإنسان بأفعال أحد من البشر؛ لأنّ قلوب العباد عُرضَةٌ للتغيير والتَقَلُّب، وإنّما ينبغي أن ترتبط القلوب بخالقها وحده، وقد دلّ على ذلك مَوقف الغلام الذي أعطاه الله –تعالى– القدرة على شفاء المرضى، وإبراء الأكمه، والأبرص؛ إذ كان يُرجِعُ ذلك الفضل إلى الله –تعالى– ، ولا يَدعو لأَحدٍ مِنَ المرضى إلّا بعدَ أن يؤمن بالله؛ حتى تُدرك النفوس أنَّ الشِفاءَ بِيَد الله وحده.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٨ / ٣٦٦ :٣٦٨) والقصة صحيحة وردت عند مسلم وأحمد والنسائي .

- وجود البطانة الفاسدة حول الطغاة أمرٌ واقع في كلّ زمان ومكان؛ فقد تضمّنت القصّة ذِكر شخصيّة الساحر الذي كان يُزيّن للملك أعماله، ويُعينه على باطله؛ بهدف تحقيق مصالحه، ومآربه.
- ضرورة التوكُّل على الله، والاعتماد عليه في الأمر كلّه؛ فقد كانت ثقة الغُلام بالله -تعالى- عَظيمة، ودلّ على ذلك موقفه حينما أخذه أتباع الملك إلى أعلى الجبل؛ كي يَقذِفوه منه، فدعا ربّه أن يكفيَه شرَّهم بما شاء، وكيفما شاء، فاستجاب الله له دعوته بقدرته، وتدبيره.
- الإصرار على تحقيق الهدف من الدعوة إلى الله؛ فقد صَبَرَ الغُلام على محنة الابتلاء، والقتل، وفي كلِّ مرّة فشل فيها أتباع الملك في قتله، كان يرجع إلى الملك ليُبيّن له عجزه عن قتله؛ حتى يُحقِّق هدف الدعوة المتمثّل بظهور الحقّ على الباطل، وإيمان الناس بالله -تعالى-.
- بيان حقيقة النصر على الأعداء؛ فقد أكّدت قصّة الغلام على أنّ النصر لا يعني بالضرورة إزهاق نفوس الكافرين، وسلامة نفوس المؤمنين وأموالهم، وإنّما يتعلّق النصر من خلال تحقيق الأهداف؛ فقد تحقَّق بسبب موت الغلام إيمانُ القوم، وهذا نَصرٌ بلا شكّ؛ لأنّ فيه تحقيق هدف الدعوة إلى الله، كما أنّ حرق المؤمنين في الأخدود، وإزهاق أرواحهم هو نصرٌ كذلك؛ لأنّه دلالة على الثبات على الحقّ والمبدأ، وعدم الموافقة على الباطل.
- الابتلاء سُنّة إلهيّة لا تتغيّر ولا تتبدّل؛ فالله -سبحانه وتعالى- يبتلي الناس؛ حتى يعلم الصادق من الكاذب، ويَميز الخبيث من الطيّب؛ فالطريق إلى الجنّة محفوفة بالابتلاء، قال -تعالى-: (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).
- التجرُّد الكامل من حظوظ النفس الإنسانيّة، والإخلاص لله -تعالى-؛ فقد أخبر الراهب الغلام بأنّه أفضل منه حينما أعطاه الله القدرة على إبراء المرضى، وبيَّن له أنّه سيُبتلى في طريق دعوته، ورجاه أن لا يدلّ الناس عليه إذا تعرّض للابتلاء، كما تمثَّل التجرُّد لله في شخصيّة الغلام حينما دلّ الملكَ على الطريقة التي يمكنه قتله من خلالها على الرغم من عِلمه بأنّ ذلك سيُؤدّي إلى إزهاق روحه. تصبُّر المؤمنين حينما يتعرّضون للأذى والتعذيب

من قِبل الظالمين؛ فقد قصّ النبيّ -عليه الصلاة والسلام- على صحابته قصّة الغلام الذي تعرّض لمحنة شديدة على الرغم من صِغر سِنّه، فلم يُثنِه ذلك عن دعوته، بل ظلّ صامداً على الحقّ حتى عُذِّب، وأُزهِقت روحه، كما هو الحال مع الراهب. وقد أراد النبيّ من تلك القصّة أن يؤنِسَ صحابَته، ويُقوّيَ إيمانهم تجاه ما يتعرّضون له من المِحَن والشدائد، وقد ظهرت آثار تلك التربية في مواقف الصحابة -رضوان الله عليهم- حينما صمدوا في وجه التعذيب، والتقتيل.

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ

ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ٢٠ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاۡيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ } (١) .

قال -سبحانه- في وصف أصحاب الكهف: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)، فالكهف: هو الغار، والرقيم: هو الجبل الذي فيه الكهف، أو هو الواد، وهم فتيةٌ آمنوا بالله -تعالى- كما وصفهم القرآن: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)، ومعهم كلبهم: (وَكَلْبُهُم

(١) سورة الكهف (١٥ / ٨ :٢٥).

بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)، وقيل إنهم كانوا على الديانة النصرانية، جاؤوا بعد زمن المسيح -عليه السلام-، وإن قومهم كانوا على عبادة الأصنام.

فخرجوا عن قومهم وفروا منهم،[وقيل إنهم لما وقع في قلوبهم التوحيد، رفضت نفوسهم ما يرونه من قومهم فلجأوا إلى الكهف، ثم ضرب الله -تعالى- على آذانهم النوم فيه، وقيل أيضاً إن ملكهم كان جباراً متسلطاً، يقال له:" دِقْيَانُوسُ"، كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام.

ولما علم الفتية عدم قدرتهم على إظهار أمر دينهم لقومهم، واتفقوا فيما بينهم على هذا الأمر، لجأوا إلى الكهف خوفاً على دينهم، وهرباً من فتنة قومهم، فضرب الله -تعالى- عليهم النوم، وتكفل برعايتهم وحفظهم، كما ألقى الله الرعب حول الكهف حتى لا يقربه أحد من قومهم.[٩] دعاؤهم وابتهالهم بعدها لجأ أصحاب الكهف إلى المولى خائفين يرجون منه أن يهب لهم رحمةً ولطفاً، ويسترهم عن قومهم، وأن يجعل عاقبة أمرهم خيراً، ويجعلهم مهتدين راشدين، قال -تعالى-: (فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)، وهذا حال المؤمن الذي يجعل من الله -سبحانه وتعالى- ركنه الحصين، وسنده المتين، فيتصل به في الشدة والرخاء.

فالناظر يرى أنهم استعانوا بالله -عز وجل- وفروا إليه. تخلوا عن كل الشهوات في سبيل الحفاظ على عقيدتهم. توحيد الله -تعالى- دون إشراك أو شكوك. فلما صدقوا بالأخذ بالأسباب والفرار بدينهم إلى الله -سبحانه وتعالى-، نزلت عليهم سكينة القلب، وأغناهم الله -سبحانه وتعالى- عمن سواه، وحماهم مما يخافون.

نوم أصحاب الكهف السنين العديدة يقول الله –سبحانه وتعالى–: (فَضَرَبْنَا عَلى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)، أي أن الله ألقى عليهم نوماً ثقيلاً داخل كهفهم، فلم يسمعوا بعدها صوتاً، وناموا سنين متتابعة. لقد بقي أصحاب الكهف نائمين إلى أن بعثهم الله ليتساءلوا عن حالهم، وذلك بعد ثلاثمئة وتسع سنين، وهذا ما أخبرنا الله –تعالى– به، إذ قال: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)

وأما قوله –سبحانه وتعالى–: (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا)، فهو رد على المتسائلين زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيكون المعنى بذلك: أن الله –تعالى– أعلم بما لبثوا بعد أن قبض أرواحهم من بعد الاستيقاظ من نومهم وتساؤلهم. ومن عجائب قدرة الله –سبحانه وتعالى–، ما سخّر لهم من أمور كانت سبباً في حفظهم، ومن هذه العجائب ما يأتي: (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ)؛ أي أن الشمس إذا طلعت كانت تميل باتجاه اليمين في كهفهم، وإذا غربت تتركهم وتعدل عنهم. (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)؛ أي أن الناظر إليهم يظنهم مستيقظين لكثرة تقلبهم، أو لأن أعينهم كانت مفتوحة أثناء نومهم، وأما التقليب فكان لئلا تأكل الأرض أجسادهم. استيقاظ أصحاب الكهف من نومهم لما استيقظ الفتية ظنوا أنهم ناموا فقط من الصباح حتى المساء، فلما رأوا أظافرهم قد طالت وأن شعورهم قد تغيرت تعجبوا من حالهم، واستبعدوا أمر نومهم لفترة قصيرة، ثم شعروا بالجوع فأرسوا واحداً منهم ليشتري لهم من السوق، وقد كانوا يملكون بعض الدراهم، فلما أراد صاحبهم الخروج

حذروه من الملك المتجبر، ظناً منهم أن الدنيا على حالها وأن ملكهم ما زال حياً، فلما خرج تعجب من المدينة وعلم أن الأمر قد تغير، وكان كل من يراه يتعجب منه حتى تهافت الناس واجتمعوا على أمره.

ويرى أهل العلم أن الزمن الذي بعثوا فيه أصحاب الكهف كان أهله أصحاب دين، لذا عظموا أمرهم بعد أن عرفوا قصتهم، وقرروا بناء مسجدٍ فوق كهفهم، وإن كان هذا الأمر مخالفاً لتعاليم ديننا، ***قال -تعالى-:*** (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)(١).

الدروس المستفادة من قصة أصحاب الكهف :

- الصبر والثبات على الدعوة. توحيد الله -سبحانه وتعالى-.
- الالتزام بالحق ولو كنت وحيداً.
- الرفقة الصالحة من أسباب التواصي بالخير والثبات على الحق.
- الاعتزال عند خشية الفتنة. التوكل على الله -تعالى- والأخذ بالأسباب. محبة الله -تعالى- توجب الهداية والرعاية. تفويض الأمور لله -سبحانه وتعالى-. التحري في طلب الرزق الطيب.
- الاستعانة بالكتمان حتى تنقضي الحوائج. اللجوء إلى التخفي خوف الفتنة.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٨ :١٥٠).

- إن الثبات على الدين من أعظم الأمور وأكثرها جهاداً، وتزداد العوائق حين يكون الإنسان غريباً بقيمه ومبادئه وسط قوم لا يعترفون بها ويحاربونها، فتكون المشقة ويكون الأجر على قدرها، ولنا في قصص القرآن العظة والعبرة، ومن ذلك قصة أصحاب الكهف؛ والذين فروا بدينهم إلى الله تعالى ولجأوا إلى الكهف، فحماهم الله تعالى به، ونجاهم مما كانوا يخافون منه.

قصة أصحاب الجنة

تتلخص قصة أصحاب الجنة بأنّ رجلا من ثقيف كان مؤمناً وكان لديه بستان فيه نخيل وزروع بالقرب من صنعاء، وكان يقسم من ناتج ثمارها عند الحصاد نصيبا كبيراً للفقراء، وعندما مات الرجل ورث البستان أبناؤه، وقرروا ألا يعطوا المساكين ما كان يعطيه لهم أبوهم، وتحججوا بأن عيالهم كثيرون والمال الناتج قليل، فكانت نتيجة فعلهم أن أحرق الله -عز وجل- بستانهم .

قال -تعالى-: {إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ } (١).

لقد كانت إرادة الله -تعالى- تدمير جنتهم، ولكن إرادة الله -سبحانه وتعالى- سبقتهم إذ أرسل عليها ناراً فاحترقت، وهم غافلون في نومهم، فأصبحت سوداء كالليل.

قال -تعالى-:{فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ }(٢).

---

(١) سورة القلم (٢٩ /١٧، ١٨).

(٢) سورة القلم (٢٩ /١٩، ٢٠).

ثم تصورهم الآيات وهم يتحادثون في وقت الصباح ليذهبوا لقطع ثمارهم إن كانوا ما زالوا على عزمهم الذي اتفقوا عليه، **قال -تعالى-:** {فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ}(١).

تصورهم الآيات وهم يندفعون مسرعين لتنفيذ خطتهم، ويوصي بعضهم بعضا بما اتفقوا عليه من حرمان الفقراء نصيبهم من الثمار، فقد ذهبوا بعزم وقدرة على القيام بما يريدونه على حد زعمهم، **قال -تعالى-:** {فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾}(٢).

فزع أصحاب الجنة عند رؤية جنتهم فلما وصلوا إلى جنتهم صدمتهم المفاجأة، فظنوا أنهم قد أخطأوا الطريق ووصلوا إلى مكان آخر، وبعد التفكر والتثبت من الأمر وصلوا إلى الحقيقة المرة، بأنهم حُرموا ثمار الجنة بسبب عزمهم السيء، **قال -تعالى-:** {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}(٣).

ثم حكى القرآن توبة أصحاب الجنة بعد فهم ما حل بهم عاد إليهم عقلهم، وذكّرهم أخ لهم أنه كان يجب عليهم قول إن شاء الله، وأدركوا أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم وللفقراء، وأن الله -سبحانه وتعالى- لم يظلمهم بحرقه لجنتهم، ثم أخذوا يرجون منه -سبحانه وتعالى- أن يعفوا عنهم ويغفر لهم.

---

(١) سورة القلم (٢٩ /٢١، ٢٢).

(٢) سورة القلم (٢٩ /٢٣: ٢٥).

(٣) سورة القلم (٢٩ /٢٦، ٢٧).

قال -تعالى-: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ }([1]).

الدروس المستفادة من قصة أصحاب الجنة :

- إن ما حل بأصحاب الجنة من عذاب في الدنيا هو من قدرته -سبحانه وتعالى- على إيقاعه بمن يخالف أمره، ولكن عذابه في الآخرة أشد، قال -تعالى-: (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

([1]) سورة القلم (٢٩ /٢٨ :٣٢).

قصة أصحاب القرية

قال -تعالى-: {وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ}(١).

فيما ورد عن أهل القرية، بأنّهم أهل قرية أنطاكية، وقد تم إرسال لهم ثلاثة رسول، وقيل بأنّهم؛ صادق، ومصدوق، وشمعون، وفي قول آخر بأنّهم رسل عيسى -عليه السلام- فأرسل الله -تعالى- لهم رسوليْن، فلم يؤمنوا، فقوّى الله موقف الرسوليْن، بإرسال رسول ثالث، يدعّم الموقف ويقوّيه (٢).

قال -تعالى-: {قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩}(٣).

فما كان من أهل القرية إلّا أن أجابوا على الدعوة بأن لا فضل لأحد على الآخر، إذ إنّ الذين يدّعون الرسالة والنبوّة ما هم إلّا بشر مثلهم، فما هم إلّا كاذبون في أمر الرسالة، فأجاب الرسل؛

---

(١) سورة يس (٢٢/ ١٣، ١٤).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٦ /٥٦٨، ٥٦٩).

(٣) سورة يس (٢٢/ ١٥: ١٩).

بأنّ الله تعالى عالم بظاهر الأمر وخفاياه، وما عليهم إلا الدعوة وهم غير مسؤولين عن نتيجة تذكيرهم ودعوتهم ، ثم إن المطر قد حجب عن القرية لمدّة ثلاث سنوات، فأعزى أهل القرية حرمانهم من المطر إلى الرسل الثلاثة؛ فتشائموا بهم، حتى أنهم قاموا بتهديد الرسل بالقتل إذا لم يتوقفوا في دعوتهم، فأجابت الرسل بأن رزقهم وحظهم أمر لازم لهم لا علاقة للرسل به،

فما كان من الرجل الصالح إلا أن يعاود دعوتهم ، **قال تعالى:** {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ }(١) .

قال الإمام الطبري: بأن هذا الرجل يدعى حبيب، كان مؤمنًا كثير الصدقة، يقسم قوت يومه بين قوت عائلته والتصدّق على من يحتاج، على الرغم من فقره وسقمه، وعندما سمع بنيّة أهل القرية بقتل الرسل، انطلق لهم ناصحًا، ألّا يمسّوا الرسول بسوء، وأن يؤمنوا بما دعاهم إليه الرسل، فإنهم لا يطلبون أجراً على دعوتهم ونصيحتهم، فهم لكم ناصحون، وهم على طريق الحق.

ثم بين سبحانه عاقبة الرجل الصالح وعاقبة أهل القرية سأل أهل القرية الرجل الصالح إن كان قد اتّبع الرسل أصبح على دينهم، فما كان منه إلّا الإجابة بأسلوب الحجة فقال: ولمَ لا أعبد الله تعالى وهو الخالق، وإليه المرجع والمصير يوم القيامة، وبأن الأصنام لا تملك له نفعًا ولا ضرًا ولا حتى شفاعة،

(١) سورة يس (٢٢/ ٢٠ : ٢٧)

وهكذا قد جهر بإيمانه، فما كان من أهل القرية إلّا أن قتلوه؛ وفي طريقة قتلهم له؛ قيل رجمًا، وقيل أنّهم وطئوه بأقدامهم حتى مات(١).

الدروس المستفادة من قصة أهل القرية:

- يدرك المسلم الّذي يدعو إلى الله تعالى بأنّه إذا ما وجد معه من يقوّيه في الدعوة مخلصًا في ذلك، ويكونا عونا لبعضهما، فستكون النتيجة أنّهما سيكونا أقوى وأثبت في طريقهما في الدعوة.
- يدرك المسلم الداعية بأنّ ما عليه في دعوته إلّا التذكير، فهو غير محاسب عن نتيجة دعوته أو عن استجابة القوم.

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٠/٥٠٩).

قصة أصحاب الأعراف

أصحاب الأعراف هم أناس تعادلت حسناتهم وتساوت مع سيئاتهم، فكانوا في مكان مرتفع بين الجنّة والنّار ينتظرون مصيرهم أين يكون، إلى أن تتنزل عليهم رحمات الله –تعالى– ويضمهم مع أهل الجنّة، وقد سمّوا بذلك لأنّهم يعرفون أهل الجنّة وصفاتهم وأهل النّار وصفاتهم، وقد سمّى الله –تعالى– سورة عظيمة من سور القرآن الكريم بهذا الاسم.

قال تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ }(١).

الأعراف في اللغة: جمع عرف، وهو المكان المرتفع من الأرض كما عرّفها الطبري، وقد قيل لعُرف الدّيك عرفاً لارتفاعه على ما سِواه من جسده، ويعود سبب تسمية المكان المرتفع عرفاً؛ لأنّه يصبح أعرف ممّا انخفض منه.

---

(١) سورة الأعراف (٨/ ٤٥ :٤٩).

أمّا في الاصطلاح فالأعراف: حجاب أو سور أو تلّ مُشرف، أو جبال بين الجنّة والنّار، أو أيّ حاجز آخر يجعله الله يوم القيامة بين الجنّة والنار، ويطلع أصحاب الأعراف من خلاله على فريقيّ الجنّة والنار؛ يَعرِفون كلّاً بسيماهم(١).

يرجع سبب تسمية أصحاب الأعراف بهذا الاسم؛ لأنّهم عرفوا أهل الجنّة وعرفوا أهل النّار، وميّزوا بينهم، فهم عاينوا أهل الجنّة وعرفوا صفاتهم، وعاينوا أهل النّار وقد عرفوا صفاتهم، فسمّوا لذلك أصحاب الأعراف .

تنوعت أقوال العلماء والمفسّرين في تعريف أصحاب الأعراف على النّحو التّالي:

- ذهب ابن مسعود وكعب الأحبار وابن عباس –رضي الله عنهم– إلى القول بأنّ أصحاب الأعراف هم مساكين أهل الجنّة، واستدلّوا على ذلك بما أخرجه الإمام الطبري عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: "الأعراف سورٌ بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله – هكذا بالأصل – أن يعافيهم؛ انطلق بهم إلى نهرٍ يقال له: الحياة، حافتاه قصب الذهب، مكلَّلٌ باللؤلؤ، ترابه المسك؛ فألقوا فيه، حتى تصلح ألوانهم ويبدو في نحورهم شامة بيضاء يُعرَفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم، أتى بهم الرحمن، فقال: تمنوا ما شئتم، قال: فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٢ /٤٤٩).

ومثله سبعين مرة، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يُعرفون بها، يسمون مساكين الجنة".

- نقل ابن وهب عن ابن عباس –رضي الله عنه–: أنّ أصحاب الأعراف هم الذين ذكرهم الله في القرآن، وهم أصحاب الذّنوب العظيمة من أهل القبلة.
- ذكر ابن عطية في تفسيره: أنّ أصحاب الأعراف هم قومٌ كانت لهم ذنوب صغيرة لم تُكفَّر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا، وليست لهم كبائر، فيُحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غمّ وهمّ، فيقع ذلك في مقابلة صغائرهم إلى أن يدخلوا الجنة.
- يرى أبو نصر القشيري في قولٍ آخر، والشوكاني ومجاهد في أحد قوليه: أنّ أصحاب الأعراف هم فضلاء المؤمنين والشهداء الذين فرغوا من شغل أنفسهم، وتفرّغوا لمطالعة أحوال الناس وأحوالهم. يرى ابن عباس –رضي الله عنه– كما نقل القشيري: أنّ أصحاب الأعراف هم أولاد الزنا.
- يرى مجاهد: أنّ أصحاب الأعراف هم قومٌ صالحون، وأنّهم من الفقهاء والعلماء. ذهب المهداوي، ومعه الشوكاني والقشيري وشرحبيل بن سعد: أنّ أصحاب الأعراف هم الشُّهداء من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم. يرى شرحبيل بن سعد: أنّ أصحاب الأعراف هم الذين استشهدوا في سبيل الله والذين خرجوا للجهاد عاصين لآبائهم. يرى الزهراوي والنّحّاس: أنّ أصحاب الأعراف هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم فئةٌ

مختارةٌ في كل أمة. ذهب ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس في قول له، والشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير إلى: أنّ أصحاب الأعراف هم "قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فجُعلوا هناك إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يُدخلهم الجنّة بفضل رحمته لهم". وهذا ما رجّحه غالبية المفسّرين في كون أصحاب الأعراف هم أناس تساوت حسنتاهم مع سيّئاتهم، فلو زادت حسناتهم واحدة لدخلوا الجنّة، ولو زادت سيّئاتهم واحدة كانوا من أهل النّار، لكنّها تساوت عندهم، فيبقون في الأعراف إلى أن تحلّ بهم رحمة الله -تعالى- ثمّ يُخلهم الجنّة.

قصة أصحاب الفيل

وقعت حادثة الفيل في العام الذي وُلد فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، حيث ذكر الله – تعالى– في القرآن الكريم قصة أصحاب الفيل في **قوله -تعالى-**: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ }(١).

وأهلك الله –تعالى– فيها أبرهة الأشرم وفيلتهُ ومن معه من الجنود، فأرسل عليهم طيوراً ترميهم بالحجارة لما أرادوا هدم الكعبة الشريفة، فقد روى قيس بن مخرمة فقال: (ولدتُ أنا ورسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ عامَ الفيلِ). وسبب ذلك أنّ جدّ النجاشي لما كان والياً على اليمن؛ واسمه أبرهة الأشرم، قام ببناء كنيسةٍ وسمَّاها القلّيس، وأراد أن يحوّل الحجَّ إليها بدلاً من الكعبة، فجاء رجلٌ من كنانة إليها ليلاً وتغوّط فيها؛ ممّا أثار غضب أبرهة، فتوعّد أن يذهب إلى الكعبة ويدمّرها؛ مدَّعياً أنَّ السبب هو ما فعله الرجل من كنانة لما تغوّط فيها، لكنّه كان يسعى في المقدّمة لفتح مكة؛ حتى يقوم بربط اليمن ببلاد الشام، لتصبح جميعها بلاداً نصرانيَّة. فجهَّز جيشا كبيرا، واصطحب معه

---

(١) سورة الفيل

الكثير من الفيلة، ولما وصل إلى مكانٍ اسمه المغمّس والذي يقع بالقرب من مكة، بعث إلى أهل مكّة أنّه لم يأتِ للقتال، وإنّما ليهدم الكعبة، وقد علم أهّل مكّة أنّهم لا يقدرون على المواجهة، لكنّهم عَلِموا أنّ الله –تعالى– سيحمي بيته الكريم، وقيل إنّ سبب واقعة الفيل هو أنّ مجموعةٌ من الرّجال نزلوا بأرض النَّجاشي، وقاموا بإشعال النَّار لقضاء بعض حاجاتهم ونسوها، فامتدّت النَّار حتى وصلت الكنيسة فأحرقتها، فجهّز جيشه وتوجَّه إلى الكعبة ليهدمها.

توجه أصحاب الفيل وقائدهم لهدم الكعبة يُطلَق مصطلح أصحاب الفيل على الذين جاؤوا من الحبشة يريدون هدم الكعبة بقيادة أبرهة الأشرم ومعهم الفيلة، لكنَّ أهل مكّة فيهم عبد المطلب الذي كان يتميّز بحكمته، فأمرهم بإخلاء بيوتهم والصُّعود إلى جبال مكة، وكان عبد المطّلب قد عرض الأموال الكثيرة على أبرهة الأشرم على أن يعود دون هدم الكعبة لكنَّه رفض، وأعاد إلى عبد المطلب إِبلَهُ التي كان قد استولى عليها، فأخذ عبد المطلب رجالاً من قريش إلى الكعبة وأمسك بحلقتها وبدأوا يدعون الله –تعالى– أن يدفع أبرهة وجنوده عن البيت. فلما قدم أبرهة ولم يجد هناك من يصدّه، أصرّ على أن يدخل إلى الكعبة ويهدِمها، لكنَّ أهل مكة يعلمون أنّها بحماية الله –تعالى–، فلمَّا وصل جيش أبرهة أبى الفيل أن يدخل الحرم، فإن أدخلوه رفض وإن أعادوه عاد، وبينما هم على هذه الحال إذ أرسل الله –تعالى– طيورا صغيرة أقبلت عليهم كالسحاب تحمِلُ في أفواهها وأقدامها حجارةً صغيرةً، فاستمدت حتى أظلّتهم جميعاً، وبدأت ترميهم بالحجارة وتُهشِّمهم، ثمّ أصابهم الجدري فكُلّما حكَّ أحدهم جلده تساقط هذا الجلد عن بدنه. حفظ الله البيت الحرام

وجزاء أصحاب الفيل أقدمت طيورٌ من ناحية البحر، فتعجَّب عبد المطلب منها وقال: "واللَّه إنها لطير غريبة، ما هي بنجدية ولا تهامية"، وإذ بها تقترب ومعها حجارةٌ من طين، وبدأت ترمي الحجارة عليهم، فهربوا يريدون النَّجاة، وكان لا يُصاب أحدٌ بها إلا تساقط لحمه عن عظمه وهَلَكَ، وأصابت أبرهة وبدأت أصابعه تتساقط واحداً تلو الآخر، فهلك الكثير منهم في الطريق، وما أن وصل أبرهة إلى اليمن حتى هلك ومات، وقد شبّههم الله –تعالى– بالعصف المأكول –وهو التِّبن الذي أكلت منه البهائم–، فصار أبرهة وجنوده بعد أن انسلخت جلودهم عن عظامهم وأُهلكوا.

وقد قيل في بيان العصف أنّه التبن، وقيل الزرع المأكول، وقيل قشرة القمح التي تعلو الثَّمرة([1]).

الدروس المستفادة من قصة أصحاب الفيل :

- بيان قدرة الله –تعالى– في القضاء على أعدائه الذين أرادوا هدم بيته، فأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل، حتى أهلكتهم ولم يبقَ منهم أحد.
- التمهيد لرسالة سيدنا –محمد صلّى الله عليه وسلّم–، فقد كانت هذه الحادثة معجزةً من معجزات الله –تعالى– في العام الذي وُلد فيه سيدنا محمّد –صلى الله عليه وسلم–، وبيان أنَّ الكعبة ستكون قِبلَةً للمسلمين بعد بعثته –عليه الصلاة والسّلام–.

([1]) ينظر سبل السلام من سيرة خير الأنام صلى الله عليه وسلم صـ٣٤ .

- التأكيد على حرمة الكعبة وحفظ الله -تعالى- لها، فقد أهلك من اعتدى عليها ليؤكِّد عظمتها وحرمة التَّعدي عليها، فهي بيت الله -تعالى- وأوَّل بيتٍ وُضِع للنَّاس، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ اللهَ حَبَسَ عن مكةَ الفيلَ، وَسَلَّطَ عليْها رسولَ اللهِ والمؤمنينَ، ألا فإنَّها لم تَحِلْ لأَحَدٍ قبلِي ولاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي).
- إظهار نعم الله -تعالى- على كفار قريش، فقد جمعهم ورزقهم ونصرهم، ويُفترض منهم تجاه ذلك أن يشكروه ولا يشرِكوا به أحداً، وأن لا يعبدوا سواه.

مواساة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين من خلال ذكر هذه القصص في القرآن الكريم، فإنَّ الله -عز وجل- الذي أهلك هؤلاء قادرٌ على إهلاك غيرهم من الأعداء.

دعوة للتفكر

قال الله تعالى: {تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢}(١).

جاء القرآن الكريم ليؤكد ما نزل من أجله القرآن ليكون نذيرًا للعالمين، ومُذكرًا لهم بقدرته سبحانه ووحدانية وسعة علمه وحكمته، فكل ما في الكون أوجده سبحانه وتعالى لسبب وبسبب.

ثمَّ أشار بأنه وهب الإنسان العقل ليتدبر ويتفكر في الكون.

قال الله تعالى: {هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣}(٢).

ولقد أكد سبحانه بأنَّ القرآن الكريم لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.

قال الله تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}(٣).

ومِمَّا يدعو للتدبر والتفكر ماذا تحت الأرض؟ سؤال يتبادر إلى الكثير وخاصة صغار السنّ، حيث يعتقد الكثير من الناس أن الأرض تتكون من طبقات من التربة فقط، ولكن هذا الأمر غير صحيح

---

(١) سورة الفرقان (١٩ /١، ٢).

(٢) سورة الإنسان (٢٩ / ١،٢).

(٣) سورة الأنعام (٧/ ٣٨).

فقد توصل العلماء أن الكرة الأرضية تتكون من طبقات مختلفة ولكل طبقة مكوناتها الخاصة، حيث تمَّ تقسيم طبقات الكرة الأرضية من قبل العلماء إلى ثلاثة أقسام وهي: "طبقة باطن الأرض المؤلفة من النواة التي تقع في المركز، طبقة الوشاح، وطبقة سطح الأرض المؤلفة من قشرة رقيقة إذا ما قورنت بالنسبة لحجم الكرة الأرضية".

وبعد التطور الكبير في مجال العلوم والتكنولوجيا، وتطور الأجهزة المستخدمة، والاهتمام بعلم الزلازل تبين للعلماء بأنَّ كل طبقة من هذه الطبقات مقسمة إلى أجزاء أخرى، ليبلغ عددها بالمجمل سبع طبقات، وهو ما دلَّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ).

١-الطبقة الأولى "القشرة":

تتكون بشكل عام من العناصر الآتية: ٤٧٪ أكسجين، و٢٧٪ سيليكون، و٨٪ ألمنيوم، و٥٪ حديد، و٤٪ كالسيوم، في حين يشكل كل من المغنيسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم ما نسبته ٢%، ومن الجدير بالذكر أن القشرة الأرضية مقسمة إلى تسع صفائح تكتونية رئيسية واثنتي عشرة صفيحة صغيرة، ويُعد تحركها واصطدامها ببعضها سببًا لحدوث الزلازل والجبال، أما بعدها عن بعضها فهو سبب لتشكل الصدوع والأخاديد.

وتقسم طبقة القشرة إلى طبقتين رئيسيتين، هما:

-القشرة المحيطية:

وتشكل ثلثي مساحة سطح الأرض تقريبًا، ويتراوح عمقها ما بين ٠- ١٠ كم، وتتكون غالبًا من الصخور البازلتية.

-القشرة القارية:

وتغطي ثلث سطح الأرض، ويتراوح سمكها بين ٣٥-٧٠ كم.

٢-الطبقة الثانية هي "طبقة الوشاح":

عبارة عن الطبقة الوسطى بين القشرة الأرضية واللب، وتشكل ٨٤٪ من حجم الكرة الأرضية، حيث يبلغ سمك هذه الطبقة ٢٩٠٠ كم تقريبًا، كما تتميز هذه الطبقة بدرجة الحرارة المرتفعة، حيث تتراوح درجة الحرارة ما بين ١٠٠٠ درجة مئوية في حدودها مع القشرة الأرضية، و٣٧٠٠ درجة مئوية عند حدودها مع اللب، وتتكون طبقة الوشاح بشكل عام من الصخور السيليكاتية التي تحوي أكاسيد المغنيسيوم، والحديد، والألمنيوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، ومن الأمثلة على الصّخور الموجودة في هذه الطبقة صخر البايروكسين، وصخر الزبرجد الزيتوني، وصخور الجرانيت.

وتتقسم طبقة الوشاح إلى ثلاثة أقسام:

-الوشاح العلوي:

وهو الجزء الذي يقع تحت القشرة الأرضية مباشرة، حيث يفصل فيما بينهما انقطاع موهو الذي يتراوح سُمكه ما بين ٨ كم في قيعان المحيطات، و٣٢ كم في القارات، وتتكون هذه الطبقة من جزأين أساسيين، هما: الغلاف الصخري: وهي الطبقة العلوية القريبة من قشرة الأرض، ويمتد عمقها حتى ١٠٠ كم تقريباً، الغلاف المائع: ويعرف بغلاف وري، ويتميز بأنه يحوي على مواد لدنة ذات درجة حرارة عالية، تنشئ تيارات الحمل بين الطبقة العلوية وغلاف موري، يتراوح عمق هذا الجزء بين ١٠٠-٤١٠ كم تحت سطح الأرض، وتُعد الحركة البطيئة لهذا الجزء هي السبب الرئيس في حركة الصفائح التكتونية.

-الوشاح السفلي:

ويطلق على هذه الطبقة اسم ميزوسفير، وتكون على عمق يمتد من ٦٦٠-٢٧٠٠ كم تحت سطح الأرض وتتميز هذه الطبقة بارتفاع درجة حرارتها مقارنة بطبقة الوشاح العلوي، ويتوسط طبقتي الوشاح اللوي والوشاح السفلي المنطقة الانتقالية التي يتراوح عمقها ما بين ٤١٠-٦٦٠ كم تحت سطح الأرض، وتتميز الصخور داخلها بكثافتها العالية التي تأخذ شكل البلورات، وتكمن أهمية

هذه الطبقة بأنها تمنع انتقال المواد بين الوشاح العلوي والسفلي؛ بالتالي الحفاظ على مستوى غلاف موري ثابتًا ومنع انغراسه في الوشاح السفلي.

-الطبقة:

وهي عبارة عن طبقة ضحلة تقع تحت الوشاح السفلي أعلى منطقة اللب الخارجي، على عمق ٢٩٠٠ كم تقريبًا تحت سطح الأرض، تنفصل هذه الطبقة عن اللب الخارجي عن طريق انقطاع غوتنبرغ.

٣-طبقة اللب (النواة):

عبارة عن مركز الأرض، وتتكون من طبقتين رئيسيتين هما:

-اللب الخارجي:

ويبلغ سمك هذه الطبقة ٢٢٠٠ كم تقريبًا، وهي عبارة عن طبقة سائلة تتكون من معدني النيكل والحديد الذائبين، وتتراوح درجة الحرارة فيها ما بين ٤٥٠٠-٥٥٠٠ درجة مئوية، ويعمل دوران هذه الطبقة على تشكيل المجال المغناطيسي حول الأرض الذي بدوره يعمل على حماية الأرض من الرياح الشمسية.

-اللب الداخلي: يتكون بشكل عام من معدني الحديد والنيكل بحالتهما الصلبة، على خلاف وجودهما في الحالة السائلة في طبقة اللب الخارجي، ويعود السبب وراء ذلك إلى الضغط الكبير في هذه الطبقة والذي يحول دون تحولهما للحالة السائلة، حيث تبلغ قيمة الضغط في هذه الطبقة ٣,٦ مليون ضغط جوي، ويبلغ سمك هذه الطبقة ١٢٥٠ كم تقريبًا، في حين تتراوح درجة الحرارة فيها ما بين ٥٥٠٠ إلى ٧٠٠٠ درجة مئوية".

لقد بذل العلماء جهودًا مضنية لاكتشاف كل شيء حولهم، فاستطاعوا أن يسافروا إلى أعمق أعماق المحيطات وتواصلوا إلى معلومات مذهلة، كما استطاعوا استكشاف سطح الأرض كله تقريبًا، ولم

يقفوا عند هذا فحسب بل انطلقوا نحو الفضاء والعالم الخارجي، ولكن حينما يتعلق الأمر بباطن الأرض تجد أن الأمر أصبح مختلفًا فلا توجد معلومات كثيرة حول هذا الموضوع فأعمق حفرة تمَّ حفرها على سطح الأرض كانت بعمق حوالي ١٢ كيلومترًا، وحوالي ٧,٤٥ ميلًا ؛ وهو بئر كولا العميق الكائن في روسيا، ولم يتمكنوا من الحفر أكثر من ذلك بسبب درجة الحراة العالية كلما توغلوا إلى الأعماق والتي تصل حد الانصهار.

ولقد تمَّ تمويله من قبل الاتحاد السوفيتي واستمر حفره (١٩ عامًا) من ١٩٧٠:١٩٨٩ فلا يستطيع إنسان أن يصل إلى أعماق بعيدة من الأرض بسبب الحرارة المرتفعة وكذلك الضغط، ويصعب على التكوين البشري مقاومة تلك الظروف.

ومع كل هذا فنحن لا نملك المعلومات الدقيقة حول عمر كوكب الأرض أو الشمس أو القمر فكل المعلومات التي نمتلكها مبنية على الحدس وبعض العمليات الحسابية والقوانين وذلك بمساعدة الأدوات التكنولوجية ليتم استنتاج أفضل التخمينات.

وتوصلوا لذلك بفضل دراسة الزلازل (وهي عبارة عن صدمات قوية تهز وتدير سطح الكوكب).

وهنا يأتي دور العلماء الذين يستخدمون (محطات رصد) والتي تكون مثبتة بجميع أنحاء العالم والتي تشعر وتسجل تلك الاهتزازات أثناء مرورها.

وتنتقل هذه الموجات بسرعات مختلفة، وذلك اعتمادًا على نوع المادة التي تخترقها وتعبر من خلالها ومن خلال الأجزاء الداخلية للأرض ووقتها يمكن للعلماء استنتاج المواد الموجودة في باطنها (وذلك من خلال حساب المد التي تستغرقها هذه الموجات للوصول إلى موقع الاستماع من نقطة أصل الزلزال).

ويشغل بال العلماء دائمًا كيف تكونت الأرض وما يحتويه الفضاء في محاولة لفهم هذا الكون العجيب المليء بالأسرار.

وقد أشار القرآن الكريم **بقوله تعالى**: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (١).

فلو أن أشجار الأرض كلها أقلام والبحر مداد لها ويمد بسبعة أبحر أخرى، وكتب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد، إنَّ الله عزيز في انتقامه، حكيم في تدبير خلقه.

فعلينا أن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يعطينا العلم بقدر، وبقدر ما يستطيع الإنسان فهمه واستيعابه وعلمه، فاتساع علم الخالق يفوق الخيال أيها الإنسان المخلوق!

وما وصل إلينا من هذا الكمّ من العلم إنما هو لإثبات وحدانيته وقدرته سبحانه وتعالى، فهو القادر والمنفذ والفاعل لكل شيء في الوجود سبحانه عما يقولون علوًا كبيرًا.

وما هنا وقفت على جواب سؤالي بأنَّ الخلق خلقه والملك ملكه، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

وكل شيء عنده بقر وما بوسعي إلا أن أقول يا رب خذ بيدي وأكرمني.

وعليك أخي المسلم أن تتجه لله تعالى في كل شيء؛ لأن الأمر كله ليس بيدك ولا بيد أحد؛ بل الأمر كله لله.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ" (٢).

---

(١) لقمان (٢١ /٢٧).

(١) حديث حسن أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٧١).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ"(١).

قال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ}(٢)

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (٣).

اللهم أنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم أت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يستجاب له.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منَّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.. اللهم لا تدع لنا ذنبًا إلا غفرته ولا همًّا إلا فرجته ولا دينًا إلا قضيته ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها يا أرحم الراحمين.

اللهم تقبل منا الصيام والقيام. اللهم اجمع شمل المسلمين ووحد كلمتهم، اللهم وحد راية الإسلام ورد كيد الكافرين، اللهم كن عونًا لكل من قال لا إله إلا الله. (اللهم آمين).

ولهذا كله فقد أمرنا الله تعالى بالتدبر والتفكر الذي هو ضياء الإيمان. فالتدبر في آي القرآن عبادة، والتفكر في آي الكون عبادة.

---

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥١٦).

(٣) سورة غافر (٢٣ / ٦٠).

(١) سورة الأعراف (٨ /١٧٤).

قال الله تعالى:

{كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٢).

إنَّ التفكر عبادة عظيمة، فهو عبادة الأنبياء، ودرب الأتقياء، نور لمن تفكر، وطريق موصلة للخالق تبارك وتعالى، ومن تبحر فيها وجد الآيات الباهرات، وجميل المعجزات، وقدرة الله تعالى والدقة المتناهية التي يعجز العقل عنها ويستسلم لمولاه وينصاع، ويؤمن بتفرده بالألوهية والربوبية.

فالتفكر في خلق الله:

- يكشف عن بديع صنع الخالق العظيم ودقة إتقانه للمخلوقات.
- يفتح الأبواب لطلب العلم والمعرفة، فيكتشف المرء علوما جديدة في شتى المجالات وتزداد قوة الإيمان بسعة علم الله.
- يورث الحكمة والرأي السديد.
- يكسب الروح صفاء ونقاء.
- يزرع في النفس الخوف والخشية والمناجاة لله عزَّ وجلَّ وأنه من أعظم العبادات.
- يحي القلب ويزيد من إيمانه ويقينه بقدرة الله وعظمته.

---

(٢) سورة ص (٢٣ /٢٩).

(١) سورة ال عمران (٤/ ١٩٠، ١٩١).

- يزيد من محاسبة النفس على أخطائها، ويزيد اليقين بمجيئ يوم القيامة، والوقوف بين يدي الخالق العظيم فيبعث على العلم الدؤوب الصالح ليكون زادًا له يوم القيامة.

فلو تفكر الناس في عظمة ربهم ما عصوه.

قال الله تعالى: {إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩}(١).

ولو علم المؤمن ما أعده الله له في الآخرة لسار في العمل لها عابدا شاكرا مخلصا راضيا محبا بقلبه وعقله وكيانه ولرزقه الله الهناء والسعادة وراحة البال.

---

(١) سورة التكوير (٣٠ /١ :٢٩)

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

لقد كان الهدف الرئيس الذي ترمي إليه الصفحات السابقة هو تنمية وتقوية الشعور بالاحتياج إلى الترقي في مدارج الإيمان، والتفكر والتدبر في آي القرآن؛ ليكون ذلك بمثابة الوقود الذي يُشعِل الرغبة، ويُلهِب العزائم نحو السير في طريق الإيمان، والعمل المستمر على تقويته.

لذلك أدعو نفسي وأدعوك — أيها القارئ – وقبل أن نترك هذه الصفحات إلى استثمار تلك الحالة الشعورية التي قد انتابتنا ونحن نعيش مع حياة الأنبياء والصالحين، وذلك في اتخاذ قرار جازم ببداية جديدة مع الله عز وجل، وعزم صادق على إحياء قلوبنا بالإيمان، والعيش في كنف الصالحين في كل زمان، ومصاحبة القرآن فهما وحفظا وتدبرا، ومن ثَمَّ العمل بكل ما جاء فيه ، فهو المشكاة التي تنير الطريق في زمان تعصف بنا الفتن والشهوات .

هيا — أيها القارئ – نتخذ القرار الآن وقبل أن يضعف عزمنا، وأحذر نفسي وإياك من الاستجابة لوساوس الشيطان بأن ظروفنا ومشاغلنا وأعمارنا لا تسمح بذلك، فالذي يُحيي القلوب ويُزَكِّي النفوس هو الله عز وجل، وهو سبحانه يريد منَّا – كبداية – صدق الرغبة، وقوة العزم حتى يُحيي قلوبنا ويشرح صدورنا بنور الإيمان:{فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١].

ويُريد منَّا بعد صدق العزم: حُسن الاستعانة به والتوكل عليه في تحقيق ذلك الأمر:

{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩].

وهو الهادي إلى صراط مستقيم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- البداية والنهاية لأبي الفداء لإسماعيل بن كثير ت(٧٧٤هـ) ، دار إحياء التراث – بيروت– ط: الأولى –١٩٨٨م.
- تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري ت(٣١٠هـ) ، دار إحياء التراث – بيروت ، ط: الثانية –١٣٨٧هـ .
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور التونسي ت(١٣٩٣هـ) – الدار التونسية للنشر –تونس ط: الأولى ، ١٩٨٤م .
- تفسير ابن كثير لأبي الفداء لإسماعيل بن كثير ت(٧٧٤هـ) ،تح / محمد حسين شمس الدين– دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٩هـ
- التفسير الوسيط د/ محمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر ،الفجالة– القاهرة –ط: الأولى ١٩٩٧م .
- جامع البيان لمحمد بن جرير الطبري ت(٣١٠هـ)، تح / أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة– ط: الأولى ،٢٠٠٠م .
- الجامع لأحكام القرآن لمحمد القرطبي (٦٧١هـ) ، تح / أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط: الثانية ، ١٩٦٤م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، لمحمد بن إسماعيل البخاري – تح / محمد زهير ، دار طوق النجاة ، ط: الأولى ،١٤٢٢هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الآلوسي ت(١٢٧٠هـ)، تح / علي عبد الباري – دار الكتب العلمية – بيروت ، ط: الأولى ١٤١٥هـ.
- زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد ت(١٣٩٤هـ) ، دار الفكر العربي ،ط: الأولى ،٢٠٠٤م .

- سنن أبي داوود لأبي داوود السجستاني ت(٢٧٥هـ) ، تح/ محمد محيي الدين ، المكتبة العصرية – بيروت – ط:الأولى ،١٩٧٨م .
- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي ت(٢٧٩هـ) ، تح / أحمد محمد شاكر ، مكتبة الحلبي– مصر – ط: الأولى ،١٩٧٥ م.
- السنن الكبرى لأبي عبد الرحمن محمد النسائي ت(٣٠٣هـ) ، تح / شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط: الأولى ،٢٠٠١م .
- السيرة النبوية لجمال الدين عبد الملك بن هشام ت(٢١٣هـ) تح/ مصطفى السقا – مكتبة الحلبي، القاهرة ، ط: الثانية ، ١٩٥٥م .
- فقه السيرة لمحمد الغزالي ت(١٤١٦هـ) ، دار القلم – دمشق – ط: الأولى –١٤٢٧هـ.
- قصص الأنبياء لأبي الفداء لإسماعيل بن كثير ت(٧٧٤هـ) ،تح / مصطفى عبد الواحد – دار التأليف – القاهرة – ط: الأولى ١٩٦٨م .
- قصص الأنبياء لمحمد متولي الشعراوي ، دار القدس – القاهرة –ط: الأولى –٢٠٠٦م
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد النيسابوري ت(٤٠٥هـ) ، تح / مصطفى عطا، دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولي –١٩٩٠م .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج
- ت(٢٦١هـ) ، تح/ محمد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت،
- ط: الثانية – ٢٠٠٤م
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ت(٢٤١هـ) ، تح / شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة –
- ط: الأولى –٢٠٠١م .
- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ت(٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث – بيروت –
- ط:الثالثة – ١٤٢٠هـ .

الفهرس

إهداء ٥
المقدمة ٧
الطريق إلى معرفة الله تعالى ٩
قصة سيدنا آدم عليه السلام ٢٨
قصة سيدنا إدريس عليه السلام ٤٩
قصة سيدنا نوح عليه السلام ٥١
قصة سيدنا هود عليه السلام ٦٧
قصة سيدنا صالح عليه السلام (أصحاب الحجر) ٧٧
قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ٨٨
قصة إسماعيل عليه السلام ١١٦
قصة إسحاق عليه السلام ١١٩
قصة لوط عليه السلام ١٢١
قصة يعقوب عليه السلام ١٣١
قصة سيدنا يوسف عليه السلام ١٣٣
قصة أيوب عليه السلام ١٥٠
قصة يونس عليه السلام ١٥٥
قصة سيدنا موسى عليه السلام ١٦٠

قصة يوشع عليه السلام ٢٠٥
قصة سيدنا إلياس عليه السلام ٢٠٧
قصة ذي الكفل ٢١١
قصة اليسع عليه السلام ٢١٢
قصة شمويل عليه السلام ٢١٤
قصة سيدنا داود عليه السلام ٢١٧
قصة سليمان عليه السلام ٢٢٤
قصة عُزير عليه السلام ٢٣٥
قصة زكريا عليه السلام ٢٣٧
قصة يحيى عليه السلام ٢٤٣
قصة عيسى عليه السلام ٢٤٧
قصة سيدنا محمد ﷺ ٢٦٦
الخلفاء الراشدون ٢٩٨
القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى ومصدر تشريعه ٣٣٤
قصة أصحاب السبت ٣٤٣
قصة أصحاب الأخدود ٣٤٧
قصة أصحاب الكهف ٣٥٣
قصة أصحاب الجنة ٣٥٩
قصة أصحاب القرية ٣٦٢

قصة أصحاب الأعراف ٣٦٥
قصة أصحاب الفيل ٣٦٩
دعوة للتفكر ٣٧٣
الخاتمة ٣٨٢
المصادر والمراجع ٣٨٣
الفهرس ٣٨٥